معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج







معارك العرب (17)

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : الصراع ضد الصليبيين (2) -عصر الإسترداد الإسلامي
المؤلف : العميد الركن أبو طلال الفغالي
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 272
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن أبو طلال الفغالي

ماجستير في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (17)

الصراع ضد الصليبيين (2)
عصر الاسترداد الاسلامي

NOBILIS
2007

القسم الأول

عماد الدين زنكي وابنه نور الدين
يوحّدون بلاد الشام
ويضربون الفرنجة في الوسط

(١١٢٨ - ١١٦٤)

الفصل الأول

الأتابك عماد الدين زنكي ينتصر على الفرنجة ويستولي على إمارة الرها (١١١٤-١١٤٦)

١ – المملكة اللاتينية

في تموز ١٠٩٩، سقطت القدس بيد الفرنجة. وبعد سقوطها، شعر البعض منهم أن نذورهم قد وُفيت، وأن الغاية الرئيسية التي أتوا من أجلها إلى بلاد الشرق قد تحقّقت، فقفلوا عائدين إلى ديارهم الأوروبية بعد ان ملّوا حياة الحرب والتشرّد والسفر.

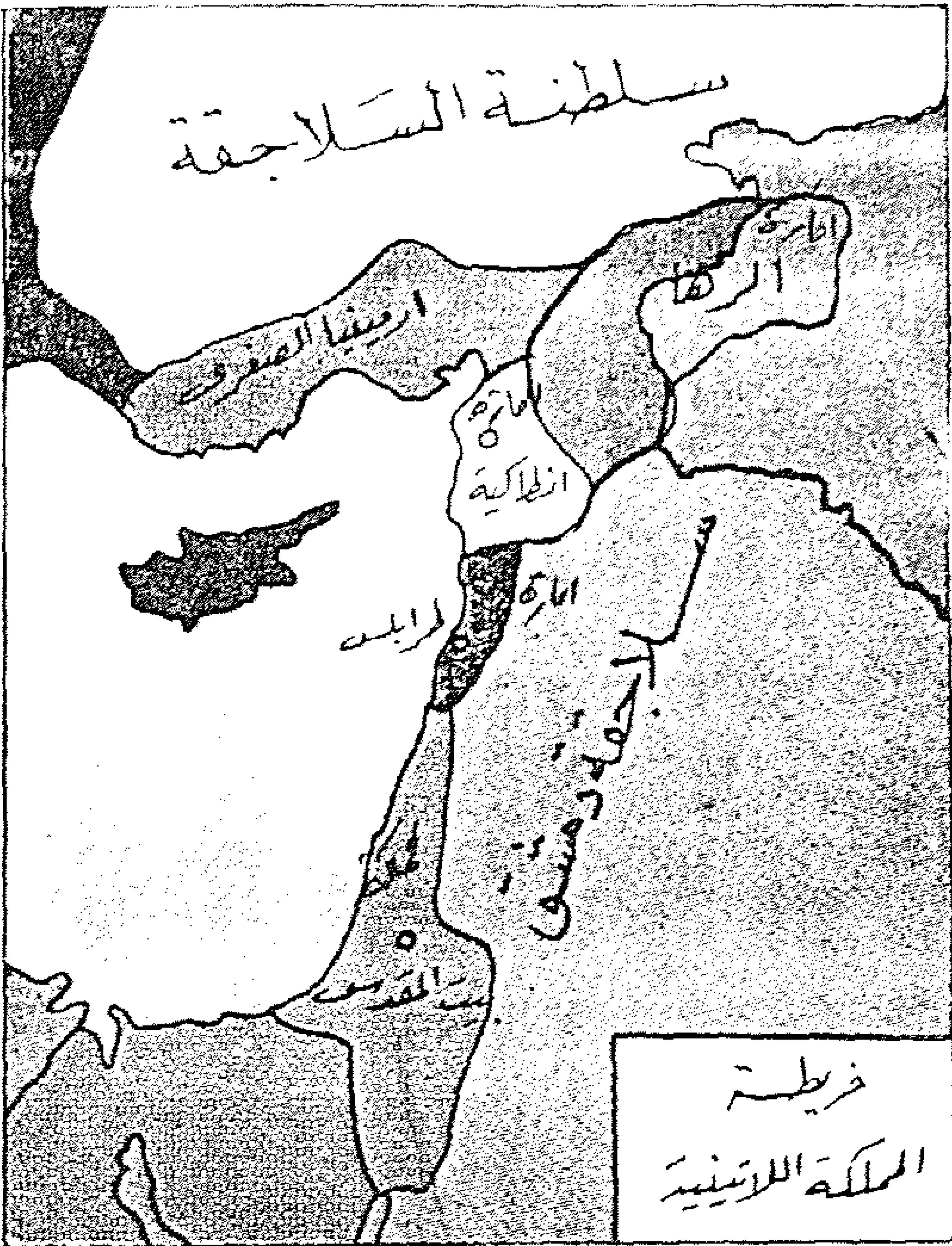
وفي القدس أسّس الفرنجة الصليبيون، المملكة اللاتينية، ونصّبوا عليها غودفري دي بويون الفرنسي ملكاً، ولكنه مات بعد عام واحد فبويع مكانه أخوه أمير الرها بودوان الأول.

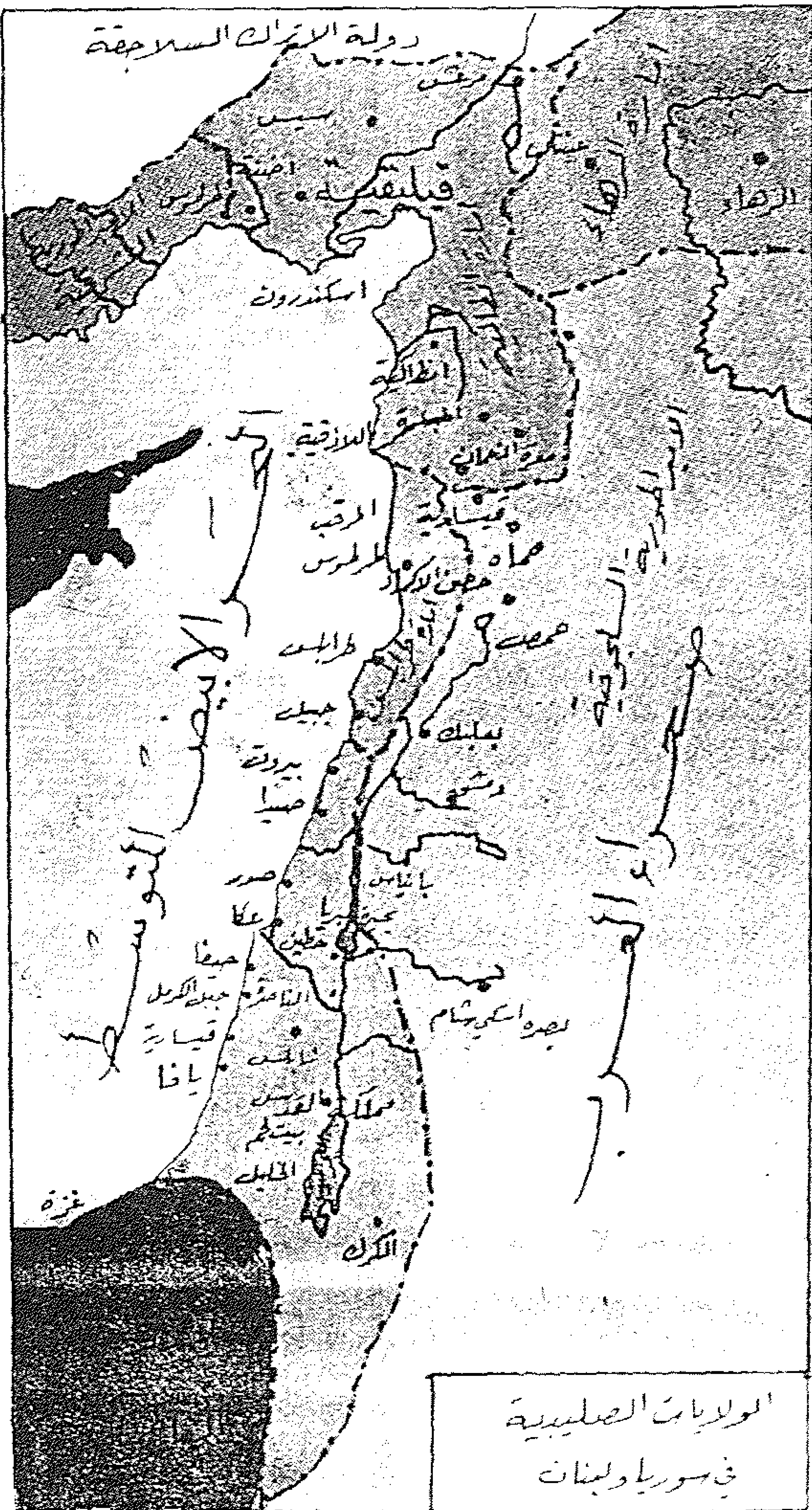
تألّفت المملكة اللاتينية هذه من أربعة أقسام رئيسية هي: مملكة القدس، وإمارة طرابلس وإمارة انطاكية وإمارة الرها. وأقدم هذه الأقسام كانت إمارة الرها التي أسّسها بودوان دي بويون السنة ١٠٩٨، في حوض الفرات الأعلى في جنوبي شرقي آسية الصغرى.

وفي السنة ١٠٩٨، أنشأ بوهيمند إمارة انطاكية. وكانت حدودها تمتدّ من خليج الاسكندرونة حتى جنوبي اللاذقية، ومن غربي مدينة حلب حتى ساحل البحر المتوسّط.

وفي السنة ١٠٩٩. نشأت مملكة القدس، وهي أكبر الأقسام مساحة لأنّ حدودها كانت تمتدّ من خليج العقبة في الجنوب إلى نهر الكلب في لبنان في الشمال، ومن نهر الأردن في الشرق إلى البحر المتوسّط في الغرب. وقد انتخب غودفري دي بويون أول حاكم عليها.

خريطة المملكة اللاتينية





الولايات الصليبية في سوريا ولبنان

أما إمارة طرابلس فقد أسّسها ريمون دي تولوز بعد ذلك التاريخ بقليل. وكانت تمتدّ من نهر الكلب إلى قلعة المرقب جنوبي مدينة اللاذقية.

وكانت مملكة القدس وكلّ إمارة من الإمارات الثلاث تقسم إلى أجزاء. فمملكة القدس، مثلاً، كانت مقسّمة إلى أربع «بارونات» كبيرة يحكم كلّ منها نبيل من الفرنج يحمل لقب «بارون»، وإلى اثني عشر إقطاعية صغيرة أخرى. وكان حكام هذه الأقسام مسؤولين أمام الملك مباشرة، ولكنهم كانوا يتمتّعون باستقلال داخلي كبير جداً في إقطاعاتهم.

كانت الإمارات تتمتّع بقسط وافر جداً من الاستقلال في شؤونها الداخلية والخارجية. فالأمير يعيّن موظّفيه ويرقّيهم ويعزلهم ويفرض الضرائب ويسنّ القوانين، ويجمع الجنود ويدرّبهم، ويبني القلاع والحصون، وفي أغلب الأحيان كان أحدهم يعقد صلحاً مع المسلمين أو يعلن حرباً عليهم، دون أن يراعي العلاقات القائمة بينهم وبين المملكة والإمارات الأخرى. وكثيراً ما كان الخلاف يدبّ بين الزعماء الفرنجة أنفسهم فيقتتلون ويتحاربون.

ولكن هذا الاستقلال لم يجرّد الملك من جميع حقوقه في التدخّل في شؤون الإمارات. فإذا شغر منصب الإمارة في أحد الأقسام، كان الملك يتسلّم الحكم فيه بصورة مؤقتة حتى يُنتخب أمير جديد أو حتى يبلغ الوريث الشرعي سن الرشد.

وإذا تجدّد القتال بين الفرنجة والمسلمين، كان الملك يطلب إلى جميع الأمراء أن يمتشقوا الحسام للدفاع عن المملكة كلّها، ويضغط بشدّة على كلّ أمير يتردّد في تلبية الطلب حالاً.(١)

٢ - الوضع العام في الشرق الإسلامي المواجه للفرنجة

بلغت المملكة اللاتينية أوج قوّتها في الثلث الأول من القرن الثاني عشر. على أن أكبر ما حازه الفرنجة من ميزة هو ما وقع من

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ١٥ - ٢٣ - ٢٤.

تصدّع وحدة العالم الإسلامي في الشرق. فلم يتحقق هدف الحملة الفرنجية الأولى، إلاّ بسبب ما وقع بين القادة المسلمين من أحقاد، وامتناعهم عن العمل سوياً. فالمسلمون الشيعة الذين يتزعّمهم الخليفة الفاطمي، يكنّون الكراهية للأتراك السلاجقة السنيّين والخليفة العباسي في بغداد. أما ما جرى بين الترك، فقد وقع التنافس المستمر بين السلاجقة والدانشمنديين، وبين الأراتقة وبيت تتش، ثمّ بين ولدي تتش، دقاق ورضوان. وزاد الأتابكة المستقلّون من أمثال كربوقا في فوضى واضطراب مطامعهم الشخصية، على حين أن بعض الاسرات العربية الصغيرة الحاكمة، أمثال بني عمار في طرابلس، وبني منقذ في شيزر أفادت من الاضطرابات في المحافظة على استقلالها القلق المحفوف بالمخاطر. وما أحرزه الفرنجة الأوائل من انتصارات زاد من الفوضى وأبعد بين الأمراء المسلمين وأضعف لديهم الروح المعنوية وأكثر من تبادل الاتهامات.[1]

لقد استفاد الفرنجة والبيزنطيون من الهزيمة التي حلّت بالمسلمين في الثلث الأول من القرن الثاني عشر. إذ إن بيزنطية في الشمال، استطاعت أن تفيد من الحرب الصليبية في إعادة سيطرتها على الشطر الغربي من آسيا الصغرى. وأعاد الأسطول البيزنطي لسلطة الامبراطور ،كلّ الساحل الذي يدور حول شبه جزيرة آسيا الصغرى. حتى ان اللاذقية، المرفأ السوري، أضحى مرّة أخرى في حوزة بيزنطية،[2] بفضل مساعدة كونت تولوز. أما الإمارات الأرمنية فأضحت تأمل بالبقاء والعيش الرغيد. وترتّب على انتصارات الصليبيين الأولى، أن قامت للفرنج إمارات ثلاث ومملكة، منها إمارتان - انطاكية والرها - أضحتا اسفيناً في العالم الإسلامي.[3]

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٢.

(٢) ابن القلانسي، ج ١، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٣) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٢ - ٢٣.

٣ – عماد الدين زنكي ومعاركه مع الفرنج

٣١ - توطئة:

السنة ١١٠٦، أعطيت الموصل مع إمارتي الجزيرة وديار بكر إلى مغامر تركي اسمه جاولي سقاوه الذي استقرّ بوادي الفرات ودخل في مفاوضات مع رضوان صاحب حلب لطرد قلج أرسلان من الموصل ولشنّ هجوم مشترك على انطاكية.(١) ففي حزيران ١١٠٧، هاجما الموصل وهزما قلج أرسلان على ضفاف نهر الخابور وقد مات قلج غريقاً في النهر أثناء اجتيازه لائذاً بالفرار.

دخل جاولي الموصل، غير أن حكمه كان وحشياً مما جعله بغيضاً عند الناس. وكان ولاؤه للسلطان محمد مشكوكاً به، فأمر بعزله فأنفذ لقتاله جيشاً بقيادة مملوكه «مودود» الذي أصبح في السنوات القليلة التالية من أكبر أبطال الإسلام.(٢) فانتصر على جاولي ودخل الموصل.

في السنة ١١١٣، قاد بودوان الصليبي حملة عسكرية لقتال طغتكين، أتابك دمشق الذي ظفر بمساعدة مودود واياز الأرتقي، ونجح الحلفاء المسلمون في استدراج بودوان إلى أراضي دمشق، إلى جسر الصنبرة، على نهر الأردن، حيث تعرّض لهجوم المسلمين، فنزلت به هزيمة ساحقة.(٣) ومضى المسلمون في زحفهم حتى بلغوا طبريا. وبعد أن ظلّ مودود وطغتكين على تردّدهما بضعة أسابيع، إذا كان بإمكانهما ام لا مواجهة كلّ جيش الفرنج. لذلك قرّرا الانسحاب إلى دمشق. وبينما كان مودود يدخل المسجد الكبير مع مضيفه طغتكين لتأدية صلاة الجمعة (أيلول ١١١٣)، حتى طعنه أحد الباطنية بخنجر فقتله. ويقال إن طغتكين كان هو الذي دبّر جريمة قتله.(٣)

تخلّص الفرنج من عدوّ لدود لهم، بوفاة مودود، وفي العاشر من كانون الأول ١١١٣، لحق به رضوان أمير حلب فخلفه على

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢) ابن الأثير، ج ، ص ٢٥٩ – ٢٦١.

(٣) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٠٦.

الحكم الأمير ألب ارسلان، ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره. وكان ولداً ضعيفاً، سيئ الخلق، غليظ القلب. لم يستمر حكم ألب ارسلان فترة طويلة. قام أثناءها بزيارة ودّية إلى دمشق، فاستقبله طغتكين بمظاهر التشريف. ولم يطل الوقت حتى اغتيل في فراشه واستلم أخوه سلطان شاه العرش مكانه وكان عمره حوالى الست سنوات.(١)

وعند وفاة مودود، سلّم السلطان السلجوقي، الموصل إلى ممثّله في دار الخلافة، أقسنقر البرسقي، وهو جندي تركي نابه مثل سلفه مودود، فكان عليه أن يقاتل الفرنج. ففي أيار ١١١٤، قاد جيشاً مؤلّفاً من خمسة عشر ألف رجل لمهاجمة إمارة الرها. وصحبه مسعود ابن السلطان السلجوقي وتميراك أمير سنجار، وصبي تركي اسمه: عماد الدين زنكي، ابن أقسنقر، الذي سبق أن تولّى حلب وحماه قبل سنوات من قدوم الحملة الصليبية الأولى. في ٢٦ تشرين الثاني ١١٢٦، قتل أحد الباطنيين بطعنة خنجره، آقسنقر البرسقي، فسادت الفوضى بين المسلمين وازدادت الأحوال سوءاً بما حدث من شجار بين مسعود وطغتكين، ثمّ وفاة مسعود مسموماً فيما يبدو.(٢) فتنازع حكم حلب أمراء كثيرون، منهم تومان، الذي وُلّي حلب من قبل مسعود، «وختلع أبه» مملوك السلطان السلجوقي محمود، وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وإبراهيم ابن رضوان السلجوقي.

٣٢ - عماد الدين زنكي على رأس جيش السلطان (١١٢٦):

مما لا شكّ فيه أن عماد الدين زنكي، الذي كان يرافق اعتباراً من السنة (١١٠٨ - ١١٠٩) الأتابك مودود في جميع حملاته العسكرية، قد حصّل لنفسه خبرة عسكرية كبيرة، ومعرفة عميقة للأرض، ميزتان

(١) ابن القلانسي، ص ١٤٨ - ١٤٩.
(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٨٠.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ١٥٣.

استغلّهما لاحقاً، عندما كان عليه ان يقود الجهاد المقدّس ضد الفرنجة أو ان يدافع عن الموصل. ففي صفوف جيش الموصل سيشترك عدّة مرات في حصار الرها، وسيجوب سوريا وكلّ الجزيرة، حتى انه سيشارك في القتال حتى الوصول إلى طبريا في فلسطين. وهكذا فكلّ الحملات العسكرية التي سيقوم بها في المستقبل، سيقوم بها في أرض يعرفها جيداً.[١]

في أثناء الشهور الأخيرة من السنة ١١٢٦، فكّر الخليفة العباسي المسترشد، في أن يفيد من المنازعات الأسرية الناشئة بين سلاطين السلاجقة ليتخلّص من سيطرتهم. وكان لزاماً على السلطان السلجوقي محمود، الذي تقع بغداد في أملاكه، أن يتوقّف عن الصيد، كي ما يرسل جيشاً إلى بغداد، جعل على رأسه قائده عماد الدين زنكي. وذاع صيت عماد الدين فيما نشب من الحروب مع الفرنج. لدى وصوله إلى العراق، أنزل زنكي بقوات الخليفة هزيمة منكرة في «واسط» وألزم الخليفة بإعلان «الخضوع للسلطان السلجوقي».[٢]

لقد كان عماد الدين دمث الأخلاق ذو لباقة لافتة لا يتكبّر ولا يتعجرف بعد كلّ انتصار. وهذه الصفات استهوت الخليفة المسترشد. فلما مات البرسقي، كان لا بدّ من تعيين أتابك جديد للموصل. على أن السلطان محمود السلجوقي، الذي فكّر أول الأمر في أن يرشّح الزعيم البدوي «دبيس بن صدقة» لهذا المنصب، لكنه عاد واتفق مع الخليفة على أن عماد الدين زنكي خير مرشّح لأتابكية الموصل وكما قال المؤرّخ العربي ابن الأثير «إن العناية الإلهية أرسلت عماد الدين زنكي هدية للمسلمين المؤمنين».[٢] كان عماد الدين كغيره من القادة المسلمين الأتراك، يحب الموت في سبيل مبادئه وقتاله الفرنج وسيبقى أميناً لها خلال ١٨ سنة حيث سيجوب سوريا والعراق، ينام على الأعشاب اليابسة ليحمي نفسه من الأوحال، يقاتل الفرنج

---

(١) نيكيتا ايليسايف، نور الدين، دمشق ١٩٦٧ (باللغة الفرنسية)، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٣) Maalouf, P. 137.

والأمراء المسلمين على السواء. لم يفكّر أبداً بأن ينام، بسلام وراحة، في أحد قصوره ولو لليلة واحدة.[1] لا يوجد في بطانته مكان للممالقين والمداهنين. كان يجمع حوله مستشارين سياسيين يتمتّعون بالخبرة الواسعة. إلى جانب تنظيمه لشبكة من المخبرين. يفيدونه بكلّ شاردة وواردة، عما يحصل في بغداد وأصفهان ودمشق وانطاكية والقدس وحلب والموصل. كان جيشه يتمتع بانضباط دقيق وتدريب متواصل.

في العام ١١٢٦، تقرّر تنصيب مسعود، الابن الأصغر للسلطان محمود، أميراً على الموصل، على أن يكون زنكي أتابكاً له. فأمضى عماد الدين شتاء ١١٢٧ في الموصل كيما ينظّم حكومة المدينة، ثمّ توجّه في ربيع السنة ١١٢٨ إلى حلب، مدّعياً أنها ليست إلاّ جانباً من أملاك البرسقي، فدخلها في موكب حافل في ٢٨ حزيران ١١٢٨.[2]

اعتبر زنكي نفسه بطل المسلمين في منازلة الفرنجة، غير انه لم يشأ أن يقاتلهم إلاّ بعد أن يتم استعداداته العسكرية. ولم تنتهِ السنة ١١٣٠ حتى امتدّت سيادة زنكي المطلقة على الشام حتى جنوب حمص.[3] وقد رأى فيه المسلمون رجلاً قادراً على توحيد القوى الإسلامية في الشرق.[4]

٣٣ - زنكي يحوّل أنظاره نحو الفرنجة (١١٣٥):

في السنة ١١٣٤، أخذ الأمير السلجوقي مسعود، يحلّ رويداً رويداً مكان المطالبين بالسلطنة السلجوقية في العراق. وباء بالفشل ما قام به الخليفة المسترشد من محاولة لمنعه عن السلطنة. وقد أنزل مسعود بجيش الخليفة الهزيمة السنة ١١٣٥، وقد وقع المسترشد أسيراً بيد مسعود فنفاه إلى أذربيجان، حيث اغتاله أحد الباطنيين برضى

---

(١) Maalouf, P. 137.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) مماثل، ص ٢٩١.

(٤) مماثل، ص ٣٠٨.

- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

مسعود. استنجد ابن الخليفة، الراشد، الذي ولي الخلافة، بعماد الدين زنكي الذي رفض نجدته. وحاول خلفه المكتفي، أن يغري زنكي بالوعود الجزيلة، على الابتعاد عن الخليفة المعزول الراشد والأمير السلجوقي داود. وبفضل ما حازه زنكي من ألقاب التشريف الجديدة من المكتفي ومسعود، أضحى بوسعه، من السنة ١١٣٥ فصاعداً، ان يحوّل اهتمامه إلى الفرنجة.(١)

وبينما كان عماد الدين زنكي منصرفاً إلى ما يجري في العراق، اهتمّ بمصالحه في بلاد الشام، أمير من دمشق اسمه سوار، جعله زنكي والياً على حلب. ولم يكن بوسعه أن يمدّه بقوّة كبيرة، غير أنه دخل في خدمة سوار، جماعات مختلفة من التركمان المغامرين، بناء على تشجيع عماد الدين، فتجهّز سوار في ربيع ١١٣٣، لاستخدامهم في مهاجمة إمارة انطاكية الصليبية. وقد نجح فعلاً في غاراته على تلّ باشر، التابعة لإمارة الرها. وحشد جيشاً لمنازلة انطاكية نفسها. غير أن الملك فولك الفرنجي، ملك القدس، تقدّم نحو معسكر المسلمين في قنسرين، بناء لطلب أهالي انطاكية، الذين استنجدوا به لإنقاذهم. وعندما اقترب من المعسكر، قام ليلاً بهجوم مفاجىء عليه، فأرغم الأمير سوار على الانسحاب والتخلي عن خيامه. غير أن الانتصار لم يكن تاماً، ففي الاشتباكات التي أعقبت ذلك، دمّر المسلمون فصائل عديدة من الجيش الفرنجي وجدّد سوار غاراته على الممتلكات المسيحية قرب انطاكية والرها.(٢)

في ١٧ نيسان ١١٣٥، دخل زنكي في عراك مع الفرنج، وفي ٢٢ منه، ألقى الحصار على اثارب على بعد ٣٠ كيلومتر غربي حلب. بعد الاستيلاء على هذا المركز الذي يسيطر على الطريق بين انطاكية وحلب، دمّره زنكي كي لا يستعمله الفرنجة. وقد قتل المسلمون من الصليبيين العدد الكبير من

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٠٩ - ٣١٠.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٤٧.
(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣١١.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢.

الفرسان والمشاة. بعد ذلك تقدّم الجيش الإسلامي مسافة خمسة عشر كيلومتراً إلى أقصى الجنوب وتمّ الاستيلاء على زاردانا التي كانت أحد المراكز المتقدّمة من الحدود الشرقية لإمارة انطاكية، بعدها استولى زنكي على تل القاضي ومعرّة النعمان في ٢٥ نيسان وكفرطاب وشيزر في ٢٨ منه. بينما كان ربيبه سوار يشغل الفرنجة شرقي حلب فيهاجم تل بشير وعينتاب وعزاز، كان على الأتابك أن يواجه هجوم أمير طرابلس بارتران الذي غزا قنسرين، جنوبي حلب، قاصداً قطع الطريق التي تشق سوريا من الشمال إلى الجنوب وبنيّته السيطرة بالتتابع على، حمص، بعلبك، ومن ثمّ دمشق.(١)

في نهاية شهر تموز ١١٣٧، زحف زنكي على حمص، التي حازها أحد كبار المماليك، وهو «أنر»، اقطاعاً من أتابك دمشق. وظلّ عماد الدين مرابطاً أمام حمص، نحو أسبوعين، حتى جاءته الأنباء بأن جيشاً للفرنجة يتقدّم من طرابلس باتجاهه، فرفع زنكي الحصار عن حمص واستعدّ لقتال هؤلاء الفرنجة. ولما تراجع أمير طرابلس أمامه، تقدّم زنكي، فحاصر قلعة بعرين الضخمة، الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية، المنفذ المؤدّي إلى البقيعة.(٢) في تلك الأثناء أرسل أمير طرابلس إلى بيت المقدس، يطلب النجدة من الملك فولك.

هرع فولك، بكلّ ما استطاع أن يحشده من القوى والرجال للّحاق بأمير طرابلس فتحاملا سوياً على الطواف حول سفوح تلال النصيرية، حتى بلغا حصن بعرين. وقد كان الجيش الفرنجي متعباً وفي حالة بالغة السوء. وابتعد زنكي حينما اقتربا منه، لكنه عندما سمع بأحوالهما السيّئة، عاد وأخذ يقترب منهما عند خروجهما من بين التلال القريبة من القلعة، ففاجأ الفرنج الذين أصابهم التعب والإرهاق. استبسل

---

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٥٤.
(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٢٤.

الفرنج في القتال، غير أن المعركة لم تلبث أن انتهت. ولقي معظم الصليبيين حتفهم في ساحة المعركة، ووقع في الأسر آخرون، منهم كونت طرابلس بينما فرّ إلى الحصن، الملك فولك وعدد قليل من حرّاسه.(١)

وقبل أن يتقدّم عماد الدين زنكي لاقتحام حصن بعرين أنفذ الملك طالباً النجدة من كونت الرها وأمير انطاكية الصليبيين، لأن وقوع الملك بأيدي زنكي، إنما يعني زوال مملكة القدس.

في نهاية شهر تموز ١١٣٧، احتشدت في البقيعة القوّة القادمة لإنقاذ الملك الذي انقطعت عنه كلّ أنباء العالم الخارجي، وأخذت مؤنه في النفاذ، بينما ظلّت مناجيق زنكي العشرة تدكّ أسوار القلعة ليلاً نهاراً وسقطت أحجار الطواحين والصخور المقذوفة من الآلات الحربية في وسط القلعة، وحطّمت المنازل الموجودة بداخلها وسبّبت خوفاً شديداً للناس، لدرجة أنه لم يبق أي مكان آمن داخل الأسوار يمكن للجرحى الاختباء فيه. ورتّب زنكي جنوده في فرق متتالية وجدّد قواته باستخدام ابدال متعاقبة حيث جلب رجالاً مفعمين بالنشاط ليأخذوا مكان الكتيبة الأولى عندما يكون الجهد قد أنهكها لذلك بدت المعركة مثمرة. علاوة على ذلك كان عدد المحتجزين في القلعة كبيراً جداً لدرجة أن المؤن لم تكف لتزويد كلّ فرد حتى بالنذر اليسير. واكتظّت أماكن النوم كثيراً، لدرجة أن أعداداً كبيرة من الأهالي أقامت في الطرقات والساحات وبدت الأرض في الواقع كأنها مغطاة بالناس، كما أن النبال التي أطلقها الرماة المسلمين بشكل عشوائي غالباً ما سقطت بينهم وسببت لهم جروحاً مميتة، ونقل مخبرون لزنكي معلومات كاملة إليه، حول جميع هذه التفاصيل فحشد كتائبه بإحكام شديد حول القلعة وقام بحراسة جميع المداخل بدقّة تامة بحيث لا يتمكّن أحد ولا في أكثر المحاولات اقداماً من الوصول إلى الداخل أو من الداخل إلى

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.
- وليم، ج ٤، ص ٦٨٦ - ٦٨٧.

الخارج. ازداد الوضع سوءاً ونفد الطعام بالكامل وتلاشى الأمل تماماً.(١) عندها أرسل الملك مبعوثاً إلى زنكي يطلب منه شروطه. فلم يطلب زنكي سوى تسليمه الحصن فقط وفي وسع الملك بعدئذ أن يمضي مع رجاله أحراراً كيفما شاؤوا، يضاف إلى ذلك أنه تقرّر إطلاق سراح من وقع في الأسر بما فيهم كونت طرابلس.(١) قبل الملك الشروط والتزم عماد الدين زنكي بعهده. فحضر الملك وحرسه إلى مقر قيادة الأتابك الذي عاملهم بكلّ مظاهر الشرف وأهدى الملك فولك خلعة سنية ومن ثمّ أخلى سبيلهم، فالتقوا بجيش الفرنج في البقيعة.

لقد كان زنكي رجلاً عسكرياً مهماً، فقد رأى ببصيرته أن السيطرة على حصن بعرين سوف يمنع الفرنج من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي، كما ان موقع هذا الحصن يجعله مسيطراً على حماه، وعلى حمص التي كانت من توابع دمشق. فالاستيلاء على الحصن، دون قتال، يعتبر أمراً بالغ الأهمية. فلم يودّ زنكي ان ينشب القتال مع الجيش الفرنجي القادم لإنقاذ الملك، والذي كان قريباً من أطراف دمشق، فيفيد حكامها مما قد يتعرّض له زنكي من هزيمة.(٢)

العام ١١٤٣، ظهر أمير انطاكية، الفرنجي، شرقي حلب، في منطقة بزاعة، قاطعاً الطريق التي تصل حلب بالفرات. تمكّن سوار من ردّ الفرنج نحو الشمال لإبقاء الاتصال مستمراً مع الموصل. وبغية تجنّب قطع هذه الطريق مجدداً، عقد هدنة مع جوسلين الثاني كونت الرها.(٣)

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٢٦.
- وليم، ج ٤، ص ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٢٧.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٦١ - ٣٦٢.
- وليم، ج ٤، ص ٦٩٢.

(٣) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٧٥.
- ابن القلانسي، ص ٢٧٦.

٣٤ - سقوط الرها بيد زنكي (١١٤٤):

شعر الفرنج في الشرق بارتياح، حين علموا بوفاة الامبراطور البيزنطي يوحنا، غير أنهم، في سرورهم لم يلحظوا أن الأتابك عماد الدين زنكي، أكبر أعدائهم، كان أكثر سروراً وسعادة. إذ ظلّ زنكي سنتين، ابتداء من السنة ١١٤١، شديد الاضطراب، لما أعرب عنه السلطان مسعود السلجوقي، من رغبة في إعادة فرض سيادته عليه. ولم يدرأ زنكي غزو جيش السلطان لإقليم الموصل، إلاّ بعد ان أظهر له في الوقت المناسب الخضوع والإذعان، وما صحب ذلك من دفع الأموال له، وإرسال ابنه رهينة لديه. فلو أن البيزنطيين غزوا الشام وقتذاك، لتمّ القضاء على مشروعات عماد الدين في الغرب. على أن هذه الخطط تعرّضت أيضاً للخطر، بانعقاد تحالف بين ملك القدس الفرنجي وأتابك دمشق، فقد كانا يشعران بالخوف منه.[1]

استعاد ريمون أمير انطاكية الثقة في نفسه، منذ وفاة الامبراطور البيزنطي، وارتداد زنكي عن دمشق، فأرسل على الفور إلى الامبراطور الجديد، مانويل، يطلب منه إعادة كيليكية إلى إمارته، وعندما رفض طلبه، بادر ريمون بغزو هذه المنطقة، فأرسل الامبراطور البيزنطي حملة برية وبحرية بقيادة برسق التركي المتنصّر وغيره من البيزنطيين أدّت إلى طرد ريمون من كيليكية ومطاردة جنوده حتى أسوار انطاكية.[2]

وحدث قبل شهور مضت، أن أضاف ريمون إلى إمارته منطقة «البزاعة» من أعمال حلب، كما أن جوسلين كونت الرها، زحف إلى الفرات ليلتقي به. وأثناء ذلك عقد جوسلين هدنة مع «سوار» والي حلب الأمر الذي دمّر مشروعات ريمون وأدّى إلى ازدياد سوء

---

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨، ص ٢٦٤.

- رنسيمان، ج ٢، ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٧٨.

العلاقات بين الاثنين وأضحى الشقاق الصريح بينهما وشيك الوقوع. فجوسلين لا يرضى أن يكون ريمون سيداً عليه إلا عنوة. (١)

أخذ عماد الدين يراقب هذه المنازعات، بعد أن أراحته وفاة الامبراطور البيزنطي الذي كان من أشد أعدائه قوّة وبأساً، وقد تبيّن لزنكي من الناحية المنطقية والواقعية أنه من المرجّح ألاّ يقوم ملك القدس بمغامرات حربية وقتئذ ضده وكذلك أتابك دمشق، فلا يمكنه القيام بعمل عدائي ضد زنكي إلاّ بمساعدة الفرنج. فينبغي ألاّ تفلت من عماد الدين هذه الفرصة. (٢)

ففي خريف ١١٤٤، هاجم زنكي قره أرسلان الأرتقي، أمير ديار بكر، الذي تحالف منذ زمن قريب مع أمير الرها جوسلين. ويقول الأسقف السوري أبو الفرج باسيل، وهو شاهد عيان، وقد شارك في هذه الحوادث، وخاصة بالدفاع عن الرها، وكان لديه عطف في قرارة نفسه، وميل نحو الجيش الإسلامي منه نحو الجيش الفرنجي. «لقد ترك جوسلين كونت الرها المدينة وذهب للسلب والنهب على ضفاف الفرات. علم زنكي بذلك، ففي ٣٠ تشرين الثاني السنة ١١٤٤، كان مع جيشه تحت أسوار الرها. كان كعدد نجوم السماء. فقد عسكروا في كلّ الأراضي التي تحيط بالمدينة. فقد نصبت الخيام في كلّ الأمكنة، ووضع الأتابك خيمة قيادته في شمال الرها، مواجهة لباب الساعات، على رابية تسيطر على كنيسة المبشّرين». (٣) لقد ذهب جوسلين ولم يترك أية قوّة عسكرية في المدينة للدفاع عنها. وكانت الرها تقع على مسافة سير يوم واحد فيما وراء نهر الفرات. وكان سيدها جوسلين، قد تخلى عن منزله هناك، خلافاً لعادة أسلافه، وأقام مسكنه الدائم بالقرب من نهر الفرات عند قلعة تسمى باسم «تل باشر» وابتعد كثيراً في تل باشر عن الإزعاج الذي كان يسبّبه أعداؤه، وحصل على

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٧٨.
(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٧٩.
- وليم، ج ٤، ص ٧٣٧.
(٣) Maalouf, p. 159.

الفراغ للاستمتاع بالترف وبالمسرّات من كلّ نوع، ولم يشعر بأية مسؤولية نحو المدينة كما كان يتوجّب عليه.(١)

والواضح أن جوسلين خرج من الرها بجيش كبير، قاصداً نهر الفرات. لأنه أراد بذلك قطع أسباب الاتصال بين زنكي وحلب. على أن عيون زنكي في «حرّان» أخطرته بحركات جوسلين، فبادر بإرسال كتيبة بقيادة «الياغيسياني» أمير حماه، لمباغتة الرها. غير أن الياغيسياني ضلّ الطريق في ليلة من شهر تشرين الثاني، حالكة الظلام، غزيرة المطر، فلم يبلغ الرها، إلاّ بعد أن وصل إليها عماد الدين زنكي بجيشه الكبير، في ٢٨ من الشهر نفسه السنة ١٨٤٤. على أن أهل المدينة كانوا قد أخذوا حذرهم، وجرى شحن الاستحكامات بالرجال.(٢)

يقول أبو الفرج باسيل: «لم يترك جوسلين أية قوّة عسكرية في الرها. فلم يبقَ فيها سوى السكافين وصانعي الأقمشة وبائعي الأقمشة الحريرية، والخياطين والكهنة. وقد أمّن الدفاع عن المدينة هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين، محاطاً بأحبار أرمن وبالأسقف أبو الفرج باسيل نفسه الذي كان من أنصار تسوية الأمور مع الأتابك زنكي».(٣)

ظلّ الحصار مضروباً على الرها مدّة أربعة أسابيع. وقد أخلص كلّ من يوحنا أسقف الأرمن، وباسيل أسقف اليعاقبة، في مساندة رئيس أساقفة اللاتين. وفشل كلّ أمل عند عماد الدين لإغراء المسيحيين الوطنيين للخروج على ولائهم للفرنج.(٤) لقد كان سكان الرها من الكلدانيين والأرمن المسالمين. وكانوا يجهلون تماماً استخدام السلاح، فالتجارة رائدهم والصناعة ملجأهم، أما اللاتين فكانوا أقلية بين السكان وكان الدفاع عن المدينة بكليّته بأيدي المرتزقة، الذين لم يتلقّوا أجورهم منذ أكثر من سنة.(٥)

---

(١) وليم، ج ٤، ص ٧٣٧.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) Maalouf, P. 159.

(٤) رنسيمان، ج ٤، ص ٧٣٧.

(٥) وليم، ج ٤، ص ٧٣٧.

لقد سدّ زنكي بإحكام كافة مداخل المدينة المحاصرة، ومنع الخروج والدخول، وأصيب الناس داخل الرها بالإحباط الشديد بسبب نقص الطعام والمؤن من كلّ نوع. وكانت الرها محاطة بسور كبير وبأبراج شامخة في الجزء العلوي وكان يوجد برج آخر في المنطقة السفلى يمكن اللجوء إليه من قبل السكان، في حال الاستيلاء على المدينة، وكان بإمكان كلّ هذه الدفاعات أن تكون فعّالة ضد الزنكيين وغيرهم إذا توفّر فيها مقاتلون لديهم الرغبة في القتال بشجاعة من أجل الحرية. ولهذا السبب ازداد زنكي أملاً بالاستيلاء على المدينة عندما وجدها بلا مدافعين عنها. فأحاطها إحاطة السوار بالمعصم وضربها بقذائف المنجنيق فسحقت الحجارة والقذائف الأسوار باستمرار، ولم تسمح رشقات السهام بأية راحة للمواطنين. لقد أصبح الانتقال داخل المدينة محفوفاً بالمخاطر خوفاً من الإصابات القاتلة في أكثر الأحيان.(١) ويخبّر الأسقف أبو الفرج باسيل أن زنكي كان يوجّه باستمرار، إلى المحاصرين، اقتراحات للسلام قائلاً لهم «أيها التعساء، البائسون، أنتم تعلمون أنه لا يوجد أمل لكم بالبقاء على قيد الحياة... فماذا تريدون وماذا تنتظرون؟ أشفقوا على نفوسكم، على أولادكم وعلى نسائكم ومنازلكم. اعملوا ما يلزم كي لا تقع مدينتكم فريسة للاجتياح البغيض، فيقضي على أهلها وسكانها». لكنه لم يكن في الرها أي مسؤول يفرض إرادته، لذلك كان الجواب بالادعاءات والشتائم.(٢)

لقد اقترح أبو الفرج باسيل طلب الهدنة، فأنكر ذلك الرأي العام. على أن عدد المدافعين عن الرها كان قليلاً، برغم استبسالهم في القتال. لقد انتقد المؤرّخ وليم الصوري جوسلين ونعته بالكسل والجبن لأنه رفض التوجّه لنجدة عاصمته. غير ان جيش جوسلين لم يكن من القوة ما يكفي لخوض معركة حاسمة مع جيش المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي. لقد اعتقد

(١) وليم، ج ٤، ص ٧٣٨.
(٢) Maalouf, P. 160.

جوسلين ان استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم فترة من الزمن، وفي وسعه، وهو في تل باشر، أن يقطع طريق الإمداد التي يطلبها زنكي من حلب. كما أنه ركن إلى ما سيبذله له جيرانه من الفرنجة من مساعدة إن كان من انطاكية أو من مملكة القدس. وفعلاً لقد تقدّم جيش صليبي من القدس باتجاه الرها، لكنه لم يصلها إلاّ بعد فوات الأوان، بينما ازداد عدد جيش المسلمين بمن انحاز إليه من الأكراد والتركمان القادمين من أعالي نهر دجلة. وتوافر عند زنكي عدد لا بأس به من أدوات الحصار الجيّدة.(١)

في هذه الأثناء واصل زنكي مهاجمة المدينة بدون انقطاع، وألحق بها اضراراً فادحة، ولم يدع وسيلة من الوسائل يمكنها أن تخدم في زيادة محن الأهالي وتساعده في الاستيلاء على المدينة، الاّ واستعملها وأرسل عمّال الحفر خلال ممرات سرية فحفروا الأنفاق تحت السور، ودعّموا هذه الأنفاق بعوارض خشبية ووضعوا فوقها النفط والشحم والكبريت كي يتمّ إشعالها بسهولة وبقوّة فتقضي على السور وتحدث الثغرة المطلوبة. على حين أن التجّار ورجال الدين الذين ألّفوا الجانب الأكبر من حامية المدينة، لم تكن لهم خبرة بأمور الحرب، ولذا لم تنجح ما قاموا به من هجمات مضادة، ومن محاولات لوقف أعمال النقابين.(٢)

اقترح أبو الفرج باسيل ان يرسل إلى زنكي كتاباً يعرض فيه هدنة قتال. وافق على ذلك الأسقف اللاتيني هيو. فكُتب الكتاب وتُلي على مسامع الشعب في المدينة، لكن رجلاً، تاجر حرير، انتزع الرسالة ومزّقها، وكان زنكي يردّد باستمرار «إذا كنتم ترغبون بهدنة لعدد من الأيام... فسنمنحها لكم لنرى إذا كانت المساعدة ستأتيكم. وإذا لم تأت المساعدة فما لكم إلاّ الاستسلام لتعيشوا بسلام».(٣)

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٠.

- وليم، ج ٤، ص ٧٣٩.

- Maalouf, P. 160.

(٣) Maalouf, P. 160.

لقد ظنّ الناس سوءاً، برئيس الأساقفة هيو الذي احتفظ بالمال الذي جمعه، على الرغم من شدّة الحاجة إليه في الدفاع.

حرق زنكي العوارض الخشبية وشبّت النيران تحت الأسوار فانهار جزء كبير من السور وترك ثغرة أمّنت مدخلاً للمسلمين كان عرضه أكثر من مئة ذراع. وكان ذلك ليلة عيد الميلاد، ١١٤٤ قرب باب الساعات.(١) من هذه الثغرة دخل المسلمون إلى المدينة، وفرّ السكان خائفين إلى القلعة، فألقوا أبوابها مقفلة دونهم، بأمر الأسقف هيو، الذي ظلّ خارج القلعة، يحاول عبثاً إعادة الأمن إلى نصابه. وقتل من الفوضى الناشبة ألوف الناس تحت الأقدام. وفي أثناء المطاردة العنيفة للفارين، أجهز جنود زنكي على ألوف آخرين من الناس ومنهم الأسقف هيو نفسه.

في نهاية الأمر دخل عماد الدين زنكي المدينة راكباً، في موكب، فأمر بالكف عن القتل، وأبقى على حياة المسيحيين الوطنيين بينما تمّ تطويق جميع الفرنج، وتقرّر قتلهم جميعاً. وبيعت نسائهم رقيقاً. وبعد يومين، استسلم لزنكي القس اليعقوبي «برسوما» الذي كان يتولّى قيادة حامية القلعة. ويقال إن عدد القتلى في ذلك اليوم وصل إلى ستة آلاف، وخمسة آلاف في اليوم التالي في القلعة وحولها.(٢)

ما ان وصل خبر سقوط مدينة الرها، حتى عمّ الحماس والنشوة العالم العربي والإسلامي. وأطلقت الألقاب والصفات على عماد الدين زنكي، وتوقّع المسلمون أن يكون الهدف الثاني اللاحق للأتابك هو القدس. ومن الألقاب التي منحت للأتابك كانت: المالك المنصور - زين الإسلام - نصير أمير المؤمنين - الكبير -

---

(١) وليم، ج ٤، ص ٧٣٩.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨١.
- Maalouf, P. 161.
- وليم، ج ٤ ، ص ٧٤٠.

الوحيد - دعامة الدين - حجر زاوية الإسلام - حامي الخليقة - عظيم الأمة - شرف الملوك - سند السلاطين - المنتصر على الكفرة - قائد الجيوش الإسلامية - الملك الظاهر - ملك الأمراء - شمس الدولة - أمير العراقيين وسوريا - فاتح بلاد الفرس - طغرل بك أتابك أبو سعيد زنكي ابن اقسنقر - عضد أمير المؤمنين إلى آخره.(١)

بعد القضاء على الفرنج، أظهر زنكي الرفق في معاملة أهل المدينة، فعيّن «علي كوجك»، صاحب أربيل، أميراً على الرها، وأعطى المسيحيين الوطنيين من الأرمن واليعاقبة، قدراً من الاستقلال الذاتي. لقد دمّر كنائس اللاتين أما كنائس هؤلاء فلم يمسّها بسوء، لا بل جرى تشجيعهم أيضاً على دعوة إخوانهم في الدين إلى المجيء إلى المدينة والإقامة فيها.(٢)

توجّه عماد الدين من الرها إلى سروج، التي كانت تعتبر ثاني حصون الصليبيين الكبيرة الواقعة شرقي نهر الفرات، فاستولى عليه في شهر كانون الثاني السنة ١١٤٥ بعدما هربت منها حامية الفرنجة. ثمّ تقدّم في آذار إلى «البيرة» المدينة التي تتحكّم في أهم مخاضة في نهر الفرات، غير أنه لقي مقاومة كبيرة من الحامية الصليبية فيها. وفي هذه الأثناء بالضبط ترددت الشائعات عند زنكي، بما وقع من الاضطرابات في الموصل. فأمر برفع الحصار عن البيرة وأسرع بالمسير باتجاه الشرق. فهو لا يزال أتابك الموصل للأمير السلجوقي ألب ارسلان بن مسعود. وعند وصوله إلى الموصل، اكتشف أن ألب أرسلان كان قد قتل ناصر الدين جقر نائب الأتابك، محاولاً بذلك ان يوطّد سلطته. لقد أساء ألب ارسلان اختيار الفرصة، لأن عماد الدين بلغ وقتذاك ذروة مجده في العالم الإسلامي، بعد فتح الرها المسيحية. فتقرّر عزل ألب ارسلان عن الإمارة، وإعدام مستشاريه. أما الخليفة فأرسل إلى زنكي سفارة تحمل الهدايا النفيسة، وتمنحه لقب

(١) Maalouf, P. 162. (عن القلانسي).

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٢.

الملك الغازي[١] وغيره من الألقاب بما يعادل فعلياً نفس درجة ابن السلطان ويعطيه استقلالية في السلطة.[٢]

كان لسقوط الرها الصدى الكبير في جميع أنحاء العالم آنذاك. فقد تجدّد الأمل عند المسلمين، بعد أن تحطّمت إمارة مسيحيّة صليبية قامت دخيلة في عقر دارهم، واقتصر حكم الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسّط.[٣] لقد استطاعت الرها، وخلال نصف قرن، أن تقطع طرق المواصلات بين حلب والموصل وبالانتصار عليها، جرى تطهير هذه الطرق من الفرنجة، وتمّ انتزاع الإسفين الذي غرسه الصليبيون بين السلجوقيين في إيران واخوانهم في الأناضول. ان سقوط الرها زاد في إضعاف الروح المعنوية عند الصليبيين وأثار خوفهم وقلقهم[٤] كما أنه كان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب أوروبا، إذ أدركوا ولأول مرّة، أن الأمور أصبحت سيئة في الشرق، فنهضت حركة تدعو إلى حملة صليبية جديدة.[٤] إلى جانب ذلك، سوف تتلقى انطاكية، من الآن وصاعداً، لوحدها من الشمال، ضغط القوات الإسلامية، ولأجل ذلك سوف تطلب حماية البيزنطيين.[٥]

قرّر جوسلين أن يعيد بناء إمارته في البلاد التي بحوزته، في غربي نهر الفرات، وأن يتخذ من «تل باشر» عاصمة له وكانت لا تزال بحوزته البلاد الممتدّة من سميساط والتي تجتاز مرعش، إلى ما يقع في الجنوب من المدن: البيرة - عينتاب - راوندان - وتل باشر.[٦] ومع انه كان واضحاً ان زنكي سوف يبادر إلى قتاله. غير ان عماد الدين قرّر

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٣.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٠.
(٢) نيكيتا، مماثل، ص ٣٨١.
(٣) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٣.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨١.
(٤) رنسيمان، مماثل، ص ٣٨٣.
(٥) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨١.
(٦) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٤.

أن يؤجّل القيام بهجوم آخر على الفرنجة بالشمال، وأن يوجّه اهتمامه من جديد إلى دمشق.

٣٥ - مصرع عماد الدين زنكي (١١٤٦):

ابتداءاً من ٢٠ تشرين الثاني ١١٤٥، وخلال ثلاثة أشهر، كان الأتابك مشغولاً بالاستعدادات العسكرية وتجميع قواته. كان السبب الرسمي لهذا التجميع هو حرب الجهاد ضد الكفار، إنما بدأت الشائعات تجوب المنطقة بأن عماد الدين ينوي مهاجمة إقليم دمشق.

في بداية ١١٤٦، تحرّك عماد الدين إلى حلب، وفي أثناء اجتيازه الرها، علم أن الأرمن يحاولون التخلّص من حكمه، وإعادة جوسلين والفرنجة إلى المدينة. على أن الأمير علي كوجك أحبط هذه المحاولة في يسر وسهولة. فأمر زنكي بقتل مدبري المؤامرة وإحراق جثثهم ونثر رمادها في الهواء، وبإبعاد قسم من الأرمن وأحلّ مكانهم ثلاثمائة أسرة يهودية، وكان معروفاً أن اليهود يساندون المسلمين على الفرنجة.[1] وكي يسيطر على المدينة، راح زنكي يتبع سياسة «فرّق تسد»، مستفيداً من الخلافات العقائدية بين المسيحيين، فساند أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة (المونوفيزيت) ضد اللاتين والأرمن.[1]

وفي فصل الصيف من تلك السنة، قاد زنكي جيشه باتجاه الجنوب. إلى قلعة جعبر، على الطريق بين الفرات ودمشق، والتي رفض أميرها الاعتراف بسيادة عماد الدين عليه. فحاصر المدينة، بعدما نهبت قواته جميع القرى والدساكر القريبة من القلعة ونقلوا السكان إلى أماكن أخرى بعيدة.[2] استمرّ الحصار طيلة فصل الصيف. والملفت للنظر أن الأتابك لم يشن أي هجوم على القلعة، لأنه كان بنيّته الاستيلاء على هذا

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٥.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٢.
(٢) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٤.

الموقـع دون أن يـكـون مـتضـرراً أو مـدمّـراً، لاستعماله في عملياته العسكرية اللاحقة، خاصة وأن قلعة جعبر على الفرات يمكنها السيطرة على طرق المواصلات بين الموصل وحلب وعلى الملاحة التجارية في الفرات. في آب ١١٤٦، بـعث الأتـابك، الأمير حسّـان المنبجي لمعالجة أمر القلعة. وقد اختار هذا الأمير لأنه كان على علاقة صداقة مع قائد القلعة عزّ الدين علي حفيد الأمير سليم العـقيلـي الـذي اختـاره ملك شاه لقيادة الحصن واختار آقسنقر قاسم الدولة، والد عـماد الـدين زنكـي واليـاً على حلب. وقد عرض عماد الدين أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال وأقطاعاً إلى عز الدين لقاء تخلّيه عن القلعة لكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً. بعد مـدّة مـن الـزمـن عـرض الأتـابك عـلـى عز الـديـن، بـواسـطـة الأمير حسّان، بأنه جاهز لفك الحصار عن القلعة في حال دفع عز الدين مبلغاً من المال كان قد حدّده. قَبِلَ عز الدين وأرسل المبلغ مع رجال ثقاة خاصته. فعـنـدمـا قـبض زنـكـي المبـلغ، عامل رجال الـبعثة معاملة سيّئة للغاية ورفض الإبرار بوعده.(١)

بعد هذا الحادث بحوالي شهر أي في ليل ١٤ - ١٥ أيلول السنة ١١٤٦، حدث ان تشاجر عماد الدين الخمور مع خادم اسمه يارانكاص ينتمي إصلاً إلى الفرنجة، بعد أن فـاجـأه وهـو يشـرب الخمـر مـن كـأسـه. وإذ غضب الخادم لتأنيب زنكي له، فانتظر حتى نام، فاقترب من سريره وطعنه بخنجره عدّة طعنات أدّت إلى وفاته.(٢) لم يتدخّل حرس الأتابك لإلقاء القبض على الجاني الذي فرّ إلى داخل القلعة. ومن أعالي أسوار المدينة، أعلن جنود القلعة أمام قوات الموصل مصرع عماد الدين زنكي الذي توفي عن عمر لم يتجاوز الستين عاماً.

---

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٤.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٥.
(٢) نيكيتا، مماثل، ص ٣٨٥.

الفصل الثاني

نور الدين زنكي يقاتل الفرنجة ويوحّد سوريا لمتابعة قتالهم (١١٤٦-١١٦٤)

١ - السلطان نور الدين محمود زنكي

تلقّى جميع أعداء عماد الدين زنكي، من فرنجة ومسلمين بالغبطة، نبأ اغتياله المفاجىء، إذ كانوا يأملون في أن يعقب عادة وفاة الأمراء المسلمين، منازعات سرية، سوف تؤدّي إلى تمزّق إمارته أو مملكته. يقول ابن الأثير ان جثمان عماد الدين دفن في الضفة اليمنى لنهر الفرات، في صفّين، حيث الكثير من مرافقي النبي محمد ﷺ، لاقوا حتفهم وهم يجاهدون. أثناء المعركة المشهورة بين علي ومعاوية.(١)

خلف عماد الدين زنكي ولداه، سيف الدين غازي، أكبر أبنائه سناً، حيث هرع فوراً إلى الموصل وبرفقته الوزير جمال الدين الاصفهاني فتولّى الحكومة فيها، بينما أخذ ابنه الثاني نور الدين محمود، خاتم الملك من يد والده، وتوجّه إلى حلب حيث نادى به سلطاناً، اسد الدين شيركوه الكردي،(٢) شقيق نجم الدين أيوب الذي أنقذ حياة عماد الدين زنكي، بعد أن تعرّض للهزيمة السنة ١١٣٢، على يد الخليفة العباسي.

كان نور الدين وقتذاك في التاسعة والعشرين من عمره، وما اتصف به من رجاجة العقل، تجاوزت سنوات عمره، فأثار

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٥.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٦.
(٢) وليم، ج ٤، ص ٧٤٢.

إعجاب أعدائه بعدالته وإحسانه وتقواه الصادقة. مع أنه لم يكن من ناحية الفكر العسكري مثلما كان أبوه عماد الدين، غير أنه كان يقلّ عنه في القسوة وأساليب الغدر والانتقام، إنما فاقه في الحكم على الرجال واختيارهم. فاشتهر وزراؤه وقادته بالكفاية والإخلاص. كانت موارده المادية تقلّ عن موارد أبيه، إذ كان بوسع عماد الدين أن يستند إلى خيرات إقليم أعالي العراق، الذي أضحى بحوزة أخيه سيف الدين، الذي ورث أيضاً ما كان لعماد الدين من متاعب مع الأراتقة، ومع الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي. على حين ان نور الدين أضحى له من الحرية، ما يحمله على أن يوجّه كلّ اهتمامه للفرنجة الصليبيين. لقد صار نور الدين بنجوة من خطر الأمراء المسلمين، بفضل علاقاته الممتازة مع أسرته وتحالفه مع اونر ومع أشقائه الثلاثة: سيف الدين والي الموصل، ونصر الدين الذي عيّنه هو على حرّان، وقطب الدين أصغرهم الموجود في بلاط أخيه الأكبر في الموصل. لقد كان لنور الدين الكفاية والاستعداد ما يجعل له قيادة المسلمين في الرد على هجوم الفرنج الذين ركّزوا كلّ جهودهم وطاقاتهم لمقاومته.(١)

٢ - نور الدين زنكي يستردّ الرها بعد استردادها من قبل الفرنجة (١١٤٦)

٢١ - توطئة:

ما ان وصلت قوات حلب عائدة من قلعة جعبر، بعد مقتل عماد الدين زنكي، حتى طُلب منها القيم بحملات جديدة ضد الفرنجة. في الحقيقة أن أمير انطاكية ريمون دي بواتيه، الذي لم يعلم بحادثة مصرع عماد الدين زنكي، إلاّ بعد أسبوع من جلوس نور الدين زنكي في عاصمته حلب، كان قد أرسل قوتين كبيرتين من جيشه للغزو، واحدة إلى منطقة حلب والثانية إلى منطقة حماه حيث شرع نور الدين، لتوّه،

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ٥٤٦.

يمارس سلطته المطلقة عليها. مما يستدعي القول، إن الفرنجة لم يكن لديهم استعلاماً تكتياً أو مخابراتياً آنذاك على المستوى المطلوب، نظراً للتأخير الحاصل في معرفة مصرع عماد الدين.(١) أحدث وصول القوات الفرنجية إلى تلك المنطقة، مفاجأة واضطراباً عند المسلمين. لقد فكّر أمير انطاكية ان مصرع عماد الدين زنكي سيحدث ضعفاً في قدرة ومقدرة الزنكيين. إلاّ أن الرد أتى سريعاً، ذاك أن أسد الدين شيركوه، خرج من حلب بكوكباته الخيالة وقام بهجوم ردّي ضد القوات الصليبية الغازية التي اضطرّت للتراجع بسرعة والانسحاب من أرض المعركة. وقد تمكّن الأمير أسد الدين، من اللحاق بفصيلة من فصائل المؤخّرة في القوات العدوّة المتقهقرة التي تأخّرت بالانسحاب بسبب قافلة من الأسرى المسلمين. وبعد معركة سريعة تمكّن شيركوه من تحريرهم ووضع أصفادهم في أيدي وأرجل الفرنج الذين تمّ أسرهم. دخل الأمير الكردي أراضي انطاكية فوصل في الجنوب من عقرين إلى حصن ارتاخ، فنهب المنطقة المحيطة قبل أن يعود إلى حلب.

٢٢ - نور الدين يقمع ثورة الرها ويستردّ المدينة:

ما ان أُعلن عن وفاة عماد الدين زنكي، حتى راح الأمير جوسلين يستعد لإعادة استرداد مدينة الرها عاصمة بلاده. فقد أعدّ خطة لإعادة احتلالها، فاتصل عملاؤه بالأرمن في داخل المدينة، وظفروا بتأييد اليعاقبة من السكان. وفي الوقت المحدّد، بعث الأهالي سراً رسولاً إلى الكونت يخبرونه بأن الظروف أصبحت مؤاتية للقيام بالثورة على الحكم الزنكي، وأن المقاتلين الأتراك الموجودين في القلعة لحراستها كانوا قلّة، وان مدينتهم قد تمّ التخلّي عنها إلى السكان بشكل عملي. وتوسّلوا إلى جوسلين بجدية أن يجمع قوات عسكرية ويسرع إلى المدينة التي سيسلّمها الأهالي له حالاً دونما مخاطر أو عراقيل، لأن السكان، وأغلبيتهم من الأرمن هم قادرون وبسرعة على إخضاع القلعة.(١)

---

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٨٥.

وخلال شهر تشرين الأول ١١٤٦ وبعد شهر من وفاة زنكي، خرج جوسلين على رأس جيش قليل العدد من الخيالة والمشاة، وانحاز إليه بودوان صاحب مرعش وكيسوم، ثمّ عبر نهر *الفرات* بسرعة كما هو متفق عليه، عند البيرة (بيرجاك) ووصل في ليل ٢٧ تشرين الأول تحت أسوار المدينة. وبواسطة السلالم والحبال تمكّن الفرنجة من تسلّق الأسوار عند حصنين كان الأرمن يحرسانهما. أما المسلمون الذين كانوا يحرسون محيط السور، تمكّن قسم منهم من الانكفاء إلى القلعة. وعند الفجر فتح السكان أبواب المدينة الأربعة، ودخل جوسلين إليها دون صعوبة تذكر بينما راح الأرمن والفرنج يطاردون المسلمين الذين لم يتمكّنوا من الالتحاق بالقلعة، عبر الشوارع والأزقّة. سيطر الفرنج على المدينة لعدّة أيام، لكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على القلعة التي كانت محصّنة بعناية، ومزوّدة بالمؤن والأسلحة والجند بشكل جيّد للغاية، وكان فقدان النجاح في هذه الناحية يعود بشكل كبير إلى حقيقة أن قوات جوسلين كانت تفتقر إلى عتاد الحصار والمنجنيقات والمعدات التي تساعد على بناء مثل هذه الآلات الحربية، كما تعذّر العثور على أية مادة مناسبة لهذا الغرض.[٢] فظلّ في المدينة لا يدري ماذا يفعل.

أرسل المسلمون في القلعة رسلاً، يطلبون النجدة من سيف الدين صاحب الموصل ومن نور الدين في حلب الذي كان جيشه وقتذاك يتصدّى لقتال أمير انطاكية، غير ان نور الدين، وبناء على نصيحة شيركوه، ترك حلب على رأس جيش كبير، انضمّت إليه وحدات من الخيالة التركمان للأمير ياروك (Yarûq) وبحوزتهم معدّات الحصار.[٣]

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٧.
- وليم، ج ٤، ص ٧٥٣.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٩٦ – ٧٩٧.

(٢) وليم، ج ٤، ص ٧٥٣.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٩٧.

(٣) نيكيتا، ج ٢، مماثل.

تقدّم الجيش المسلم بخطوات سريعة، ماراً بالباب عبر هضبة صخرية صعبة ومنها إلى منبج، فنهر الفرات حيث قطعه عند تلّ الأحمر وظهر فجأة أمام أسوار الرها بعد ستة أيام من دخول جوسلين إليها أي في الثاني من تشرين الثاني، ونشر فيالقه في دائرة حولها وبدأ عمليات الحصار، فوقع الفرنج بين قوات نور الدين في الخارج وحامية القلعة في الداخل، حيث راح هؤلاء، وبصورة مستمرّة، يخرجون من القلعة ويهاجمون السكّان في الشوارع دون أن يفرّقوا بين الأرمن الموالين والأرمن الثائرين والفرنج «فقتل الصالح مع الطالح». ظهرت المجاعة وطال أمد الحصار. أما جوسلين وحفنة من رجاله، التجؤوا إلى أحد أبراج المدينة الخمسة عشر ويدعى «برج المياه» لقربه من نبع «الكالّيروهه»، حيث يعيش فيه منذ قرون سمك الشبوط المقدّس.[1]

أدرك جوسلين أن السبيل إلى النجاة غير متوفّر إلاّ بالجلاء المباشر عن المدينة[1] لتخليصها من المجازر والمذابح. واستطاع أثناء الليل أن يتسلّل إلى خارج الرها مع رجاله وبأعداد كبيرة من المسيحيين الوطنيين (أرمن ويعاقبة)، بعدما أشعل النيران في منازل المدينة السفلى. وفاجأ الجيش الإسلامي سيل الهاربين، فتمكّن الخيالة الفرنج، مستفيدين من الليل البهيم والفوضى، من عبر خطوط القوات الزنكية.[2] في هذه الأثناء فتح الأتراك الموجودون في القلعة مداخل المدينة فدخلها عدد كبير من العسكر الإسلامي. فشدّد هؤلاء الخناق على السكان من الوراء وأجبروهم على الإسراع في الرحيل. أما عسكر نور الدين الموجود في الخارج فقد بدأوا يدخلون من الأبواب نفسها بعدما استولوا عليها. وهكذا قتل حشد كبير من جميع الصفوف والمراتب

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٧.
- نيكيتا، ج ٢، ص ٣٩٨.
(٢) نيكيتا، مماثل.
- رنسيمان، مماثل.

في ذلك الموقع وذلك عندما حاول طرف الخروج إبعاد الطرف الآخر الذي يشق طريقه إلى الداخل ونشب في ذلك المكان الضيّق،، قتال عنيف كان خطيراً في عواقبه على الجانبين. ومع هذا فقد استطاع الأهالي من شق طريقهم إلى الخارج[1] وانتشروا في السهل المجاور. والمنظر المخيف الذي يرثى له، كان تكدّس الأهالي في المدخل الضيق وبينهم، حشد من الرجال المسنين والمرضى والنساء الضعيفات والأطفال وحتى الرضّع منهم، حيث هلك الكثير تحت حوافر الخيل أو سُحق حتى الموت من جراء الحشد المتدافع، وسقط آخرون بسيوف السلاجقة، ونجا القليل منهم بسبب قوّتهم. توجّه الجيش الفرنجي نحو نهر الفرات الذي كان يقع على بعد حوالى أربعة عشر ميلاً من الرها.[2]

نظّم نور الدين كتائبه وابتدأ بحملة المطاردة وحدثت في كلّ خطوة تقريباً اشتباكات اشتركت فيها أعداد كبيرة أحياناً من الجانبين، وقتل الأمير بودوان صاحب مرعش، كما هلك العديد من الرجال البارزين الفرنجة. لم تكن قوّة جوسلين مماثلة لقوّة نور الدين على الإطلاق. لقد فقد الجزء الأكبر من قواته ولم يعد بإمكانه أن يتحمّل لفترة أطول من ذلك، هجمات السلاجقة المستمرّة. ولذلك عبر نهر الفرات لينقذ حياته وانسحب إلى سميساط بعدما أصيب بجراح في رقبته. فلحق به باسيل، أسقف اليعاقبة كما وقع يوحنا أسقف الأرمن أسيراً، فحملوه مع الأسرى إلى حلب. ولم يبق على قيد الحياة، إلاّ من وقع في السبي من النساء والأطفال. وتقرّر إخراج كلّ سكان الرها المسيحيين وإبعادهم إلى المنفى. وأصبحت الرها خاوية موحشة،[3] وابتدأت، مدينة حرّان على البليخ، مدينة مسلمة منذ الفتح العربي، تأخذ، على الحدود بين منطقة حلب والجزيرة، مكان مدينة الرها المدمّرة.[4]

(١) وليم، ج ٤، ص ٧٥٥.
(٢) وليم، ج ٤، ص ٧٥٥.
(٣) وليم، عماثل، ص ٧٥٦.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨٨.
(٤) نيكيتا، ج ٢، ص ٣٩٨.

كان للاستيلاء على الرها، أهمية كبيرة بالنسبة لنور الدين. فقد اعترف به، الأمير زين الدين علي كوتشوك، القائد العام لقوات الموصل والمفتّش العام للقلاع، قائداً أعلى للجهاد المقدّس.

٣ – الفرنجة يهاجمون دمشق ثمّ يرتدون عنها (٢٤ – ٢٨ تموز ١١٤٨)

في ٢٤ حزيران ١١٤٨، عقد الفرنج مجلساً كبيراً في مدينة عكا، وحصلت مناقشات مستفيضة بين الأعضاء وتمّ الاتفاق «أنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الإقدام على حصار دمشق لأنها تشكّل خطراً كبيراً عليهم» وبهدف قطع الصلة نهائياً بين المسلمين في مصر وافريقيا ومسلمي بلاد الشام والشرق العربي. مع العلم أن إمارة البوريين في دمشق هي التي انفردت عن سائر الممالك والإمارات الإسلامية بالحرص على الابقاء على الصداقة مع الفرنجة. وكان من مصلحة الصليبيين الإبقاء على هذه الصداقة، حتى يتمّ على الأقل سحق نور الدين محمود زنكي. فالهجوم على هذه المدينة سيكون الوسيلة الأسلم لأن يرتمي حكامها في أحضان أتابك حلب.(١)

في ٢٤ تموز، وبعد شهر من الاجتماع الفرنجي الكبير في عكا، تقدّم الجيش الفرنجي الكبير، وكان أضخم ما قذف به الصليبيون من جيوش إلى ساحة المعركة، إلى منطقة بحيرة طبريا ومنها إلى بانياس، حيث تمّ الاتفاق مع بعض العملاء الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالأحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها. وبعد التداول بين القادة الفرنج، قرّر هؤلاء أن خير وسيلة لمضايقة المدينة وحصارها، الاستيلاء على البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر منها (الغوطة)، وتقدّم لها الحماية الكبيرة. بعد ذلك استأنف الفرنجة زحفهم حتى وصلوا إلى داريا التي تبعد عن دمشق أربعة أميال أو خمسة، وكان من السهل من هذا المكان،

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٢.

رؤية المدينة والمنبسطات المحيطة بها.(١) فدمشق تقع وسط سهل جاف جدب، فيما عدا المروي منها بواسطة أقنية تجلب المياه إليها من المرتفعات. ويمر من تلك المنطقة نهر «بردى» تُنقل مياهه في أقنية أيضاً تنساب فيها المياه وسط السهل، لتوزّع في مختلف المناطق المنخفضة، جالبة الخصب للتربة الجافة. والنهر هذا يروي البساتين الممتدّة على جانبيه والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة، ويتابع سيره مخترقاً الجانب الشرقي من المدينة.

في داريا وزّعت المهمات على فرق هذا الجيش. فملك القدس كانت مهمّته التقدّم بقواته في الطليعة وشق الطريق لبقية الفرق وراءه. والفرقة الثانية كانت في الرعيل الثاني، كاحتياط ويمكنها تقديم المساندة الفورية للرعيل الأول. أما الفرقة الثالثة فكانت في الرعيل الثالث (بالمؤخّرة)، ومهمتها، البقاء على استعداد لمقاومة القوات الإسلامية فيما لو حدث وقامت بهجوم من الخلف - فيتّقي عنصر المفاجأة.(٢) عسكرت القوات الصليبية على تخوم البساتين التي تحيط بالمدينة والتي شكّلت وسيلة دفاعية كبيرة، حيث ان الأشجار كانت كثيفة والممرات ضيّقة للغاية. ومع هذا فقد تابع جنود الفرقة الأولى التقدّم عبر هذه البساتين كي يفتحوا ممرات توصلهم إلى دمشق لمحاصرتها. وقد وضع أهالي المدينة عظيم ثقتهم بهذه المراكز الشديدة التحصين. وكذلك كان الفرنجة يرغبون في تمكين عناصر قواتهم من استغلال الفاكهة والاستفادة من المياة العذبة.(٣)

لم يحفل الأمير معين الدين أنر، أتابك دمشق، أول الأمر بما تردّد إليه من أنباء هذه الحملة. لأنه لم يتوقّع ان تكون عاصمته هدفاً

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٤١٩.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٤٠٣.
- وليم، ج ٤، ص ٧٧٩ - ٧٨٠.
(٢) وليم، ج ٤، ص ٧٨٠.
(٣) مماثل، ص ٧٨١.

لها. ولما اكتشف الحقيقة بعد اجتماع الفرنج في عكا في حزيران ١١٤٨، أصدر الأوامر إلى ولاة الأقاليم بالاستنفار التام وإرسال إليه كلّ من يستغنون عنه من الرجال. وهرع رسولان، الأول إلى نور الدين زنكي في حلب والثاني إلى سيف الدين غازي، صاحب الموصل، يطلبان منهما النجدة.(١) وقد استجابا لهذا الطلب، وهرعت قواتهما، دون تأخير، باتجاه دمشق. حصّن أنر وقوّى مراكز الدفاع في أسوار المدينة وركّز مسالحه في ضواحي دمشق وخاصة في الربوة حيث تنطلق الأقنية الرئيسية لنهر بردى الذي يروي بساتين الغوطة.(١)

يضاف إلى كلّ هذا أنه قام بين البساتين أبنية وأبراج محصّنة بشكل جيّد ويدافع عنها الأهالي الذين كانت ممتلكاتهم على مقربة منها. وقد راحوا من هذه المواقع والحواجز في قذف سيل من النبال مع بقية أنواع المقذوفات باتجاه القوات المتقدّمة بين البساتين. فقد أعيق تقدّمها بواسطة الممرات الضيّقة كما تعرّضت لمخاطر هجمات المسلمين الجريئة وكمائنهم التي نصبوها مموّهة بين جذوع الأشجار، «وقد اقتضى الحال أحياناً الدخول في معارك مكشوفة، ذلك أن قوات دمشق أغلقت المنافذ واستولت على منعرجات الممرات الضيّقة، وزحف أهل دمشق جميعاً وجاؤوا إلى البساتين في نظام واحد وإرادة متفقة»، في محاولة لإيقاف تقدّم الجيش الفرنجي ومنعه من المرور، بكلّ من وسائل القتال المباشر والقتال من وراء السواتر.(٢). ثمّ ان النبال التي تقذف من بعيد وبرشقات متتالية، جعلت الزحف الجماعي غير مأمون إطلاقاً وكذلك العبور من جميع الاتجاهات، فالرعب الذي كان يقود إلى الموت كان يصدر من كلّ مكان واتجاه، فعلى طول الجدران، اختبأ من خلفها رجال لم يكن بالإمكان رؤيتهم، وكان بحوزتهم الرماح

---

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٤١٩.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٣.
- وليم، ج ٤، ص ٧٨١.

(٢) نيكيتا، ج ٤، ص ٧٨١.

الطويلة أو القصيرة حسب مقتضيات الحال. وكان بإمكان هؤلاء المراقبة من فتحات صغيرة أعدّت بدقّة خصيصاً في الجدران ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبور، في خواصرهم وأطرافهم. وقد قتل عدد كبير من الفرنجة بواسطة هذه الطريقة المبتكرة في ذلك اليوم.[1] فالعوائق والمخاطر التي اعترضت سبيل الصليبيين كانت لا تُعدّ ولا تحصى.

وباختصار كلّي وصل الفرنج بعتادهم ومعدّاتهم وحيواناتهم وقطعوا نهر العوج بالقرب من كسوة حيث استراحوا ثمّ تابعوا تقدّمهم حتى وصلوا إلى منطقة منازل العساكر، الذي تقع على بعد أربعة أميال إلى الجنوب من دمشق. ثمّ عجّلوا بالسير نحو قرية المزّة لتوافر الماء فيها.[2] كان على الفرنج تأمين التموين بالمياه، خاصة في هذا الفصل، وبالعلف. حاول الجيش الدمشقي منع تقدّمهم، بنصب الكمائن المتفرّقة وإقامة الحواجز المختلفة، حتى أصبحت كلّ عمليات الخيالة غير ممكنة وأصبح اتكالهم على المشاة. وقد اضطرّت القوات الشامية للانكفاء إلى ما وراء الأسوار. وإذ انتصر الصليبيون، أرسل قادتهم وحدات إلى البساتين لتطهيرها من المقاتلين الذين يشنّون حرب الغرية (Guérilla) على أن البساتين الواقعة إلى الجنوب من المدينة أصبحت بعد الظهر في أيدي الفرنج، الذين أقاموا الحواجز والمتاريس من الأشجار التي قطعوها. وفي اليوم التالي، تابع الفرنج تقدّمهم باتجاه الشمال وتوقّفوا عند ضفاف نهر بردى أمام الربوه وتحت أسوار المدينة مباشرة، بعدما زادوا من عنف ضغطهم، فهدموا المباني وأزالوا الحواجز واستولوا على البساتين كما قلنا وقتلوا الكثير من الأهالي.[3]

---

(١) وليم، ج ٤، ص ٧٨١.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٤.

- نيكيتا، ج ٢، ص ٤١٩.

(٣) نيكيتا، مماثل، ص ٤٢٠.

- رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٤.

وفعلاً لقد اصطدموا بمقاومة شامية شرسة وجهاً لوجه. وقد قتل رجلا دين مهمان هما: الشيخ يوسف الغندلاوي، الإمام المالكي في دمشق، والشيخ عبد الرحمن الخولي. وظنّ أهل المدينة وقتذاك أنهم خسروا كلّ شيء، فشرعوا في إقامة الحواجز في الشوارع استعداداً للدفاع عن دمشق في هذا القتال الأخير.(١)

في هذه الأثناء أخذت الإمدادات العسكرية تتدفّق على المدينة من أبوابها الشمالية، وبفضل مساعدتهم قام الأمير أنر بهجوم مضاد انتهى بردّ الفرنجة عن الأسوار. وأعاد الكرة في اليومين التاليين، بينما توغّل رجال المقاومة الدمشقية مرة أخرى في البساتين والحدائق. وأضحت هجماتهم خطرة للغاية على الصليبيين مما اضطرّ هؤلاء للانسحاب من البساتين في جنوبي دمشق والتحرّك نحو الشرق، وأقاموا معسكرهم في بقعة بعيدة عن تغطية الأشجار. في ٢٧ تموز، تحرّك الفرنج إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي، والحقيقة أن هذا المكان كان يفتقر إلى الماء، كما انه واجه أمتن وأقوى قطاع في السور. عندها توافر للقوات المسلمة حرية الحركة لتنطلق حول البساتين. لقد ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق.(٢)

ازداد عدد قوات الأمير أنر، خاصة الذين دخلوا من باب توما والباب الشرقي إلى دمشق، مما شدّد عزائم المدافعين «الاحداث». دارت المعارك في ميدان الأخضر بالقرب من التكية، وبين دمشق والربوة، في بساتين النيرب والشرف.

لقد وقع الفرنج في حيرة من أمرهم، فالبساتين الغضة لم تمنع عنهم وصول النبال المنطلقة من الأسوار ومقتل الحيوانات والرجال. وقد قتل عدد كبير منهم في الكمائن المنفردة.

تشاحن القادة الفرنج بين بعضهم البعض حول مستقبل دمشق إذا استولوا عليها. وكان نور الدين في حمص، يتفاوض في شروط مساعدته لأنر. وطلب نور الدين «انه

---

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٤٢٠.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٤٠٤.
(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٥.

ينبغي السماح لجنوده بدخول دمشق». غير أن أنر كان يعمل لكسب الوقت. ذلك أن الجيش الفرنجي كان في وضع حرج أمام المدينة، ولم يتوقع قدوم إمدادات، على حين أنه لن تمر أيام قليلة حتى يصير جيش نور الدين في ساحة المعركة وتنتقل دمشق إلى حوزته.[١] ويقال إن أنر دفع مبلغاً كبيراً من المال إلى الصليبيين بالعملة المزيّفة، أي حوالى مائتي ألف دينار، كي يتخلّوا عن الهجوم فيتخلّى هو عن التحالف مع نور الدين.[٢]

بدأ الطعام يتناقص في المعسكر الفرنجي. «وعمّ الشك وسيطر التوجّس عليهم من خيانة كبرى وضعت بفضل الأموال التي دفعت»، وبدا واضحاً ان العودة إلى الموقع السابق صعبة لا بل مستحيلة، لأنه ما ان انسحب الفرنج حتى تحقّقت غايات أهالي المدينة والمدافعين عنها، الذين سارعوا بالدخول إلى البساتين وأقاموا دفاعات أقوى مما سبق، فالطريق التي سبق للصليبيين أن دخلوا منها، سدّت الآن بجذوع أشجار ضخمة، وبكميات من الصخور، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من «النبّالة» حالت دون إمكانية الدخول من أي جانب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلّب بعض الانتظار، وهذه مسألة لم تسمح بها وضعية نقص المؤن.[٣]

اجتمع القادة الصليبيون واقتنعوا بأن هجومهم لا حظّ له بالنجاح، فقرّروا التخلّي عنه والتراجع إلى فلسطين. وفي يوم الاربعاء، ٢٨ تموز السنة ١١٤٨، أي في اليوم الخامس لوصولهم أمام أسوار دمشق، قام الصليبيون بإزالة المعسكر، والتراجع نحو الجليل في فلسطين. ولم تدعهم قوات أنر يتراجعون في هدوء وسلام. إذ ان الفرسان التركمان الخفاف، ظلّوا طوال ذلك اليوم، والأيام التالية، يضغطون على جناحي الجيش

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.
- وليم، ج ٤، ص ٧٨١.
(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٤٥٧.
(٣) وليم، ج ٤، ص ٧٨٥.

ويمطرون الجموع بوابل من النبال. وتناثرت جثث المقاتلين والخيل على امتداد الطريق، أفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة تالية. وفي أوائل آب وصلت القوات الصليبية إلى فلسطين.(١)

لقد جاء إخفاق هذه الحملة الكبيرة بمثابة ضربة قاسية للفرنجة في الشرق. لقد ارتاع القادمون من أوروبا حديثاً للمشاركة بالحروب الفرنجية، لما حدث. لذلك عاد أكثرهم السنة ١١٤٨ إلى ديارهم في الغرب على رأسهم الملك كونراد الالماني الذي جاء مع الحملة الثانية. أما الملك لويس الفرنسي فقد عاد إلى فرنسا السنة ١١٤٩، بعد فشل الحملة بكاملها.

٤ – معركة العريمة قرب طرابلس وأسر كونت تولوز ١١٤٩

بعد إخفاق الحملة الصليبية أمام أسوار دمشق. عاد الملك الالماني كونراد إلى بلاده ولم يبقَ في الشرق، من أمراء الحملة الصليبية الثانية إلاّ الأمير برتراند، كونت تولوز الذي لم يحتمل أن يرى إمارة طرابلس الغنية، ما زالت بيد ابن عم له، يرتاب برتراند في أنه هو الذي قتل والده ريمون سان جيل منذ شهور واستولى على إمارته – طرابلس التي أسّسها.(٢)

بقي هذا الأمير في فلسطين حتى غادرها الملك لويس السابع الفرنسي السنة ١١٤٩. ثمّ سيّر رجاله نحو الشمال كأنه كان يريد الإبحار من ميناء في شمالي لبنان بيد الفرنج. ويبدو أنه أخذ طريق الساحل التي تصل إلى سهل البقيعة الذي يسيطر عليه أمراء مسلمون يعملون بخدمة أتابك دمشق، تحوّل فجأة إلى الداخل واستولى على حصن «العريمة» وقاتل بشراسة الجنود الذين أرسلهم كونت طرابلس لطرده. وكان حصن العريمة يحتل موقعاً منيعاً ومهماً ويتحكّم في الطريق الممتد من طرابلس إلى اللاذقية ومنها إلى صافيتا وطرطوس وهو

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥٧.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٦٢.

– نيكيتا، ج ٢، ص ٤٢٤ – ٤٢٥.

يقع على حافة منطقة جبلية صعبة المسالك. ولما لم يلقَ كونت طرابلس شيئاً من العطف عند زملائه من الأمراء الفرنجة، أرسل إلى دمشق يطلب المساعدة من أنر، فاستجاب له أنر عن طيب خاطر، ودعا نور الدين للاجتماع به بغية إبعاد منطقة حمص عن التهديد الذي يحدثه كونت تولوز. اجتمع الأميران في بعلبك في منتصف أيلول ١١٤٨، وطلبا التعزيز من سيف الدين غازي الذي كان في ذلك الوقت في حمص مع جيشه لمسانده أنر ضد الحملة الصليبية الثانية. أرسل أتابك الموصل إليهما مفرزة مهمّة من الخيالة بقيادة الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي، حاكم جزيرة ابن عمر. أخذت القوّة الإسلامية اتجاه شمال غرب فوصلت إلى سهل عكار وصعدت نهر أبراج وألقت الحصار على حصن العريمة. استطاع النقابون الحلبيون لنور الدين، إحداث فجوات تحت السور، أدّت إلى هدم قسم منه والدخول إلى الحصن. فلم يستطع الكونت برتراند الصمود طويلاً أمام جيش كبير، فخرّب المسلمون الظافرون الحصن حتى تساوى بالأرض، بعد أن نهبوا كلّ ما بداخله ثمّ تركوه ليحتلّه من جديد الكونت ريمون صاحب طرابلس وانسحبوا، وفي أثرهم عدد كبير من الأسرى، رُبطوا إلى حبل طويل وكان برتراند وأخته من نصيب نور الدين، فحملهما إلى حلب حيث أمضيا في الأسر اثنتي عشرة سنة هناك.[1] وتردّدت قصّة عن الفرنج، بأن أخت برتراند تزوّجت من نور الدين وأنجبت له ابنه «إسماعيل الصالح» الذي خلفه في الحكم...[2] والله أعلم!... عاد معين الدين إلى دمشق وعز الدين الدبيسي إلى حمص، حيث عاد مع سيف الدين غازي نحو الجزيرة، بينما دخل نور الدين محمود زنكي إلى حلب.[2]

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٤٦٢.
(٢) نيكيتا، عاثل، ص ٤٢٦.

٥ - حملة نور الدين ضد انطاكية (آب - أيلول ١١٤٩)

كان ريمون أمير انطاكية على حق، حينما حثّ قادة الحملة الصليبية الثانية للزحف على حلب، على أن فشله في تحريضهم كلّفه ضياع حياته. لقد كان بوسع جيش كبير أن يسحقه في السنة ١١٤٧. فالأمير أنر، أمير دمشق لن ينهض لنجدته ولا الأمراء المسلمون الصغار المستقلّون في نهر العاصي، كما أنه لن يعوّل على المساعدة من قبل أخيه سيف الدين الغازي بالموصل، نظراً لما يصرفه عنه من المتاعب في العراق. غير أنّ حماقة الفرنج حملت أنر للتحالف مع نور الدين أثناء حصار دمشق، وما تهيّأ له من فرصة للتدخّل في أمور طرابلس، وطّد سيطرته على وسط بلاد الشام.[١]

بعد العودة عن حصار دمشق والشائعات التي روّجت آنذاك عن رشوة أمير دمشق لملك القدس، أصبح وضع الفرنج منذ الآن وصاعداً في الشرق أكثر سوءاً بشكل واضح. فسخر المسلمون من قوّتهم المتحطّمة ومجدهم المتصدّع ولهذا السبب سمت جرأتهم وشجاعتهم إلى مستويات عالية حيث لم يعودوا يخافون من القوات الصليبية، ولم يتردّدوا عن مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير.[٢]

٥١ - مفاجأة نور الدين في يغراس (١١ كانون الأول ١١٤٨):

بعد انتصاره في العريمة وعودته إلى حلب، انطلق نور الدين من جديد نحو الجنوب في أيلول ١١٤٨، فاستولى على الباره (الكفر) في جبل الزاوية، جنوبي معرة النعمان، مهدّداً من هناك طريق آفاميا انطاكية، التي تمرّ في وادي نهر العاصي. بعدها دخل إلى حلب. في هذه الأثناء أفاد مسعود سلطان قونيه، من هزيمة الفرنج، فهاجم مرعش. وتجهّز ريمون أمير انطاكية للقائه، فلم يسع مسعود إلاّ أن يطلب

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٥٢٣.

(٢) وليم، ج ٤، ص ٧٨٩.

من نور الدين أن يصرفه عنه، بأن يهاجم ممتلكاته، فاستجاب نور الدين لطلبه، غير أن ريموند، الذي تحالف مع علي بن وفا الكردي زعيم فرقة الحشاشين في مصياف، الذي يضمر لنور الدين الكراهية والحقد، قام بهجوم مفاجىء على نور الدين في تشرين الثاني في يغراس افاميا، أثناء قيام الأتابك باجتياح القرى الواقعة في الضفة السفلى لنهر الأسود. وقع الحسد والتنافس بين اثنين من أكبر قادة نور الدين وهما: شيركوه الكردي ومجد الدين بن الداية، شقيق نور الدين في الرضاعة ومن أعيان حلب.[1] رفض شيركوه الاشتراك في القتال واضطرّ الجيش الإسلامي بأكمله إلى المبادرة بالتقهقر المهين، تاركاً أسلحته وعتاده، بعد أن هرب نور الدين وأفلت من كمين وتمكّن من العودة إلى حلب، بينما تلقّت قواته بعض الخسائر. سيتمكّن نور الدين وبأقصى السرعة من استعاضة معداته وعتاده وأسلحته المفقودة للإغارة ثانية على أمير انطاكية في الربيع التالي.[2]

٥٢ - معركة إنَبْ - انتصار نور الدين ومقتل أمير انطاكية الصليبي (٢٩ حزيران ١١٤٩):

في ربيع ١١٤٩، قام أمير انطاكية ريموند بالإغارة على جبل ليلون، حالياً جبل سمعان، شرقي غرب حلب، فأسرع نور الدين وردّه بعد معركة قصيرة، انكفأ بعدها ريموند فلاحقه الأتابك وأجبره على إعادة اجتياز كاراسو بعدما استولى منه على غنائم وافرة.[3]

قرّر نور الدين القيام بعملية هجومية ضد أفاميه على الضفة الوسطى للعاصي. فطلب

(١) نيكيتا، ج ٢، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨.
- رنسيمان، مماثل، ص ٤٢٤.
- وليم، مماثل، ص ٧٨٩.
(٢) نيكيتا، مماثل، ص ٤٢٨.
- رنسيكمان، مماثل، ص ٥٢٨.
- وليم، مماثل، ص ٧٨٩ ولاسيما الإشارة رقم (٢).
(٣) نيكيتا، مماثل، ص ٤٣٠ ٤- ٤٣١.

مساندة أمير دمشق، معين الدين أنر، الذي كان يشنّ، حملات عسكرية متفرّقة بواسطة الخيالة التركمان والعرب والبدو، على مملكة القدس، التي كان قد وقّع معها لتوّه هدنة لمدّة سنتين. بقي معين الدين مع جيشه في منطقة حوران كي يتمكّن من حماية وتأمين نقل الحبوب نحو دمشق، لكنه كان يستطيع الإجابة على طلب نور الدين، فأرسل في منتصف حزيران ١١٤٩، تعزيزات عسكرية بقيادة مجاهد الدين بوزان بن معين، أمير صلخد.(١) وما ان اجتمع الجيشان وانضمّت إليهما فرق الخيالة التركمان، حتى تحرّكا نحو هدفهما «افاميا» في المنطقة المحتلّة من قبل فرنج انطاكية.

وصل نور الدين وأنزل الهزيمة بريموند في يفراس، التي لا تبعد كثيراً عن ساحة المعركة السابقة. ثمّ توجّه جنوباً لينازل حصن إنب، وهو من الحصون القليلة الواقعة شرقي العاصي، والتي ظلّت بأيدي الصليبيين، فتوجّه ريموند، لنجدة الحصن، بجيش قليل العدد، وجماعة من حلفائه الحشاشين بزعامة علي بن وفا الكردي. غير أن نور الدين لم يلبث ان تراجع، بعد أن وردت إليه أنباء خاطئة عن قوّة أمير انطاكية. والواقع أن الجيش الإسلامي المؤلّف من ستة آلاف مقاتل، ربعهم من الخيالة، كان يفوق في العدد جيش الفرنج الذي تألّف من أربعماية فارس وألفٍ من المشاة.(٢) قرّر ريموند أن يرسل تعزيزات إلى الحصن ولم يحفل بنصيحة علي بن وفا الكردي الذي نصحه بعدم البقاء طويلاً في المنطقة والانكفاء إلى أمكنة لحماية نفسه وقواته. فأدرك نور الدين ما أضحى عليه أمير انطاكية من الضعف. خاصة وأنه لم يتلقّ أية مساعدة إضافية. وفي ٢٨ حزيران ١١٤٩، عسكر الجيش الصليبي، في منخفض، قرب عين مراد، في السهل الواقع

---

(١) نيكيتا، مماثل، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣١.

- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٥ - ورد عنده ان قوّة الفرنج كانت أربعة آلاف فارس وألف راجل والله أعلم.

- وليم، المرجع السابق، ص ٧٩٠.

بين حصن إنب ومستنقع الغاب (٥ كلم).[١] وفي أثناء الليل زحفت قوات نور الدين وطوّقت الجيش الفرنجي. وفي صبيحة اليوم التالي، عند الفجر، أدرك ريموند أنه لا سبيل للنجاة إلاّ باقتحام صفوف نور الدين. غير ان طبيعة الأرض لم تكن لصالحه، فبينما كان الفرسان يصعدون المنحدر، هبّت الرياح الساخنة، فأثارت الغبار والتراب في عيون الفرسان، ولم تتمكّن هذه القوات من صدّ أعداد نور الدين الكبيرة، فولّت الأدبار ولاذت بالفرار، وترك الأمير وحوله عدد قليل من رجاله فقط، وقد قاتل بشجاعة لكن التعب أنهكه فقُتل بضربة حسام شيركوه وسط المذبحة وقطع له رأسه ويده اليمنى وترك الجثة المشوّهة وسط جثث القتلى المنثورة في ميدان المعركة. وكان بين القتلى أيضاً رينالد سيد مرعش ونبلاء غيره، وعلي بن وفا الكردي. لقد استعاد شيركوه، بقتل ريموند، ما فقده في افاميا، من رضى سيده.

وأرسل نور الدين رأس الأمير الصليبي ويده في صندوق من الفضة، هدية إلى الخليفة في بغداد.[٢]

عثر الفرنج على جثة الأمير بين القتلى وتمّ التعرّف عليها من خلال شارات وندبات خاصة، فنقلت إلى انطاكية ودخلت إليها بطقوس جليلة حيث دفنت بين قبور أسلافه في ردهة كنيسة أمير الحواريين.[٣]

٥٣ - تداعيات نكبة الفرنج في إنَب:

أ - نور الدين يحاصر انطاكية:

بعد نكبة إنب، استسلم أهالي انطاكية للحزن المطلق وعمّت المرارة قلوب الفرنج جميعاً. وأصابت أنباء مقتل ريموند والوضع البائس في انطاكية، ملك القدس بالذعر، فجمع جنوده فوراً لنجدة إخوانه في المحنة وسارع بالتوجّه نحو منطقة انطاكية.

وقعت مهمة الدفاع عن انطاكية على عاتق الأميرة كونستانس، أرملة ريموند الشابة

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٦.
(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٥٢٥.
- وليم، مماثل، ص ٧٩٠.
(٣) وليم، مماثل، ص ٧٩١.

وتحت كنفها أربعة أطفال، الكبير منهم وهو بوهمند الثالث. كلّفت كونستانس البطريرك اللاتيني آميري أن يجمع الرجال وأن ينظّم المقاومة ويطلب المساعدة والنجدة من ملك القدس.(١) أمام هذا اليأس وهذه الفوضى في الدفاع عن انطاكية، توغّل نور الدين محمود في أراضي انطاكية كيما تتم له السيطرة على الوادي الأوسط لنهر العاصي بالاستيلاء على تلّ كشفهان وارزغان في الشرق من جسر الشاغور وبزرمشان، ثمّ توغّل باتجاه الشمال وتغلّب على حاميات ارتاح وتل العمار وسلكين وعمّ (يني - شيهير) وحارم التي عزّزها بالأطعمة والأسلحة والجنود بحيث تتحمّل حصار عدّة أيام. ونهب كلّ القرى في طريقه. ثمّ توجّه نحو الغرب حيث ظهر أمام أسوار انطاكية ذاتها، وامتدّت غاراته حتى بلغت السويدية.(٢) ولأوّل مرة في حياته يرى البحر فاستحمّ هناك بحضور جيشه، لقد فهم نور الدين أن وراء أسوار انطاكية يوجد شعب كثير العدد، فالاستيلاء على المدينة بالقوّة يلزمه جهد عسكري كبير، لذلك دخل بمفاوضات مع المحاصرين من أهلها وعلى رأسهم البطريرك ايمري، مشترطاً تسليمه انطاكية مقابل حمايته لأرواح الناس، واحترامه دينهم والمحافظة على ممتلكاتهم الخاصة.(٢)

بانتظار النجدة القادمة من الملك بودوان، لم يوافق السكان على ما طلبه نور الدين، إنما حصلوا على هدنة قصيرة، بعد أن وعده البطريرك بأنه سيسلّمه انطاكية إذا لم يصل الملك في الوقت المحدّد. لقي هذا التدبير استجابة من نور الدين، نظراً لنفوره من محاولة الهجوم على انطاكية. وقد دفع الأهالي إلى الاتابك الهدايا الكثيرة والأموال الوفيرة كي يستجيب لطلبهم.(٣)

---

(١) وليم، المرجع السابق، ص ٧٩٢.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٢.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٦.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٣.
(٣) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٣ - ٤٣٤.

بعد ذلك ترك نور الدين قوّة من جنوده لمراقبة أسوار انطاكية ومنع أية نجدة للوصول إلى داخلها، وسار نحو الجنوب لنجدة الأمير صلاح الدين اليغيباصاني أمير حماه الذي لا يزال يحاصر آفاميا.(١)

ب - استيلاء نور الدين على افاميا:

عندما ترك نور الدين حلب، في الربيع، كان هدفه أفاميا. لكنّه عدّل خطته بعد انتصاره الكاسح في حصن إنب، لقد كانت انطاكية فريسة سهلة. وكان الزنكيون، كما رأينا، يفضّلون السيطرة على عدّة مراكز في وادي العاصي الأسفل قبل الذهاب لنجدة أمير حماه الذي يحاصر افاميا (فاميا عند المؤرّخين العرب). يقع هذا الحصن على نهر العاصي، على بعد حوالي الثلاثين كيلومتر غربي حماه، أي ما يعادل يوم سير، وقد بني على تلّ عالٍ، وكان من أحصن القلاع وأمنعها (قلعة المضيق). وقد استعمله الفرنجة كقاعدة لغزواتهم ضد شيزر وحماه.(٢)

سار نور الدين إليه، وشدّد الحصار وبه الفرنج، وقاتلهم وضيّق على من به منهم، «فاجتمع من بالشام من الفرنج، وساروا نحوه ليرحلوه عنه وقد ملكه وكان ذلك من ٢٦ تموز ١١٤٩». وقد أبقى نور الدين على حياة رجال الحامية، وقد سرّ بالاستيلاء على الحصن قبل وصول نجدات الفرنج الذين نمي إليهم أن الحصن قد سقط فعادوا أدراجهم خاصة وأنهم لم يكونوا أقوياء كفاية لإعادة احتلاله. ركّز نور الدين حامية عسكرية وزوّدها بالذخائر والأسلحة والمؤن، وكلّ ما تحتاج إليه. وبقيت قلعة المضيق تابعة لحلب حتى الاجتياح المغولي في القرن ١٣.(٣)

وقد مدحه ابن الرومي على هذا الفتح:

---

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٢) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٣) ابن الأثير، مماثل.

- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٩.

أدركت ثأرك في البغاة، وكنت، يا
مختار أمة أحمدِ، مختارها
ضاءت نجومك فوقها، ولطالما
باتتْ تناقشها النجومُ شرارها
واحقُ من ملك البلادَ وأهلها
رؤوفٌ تكنفَ عدلهُ أقطارَها

ج - نور الدين يعود إلى انطاكية:

بعد الانتهاء من عملية حصن فاميا وعودة حليفه الأمير مجاهد الدين بوزان، إلى دمشق، هذا الحليف الذي نفّذ معه كلّ هذه الحملة العسكرية، عاد نور الدين إلى منطقة انطاكية، لمساندة العناصر الذين تركهم يتابعون حصار المدينة. تمكّن الملك بودوان والفرنج من الدخول خلسة إلى المدينة، الأمر الذي قوّى عزائم السكان ورفع معنوياتهم وحمل نور الدين على أن يقبل امتداد أجل الهدنة، وساعد على منع السلطان مسعود من مهاجمة تل باشر. وعلى الرغم من أنه جرى إنقاذ انطاكية، فإن أملاكها لم تعد تتجاوز سهل المدينة ذاتها، وساحل البحر المتوسّط الممتد من اسكندرونة إلى اللاذقية، بينما استولى نور الدين على الأراضي الواقعة إلى الشرق ليضمّها إلى حلب.(١)

د - تصفية مقاطعة مرعش:

لم يكن نور الدين لوحده يريد الإفادة من هزيمة الفرنجة في حصن إنب. فجوسلين الثاني، سيّد الرها السابق، الذي لجأ إلى غربي الفرات، ما ان سمع بمقتل صهره رينالد صاحب مرعش حتى مضى محاولاً ضم مقاطعة المتوفي إلى أملاكه. هذه التركة أغرت عدداً آخراً من الطامعين بها. فالأمير قره ارسلان أتى من الشمال الشرقي وأمير قونيا مسعود السلجوقي تقدّم من الشمال(٢) أيضاً مع جيش كبير واستولى على قلاع ومدن كثيرة في تلك المنطقة. ومستفيداً من الوضع القائم، قرّر أن يقوم بهجوم على

---

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٩.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٣٥.

(٢) الأمير مسعود هذا هو ابن قلج ارسلان الذي حكم سلطنة سلاجقة الروم اوقونية من السنة ١١١٦ حتى السنة ١١٥٦.

مرعش. فاستدعى نور الدين لنجدته، لكن هذا الأخير لم يتمكّن من نجدته إلاّ بإرسال تجريدة من الخيالة بقيادة شيركوه. لقد كان منشغلاً بعدّة أمور أخرى: ففي ٢٨ آب ١١٤٩، نقل معين الدين أنر، من حوران، مريضاً ثمّ توفي بعدها بمرض الزحار - الديزانتريا، وأراد نور الدين استغلال هذا الوضع لتحسين مواقعه في دمشق،[١] غير أن مرض شقيقه سيف الدين في الموصل، في شهر أيلول بدّل كلّ خططه.[٢]

٦ - نور الدين يأسر جوسلين (نيسان ١١٥٠)

يبدو من خلال أقوال ابن الأثير، المؤرّخ العربي، كتب ابن الأثير أنه في السنة ٥٤٦هـ،[٣] «جمع نور الدين محمود عسكره، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي، في شمالي حلب، وقد انتصر عليه جوسلين عندما تقابل الجيشان». وقد ذكر هذا المؤرّخ انه في المعركة التي حصلت في بقعة دلوك شمالي عينتاب، انهزم المسلمون «وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان في جملة من أسر، سلاحدار نور الدين»، وقد أرسل جوسلين، إلى السلطان مسعود ابن قلج ارسلان، صاحب قونية واقصرا، بعض الأسلحة التي استولى عليها في المعركة مع رسالة قال فيها: «هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما أعظم منه». فلم علم نور الدين بهذه الإهانة استبدّ به الغضب وأقسم بأنه سينتقم من هذا الفرنجي الوقح. فأحضر إلى حلب جماعة من التركمان وطلب منهم الإتيان بجوسلين حياً أو ميتاً وقد وعدهم بجائزة ضخمة لمن ينفّذ ذلك.

وفي الحال نظّم التركمان مراقبة واسعة وضاعفوا عدد جواسيسهم لرصد أي تحرّك

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٤٣٥.

(٢) ابن القلانسي، مرجع سابق، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٣) الأصح سنة ٥٤٨ هجرية (أي ١١٥٠ ميلادية) وليس سنة ٥٤٦. وقد أجمع المؤرّخون على هذه السنة انها الأصح.

لكونت الرها. على أنه حدث في نهاية نيسان ١١٥٠، أن ترك جوسلين تل باشر وتوجّه مع عدد قليل من مرافقيه إلى انطاكية، للتشاور مع بطريركها، وبينما كان يسير ليلاً بين قورش وعزار، وبدون أدنى شك، بالقرب من التخوم المشجرة لأدغال جبل برشايا، ابتعد قليلاً عن حرّاسه لقضاء حاجة جسدية، فوقع في أيدي شلة من التركمان المغامرين، كانوا قد نصبوا له كميناً في تلك المنطقة. ولشراء حريته، عرض عليهم فدية كبيرة، فسمحوا له أن يبعث غلامه ليأتي بالمبلغ من حصن عزار. لماذا قبل التركمان هذا العرض؟؟ إما لأن الفدية كانت أكبر مما عرضه نور الدين وإما لقبض الفدية من جوسلين ومن ثمّ تسليمه إلى نور الدين فيقبضوا الفدية المقرّرة، والله أعلم.[١]

بعد ذلك، ترك أحد التركمان رفاقه وذهب لمواجهة الأمير ماجد الدين في حلب وأخبره عن القاء القبض على الأمير الفرنجي. وخوفاً من فراره، ذهب ماجد الدين مع قوّة عسكرية من رجاله إلى مكان وجود جوسلين مع التركمان، ولم تكن الفدية الفرنجية قد وصلت، فانتزع السجين من أيدي الذين أسروه ودفع لهم ألف دينار.[١]

نقل الأسير، مكبّلاً بالسلاسل، إلى حلب في الرابع من أيار السنة ١١٥٠ وأودع القلعة تحت الحراسة المشدّدة. لم تتأخّر عودة نور الدين فقد رجع من دمشق. فأمر بسمل عيني الأسير وبإلقائه في السجن بحلب، حيث ظلّ إلى أن مات بعد تسع سنوات، السنة ١١٥٩.[٢]

(١) وليم، المرجع السابق، ص ٧٩٣.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٢) اختلفت روايات المؤرّخين عن مصير جوسلين. فيذكر متى الرهاوي وابن الفرات ان جوسلين توجّه إلى انطاكية لالتماس المساعدة منها، أو ليتولّى الوصاية على العرش. بينما يذكر سبط بن الجوزي ان جوسلين وقع في غرام فتاة تركمانية. وابن الفرات يشير إلى انه سقط عن ظهر جواده بعد ان اصطدم بشجرة. ويقول أحد المؤرّخين السريان، ان يهودياً عرف هويته.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٥٤.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٧ - ٥٢٨.
- وليم، المرجع السابق، ص ٧٩٣.

وبذا لم يحلّ صيف سنة ١١٥٠، حتى فقدت سيّدها كلّ من إمارة انطاكية وما تبقى من كونتيه الرها. على أن نور الدين لم يخاطر بالمضي إلى أبعد ذلك.

لم يبق وقتذاك سوى إقامة حكومة في الإمارتين. إذ إن نور الدين سبق وهاجم تل باشر عقب أسر جوسلين، غير أن ما أعدّته زوجته الكونتيسة بياتريس من دفاع عن المدينة بلغ من القوّة، ما دعا نور الدين إلى الانسحاب. ومع ذلك فالواضح انه ليس بوسع تل باشر ان تستمر في صمودها، إذ اكتظّت بمن لجأ إليها من المناطق المتاخمة من اللاجئين الفرنج والأرمن، كما أن فتوحات نور الدين عزلت كلّ المنطقة عن انطاكية. لذلك باعت بياتريس، إلى الامبراطور البيزنطي المعاقل الستة من إمارة الرها: تل باشر، ورواندان، وسميساط، وعينتاب ودلوك والبيرة. واستبقت حصناً واحداً لم تعرضه للبيع، وهو قلعة الروم، على نهر الفرات قرب سميساط، إذ منحته للجاثليق الأرمني ليتخذه مقراً له. والواقع أن الامبراطور أضاع هذه الحصون في أقل من سنة.(١) ففي السنة ١١٥١، اشترك السلطان مسعود مع نور الدين في شنّ الهجوم على الحاميات البيزنطية في الحصون الستة، وهرع إليهما الأمراء الأراتقة، ليأخذوا بنصيبهم في هذا الهجوم، فسقطت عينتاب ودلوك في يدي مسعود، بينما استولى تمرتاش الأرتقي أمير ماردين على سميساط والبيرة، ووقعت راوندان في يدي نور الدين. أما في تل باشر فقد دافع عنه البيزنطيون لمدّة زمنية معيّنة أوشكوا خلالها أن يموتوا جوعاً، فاستسلموا في حزيران ١١٥١ إلى حسان صاحب منبج، نائب نور الدين. فزال بذلك كلّ ما تبقّى من أثر لإمارة الرها الفرنجية. ولجأت إلى القدس الكونتيسة بياتريس بطفليها جوسلين واجنس اللذين سوف يقومان فيما بعد بدور بالغ الخطورة في سقوط مدينة القدس.(٢)

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٣١ - ٥٣٢.
- وليم، المرجع السابق، ج ٥، ص ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣.
- ابن القلانسي، المرجع السابق، ص ٣٠٩.
- ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٣٧٥ - ٣٩٩.

وأخيراً تمكّن نور الدين في نهاية السنة ١١٥١ من تعزيز وتقوية الحدود الشمالية لمقاطعة حلب وأنشأ خطاً دفاعياً حقيقياً ضد تقدّم محتمل لقوات السلطان مسعود. فاستولى كما قلنا على ركورروز وعزار وراوندان، وتل باشر وتل خالد وحصن كرزين وإقليم نهر الجوز وكفرلاطا وبصرفوت.

لم يبق سوى ٣ دويلات فرنجية في الشرق: إمارة طرابلس التي أصبحت فريسة لقتال دموي عائلي - (مقتل الأمير ريمون الثاني)، ومملكة القدس التي تعيش حالياً ضمن دسائس ومكائد الأميرة ماليزند ضد الملك بودوان (حرب أهلية العام ١١٥٢)، وإمارة انطاكية التي خسرت عدّة أراضي. لقد أصبحت الحدود الإسلامية بين الفرات والعاصي.(١)

هذا الوضع، الجغرافي والسياسي، سيسمح لنور الدين متابعة سياسته التوحيدية لسوريا والاهتمام بدمشق التي كانت هي أيضاً فريسة للفوضى، بدون تدخّل الفرنجة.

---

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

الفصل الثالث
غزوات نور الدين المتواصلة ضد الفرنجة (١١٥١-١١٦٤)

١ - الخيالة التركمان يغزون بانياس (١١٥١):

في نهاية السنة ١١٥١، حدثت قلاقل كبيرة بين الفرنجة، بعضهم ضد بعض مزّقت مملكة القدس وشلّت جيشها،(١) ومع هذا لم تتدخّل دمشق حتى ان مجير الدين، الذي كان قد وقّع هدنة مع بودوان الثالث، دان الذين قاموا بهذه القلاقل.

في بداية شهر كانون الأول، قمت فرقة من الخيالة التركمان بمهاجمة موقع وحصن بانياس شمالي بحيرة الحولة في فلسطين. وعندما حاول سيّد الحصن الفرنجي مقاومتهم، تلقى خسارة فادحة في قواته. بعد هذا الانتصار تراجع التركمان نحو الشمال: مجير الدين، حليف الفرنجة، استهجن هذه العملية، ولكي يبقى على علاقاته الجيّدة مع القدس، أرسل قوّة شامية اعترضت التركمان واستولت على قسم من الغنائم والملبوسات، فأعادها مجير الدين إلى أصحابها الفرنج بعدما أسر ثلاثة من التركمان. بعد بضعة أيام من هذه الحادثة، نظّم فرنجة بانياس غزوة انتقامية ضد المسلمين، فصعدوا وادي التيم على طول سفح جبل حرمون في لبنان وضربوا عدّة قرى وبلدات وأسروا عدداً كبيراً واستولوا على كمية كبيرة من الماشية.(٢)

---

(١) لقد وقعت حرب أهلية في مملكة القدس بين أنصار بودوان ووالدته مالينزند وانتهت بانتصار الملك.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٧٢.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٤٢ - ٨٤٣.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٢.

أمام هذا الواقع تدخّل حاكم بعلبك نجم الـدين أيوب[١] بسـرعـة لملاحـقـة الفرنج، الذين ضايقهم البرد القارس وهطول الثلوج بشـكـل كـبير، فـأجبروا عـلـى تـرك الـغـنـائم والأسلاب على الطريق. وقد تمكّنت القوات المسلمة من اللحاق بهم فقتلوا عدداً كبيراً منهم وأعادوا الأسرى والماشية إلى أصحابها.

٢ – نور الدين يستولي على طرطوس وقلعتي يحمر ودلوك (١١٥٢ – ١١٥٣)

خلال العام ١١٥٢، لم تقع أية حادثة تذكر. فقط الاستيلاء على طرطوس ودلوك وقلعة يحمر تستحق أن نذكرها في الفتوحات الـزنـكـيـة. في هـذه الـسـنـة رزق نـور الـديـن محمود في حمص، من زوجته الثانية ابنة مسعود، ابنه أحمد، الذي لم يعش طويلاً فتوفي بعد ثلاث سنوات، ودفن في مقبرة باب الصغير في دمشق. وبينما كان أسياد طرابلس مشغولون بمشاجراتهم الواحد ضد الآخر (الكونت ريمون II وهوديارن زوجته، شقيقة الملكة ماليزند)، تمكّن نور الدين من الانتقال بقواته نحو الشاطىء السوري في نـيـسـان – أيـار ١١٥٢[٢] وهـاجـم طرطوس، الـمـرفأ الواقع بين اللاذقـيـة وطرابلس، وقد استسلم له بعد حصار سريع. هذا النجاح، سمح لنور الدين أن يقطع المواصلات على طـول الشـاطـىء بين انطـاكـيـة والـدويـلات اللاتينية في الجنوب. وضع نور الدين حامية كبيرة في طرطوس، ثمّ تابع سيره واستولى على قلعة يحمر الواقعة على بعد عشرين كيلومتراً من صافيتا. وقد بقي هذان المركزان في أيدي المسلمين حوالي العشرين سنة قبل أن يـعـود ويـسـتـولي عـلـيـهـمـا الـفـرنج الـسـنـة ١١٨٣.[٣]

---

(١) نجم الدين أيوب هو والد البطل المسلم، صلاح الدين وشقيق شيركوه الرجل العسكري الأول عند نور الدين محمود زنكي.

(٢) ابن القلانسي، المرجع السابق، ص ٣١٨ – ٣٢٧.

(٣) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤٧٣.

وفي هذه السنة أيضاً حاصر نور الدين قلعة دلوك، بين حلب وانطاكية، شمالي غرب عينتاب. هذه القلعة التي تسيطر على عقدة الطرق في منطقة العواصم. وهكذا أصبحت قوات نور الدين قريبة جداً من مرعش، قاطعة الاتصال بين هذه المدينة والفرات الأوسط.

في السنة ١١٥٤، استولى نور الدين على دمشق. وهكذا ولأوّل مرّة منذ الخلافة الأموية، حلب ودمشق، العاصمتان الكبيرتان المتنافستان، ستكونان ولعدّة سنوات، تحت حكم عاهل واحد في كَنَفْ الإسلام السني. لقد تأمّنت الوحدة السورية في ظلّ نور الدين محمود زنكي.

من الآن وصاعداً، سيتبدّل الوضع برمّته. لقد تنامت سلطة نور الدين في العالم الإسلامي. أما بالنسبة للفرنجة، لقد أصبحت قوّته خطراً عليهم يجب أخذه بعين الاعتبار. إن وحدة سورية واستقلالها لن يدوما سوى أربعين سنة فقط، ذاك أن نور الدين زنكي وبعده صلاح الدين الأيوبي، كانا شخصيتان قويتان، تمكنا من مسك قدر الإسلام الشرقي، بسلطة لا منافس لها.

فبعد موت صلاح الدين، ابتدأت المنازعات تذر قرنها بين خلفائه وورثته. لقد أنهى الأمراء الأيوبيون هذه الوحدة وهذا الاستقلال.

٣ – نور الدين يهاجم الفرنج في بانياس (١١٥٧)

بعد انتصاره، استقبل أهالي دمشق نور الدين بكلّ مظاهر الفرح والسرور وأضحت أملاكه تمتدّ من الرها إلى شرقي الأردن، إزاء كلّ الطرف الشرقي لإمارات الفرنج. ولم يبق في سوريا الإسلامية، سوى بضعة إمارات صغيرة مثل شيزر، حافظت على استقلالها. كانت ممتلكات الفرنج تفوق في المساحة والثروة ممتلكات نور الدين، لكن ميزة نور الدين كانت توحيده هذه الممتلكات تحت زعامة سيّد واحد. والواقع ان نجمه أخذ في الصعود، غير أنه كان من شدّة الحذر ما منعه من المضي في ملاحقة انتصاراته، إذ يبدو أنه أكّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق والقدس. وأنه جدّد السنة ١١٥٦ الهدنة لمدّة سنتين

جديدتين، وذلك عندما دفع ثمانية آلاف دينار، كما كان يفعل مجير الدين. على أن شدّة تحمّله ترجع أساساً إلى تنافسه مع سلاجقة الروم، إذ أراد أن ينتزع منهم نصيبهم في إمارة الرها السابقة.(١)

بعدما توطّد مركز نور الدين في الشمال، التفت إلى الجنوب. ففي شباط ١١٥٧، نقض ملك القدس الهدنة مع الأتابك. وارتكاناً للهدنة جاءت أعداد كبيرة من التركمان بقطعانهم وماشيتهم لانتجاع المراعي الغزيرة القريبة من الحد عند بانياس، فهاجمهم الملك الفرنجي على حين غرّة وساقهم مع ماشيتهم، الأمر الذي أثار نور الدين للانتقام. لم يطل الوقت حتى قضى شيركوه على جماعة من المغيرين الفرنج في البقيعة في عكار، كما أن نصرة الدين، شقيق نور الدين دحر جماعة من الاسبارتية الفرنج قرب بانياس. وفي أيار خرج نور الدين من دمشق لمنازلة بانياس. فألحق شيركوه الهزيمة بقوّة فرنجية صغيرة كانت في طريقها لنجدة القلعة ثمّ لحق بسيّده أمام أسوار بانياس.(٢)

كانت بانياس تقع على حدود بلاد نور الدين، وكانت قريبة جداً بحيث لم يتمكّن أحد من الاقتراب من المدينة أو مغادرتها دون التعرّض للمخاطر إلاّ إذا كان ضمن جماعة مسلّحة بقوّة أو إذا سلك طرقاً سرية.

كانت بانياس في حالة دفاعية جيّدة. وقد جمع الفرنجة في داخلها كميات كبيرة من المؤن والأسلحة وحامية من الجنود قوية. في شهر أيار ١١٥٧، كانت قوّة فرنجية وبحوزتها قافلة لوجستية من الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحمّلة بالمؤن، متجهة نحو بانياس لتزويدها بكلّ ما تحتاجه من المؤن، للصمود فترة زمنية طويلة في وضعية الدفاع ضد المسلمين المغيرين بين الفينة والفينة للقضاء

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥١.
- ابن القلانسي، المرجع السابق، ص ٣٢٢ - ٣٢٧.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٢.
- وليم، المرجع السابق، ص ٤٨٣.

عليها، ومع اقترابهم من بانياس، انقضّ عليهم شيركوه بقواته التركمانية، فمزّق شملهم بالسيف وقتل عدداً كبيراً منهم وهرب من بقي على قيد الحياة، وأسر واستولى على هذه القافلة اللوجستية بما تحمله من مؤن ومعدّات.[1]

هذا النجاح شجّع نور الدين على محاصرة بانياس حيث كانت الكارثة قد أنهكتها. فاستدعى فرسانه التركمان ونقل منجنيقاته وعراداته إلى المدينة وظهر فجأة أمام أسوارها. فوضع قواته في دائرة حولها، وبدأت عمليات الحصار للمدينة وكانت قلعتها تبعد حوالى الثلاثة آلاف متر، وكانت مجهّزة بشكل جيّد بالأسلحة والرجال والمؤن تكفي لمدّة قصيرة من الزمن، وكانت ملاذاً[2] للسكان حتى وإن تمّ الاستيلاء على المدينة. وكان الأهالي على ثقة تامة بالمخطط الدفاعي لمدينتهم لا سيما وأنهم كانوا قد تحمّلوا مراراً هجمات مشابهة.

هاجم نور الدين بقصف المنجنيقات والعرادات والآلات القاذفة، وواصل في الوقت نفسه قذف وابل مستمر من النبال بحيث لم يترك للمدافعين أية راحة، فالقتال كان مستمراً ليلاً نهاراً على مدى الأربع والعشرين ساعة مما وضع الأهالي والمدافعين على السواء في حالة إعياء مضني، فقُتل الكثيرون أو أصيبوا بجراح مميتة، ولم تبق إلاّ قلّة من الرجال لمتابعة الدفاع.[3]

في نهار الاثنين ظهراً في ٢٠ أيار ١١٥٧، بينما كان الزنكيون يشدّون الخناق بعنف أكثر من المعتاد، فتح المحاصرون باب المدينة وانقضّوا على رجال نور الدين، دون أن يأخذوا الحيطة المناسبة، فطوّقهم شيركوه بخيالته واندفع نحوهم في فجر الثلاثاء ٢١

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٨٤٤.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥.
- ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.
(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.
(٣) وليم، المرجع السابق، ص ٨٤٥.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

أيار، فحاول السكان الانسحاب إلى داخل بانياس بعدما عجزوا عن المحافظة على مواقعهم خارجها، وتعذّر عليهم إغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد الزنكي للدخول، واختلط التركمان مع سكان المدينة وأصبحوا في الداخل بحيث تمّ الاستيلاء عليها بالقوّة. وأشعلوا النار في أسفل بانياس وحدثت مذبحة مرعبة ضد الأهالي. هرب الأمير اونفروا مع بعض مرافقيه والتجأ إلى قلعة الصبية فلحق به نور الدين وحاصره بداخلها.(١) يقول ابن القلانسي واصفاً سقوط المدينة: إن رجال نور الدين تمكّنوا من إنشاء حفرة تحت جدار أحد الأبراج الملغّم وأشعلوا النار فتمّ الانفجار الذي أحدث ثغرة دخل منها رجال نور الدين إلى المدينة(٢) وهذه المقولة هي الأقرب إلى المنطق العسكري.

في هذه الأثناء كان الملك بودوان يتقدّم بسرعة باتجاه بانياس، حاملاً معه الأرزاق والمؤن والأسلحة والعتاد، وكان مصمماً على رفع الحصار. فوجىء نور الدين بهذا التقدّم السريع، فأعطى أمراً لرفع الحصار، لأنه لم يكن راغباً بالاعتماد على فرص القتال غير المؤكّدة العواقب. ثمّ انسحب مع قواته إلى غابة قريبة منتظراً نتيجة الاحداث ثمّ استدعى قوات كبيرة لموافاته إلى تلك المنطقة.(٣)

دخل الملك الفرنجي إلى بانياس دون قتال ووزع المؤن على الأهالي الموجودين هناك وأعطى أمراً بإصلاح السور والأماكن المتضرّرة، وباعتقاده أن نور الدين انسحب نهائياً إلى دمشق. أبقى بودوان مشاته في بانياس وخرج هو مع خيالته عائداً إلى منطقة الجليل. ولدى وصوله إلى الملاّحة، شمالي

---

(١) يذكر ابن القلانسي ان اونفروا عرض الاستسلام، شرط السماح له ولجنوده الموجودين في القلعة بالانسحاب بأمان، فرفض نور الدين. لكن وصول ملك القدس بودوان أنقذه.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

(٣) وليم، المرجع السابق، ص ٨٤٦ – ٨٤٧.

– نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٠ – ٥١١.

غربي بحيرة الحولة، توقّف فيها وسرّح قسماً من قواته. كان مخبروا نور الدين قد أبلغوه بهذا الشيء فجمع خيالته وانطلق بسرعة نحو الجنوب على طول الضفة اليسرى لنهر الأردن الذي اجتازه ونصب كميناً في مخاضة يعقوب حيث كان الفرنج مجبرين على المرور من هناك. وفي ١٩ حزيران وصل الصليبيون إلى المخاضة ووقعوا في الكمين الزنكي، فقتل البعض واستسلم البعض الآخر وتمكّن الملك مع عشرات من قواته الافلات بأعجوبة والوصول إلى قلعة صفد القريبة من هناك بانتظار المسلمين الذين لم يخسروا سوى عنصرين فقط.(١)

أسرع بودوان إلى عكا عندما وجد نفسه على مسافة مناسبة من قوات نور الدين، يرافقه العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه إلى قلعة صور ومع بعض الذين كانوا قد نجوا من أخطار اليوم السابق.

في ٢٤ حزيران، وصلت قوات نور الدين إلى شوارع دمشق، بموكب ضخم يتقدّمه حاملوا رؤوس الفرنج ووراءهم الأسرى المكبّلين بالسلاسل الحديدية اثنين اثنين حاملين أعلامهم المنكّسة ثمّ قوافل الغنائم والمسلوبات.(٢) وكان ذلك بعد خمسة أيام من المعركة.

بعد انتصار نور الدين في مخاضة يعقوب، عاد الاتابك ثانية لمهاجمة بانياس، لأنه كان توّاقاً لمواصلة تحقيق نجاحاته، فقد استدعى كتائبه مجدداً وأمر بجمع قوات كبيرة من دمشق والمناطق الخاضعة لسيطرته. وصل إلى بانياس وضرب الحصار عليها مجدداً ووضع مجانيقه وعراداته وجميع آلاته الحربية في مواقع استراتيجية، فهزّت الضربات القوية للقذائف الحجرية الأبراج وأضعفت الأسوار وتساقط في الوقت نفسه وابل من النبال والسهام، منع المقاومة كلّها من جانب

---

(١) وليم، المرجع السابق، ص ٨٤٦ – ٨٤٧.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٠ – ٥١١.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١١.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٤٨ – ٨٤٩.

المدافعين. فانسحب القسم الأكبر من الأهالي إلى القلعة خوفاً من الوقوع ثانية في أيدي رجال نور الدين.(١)

ما ان علم ملك الفرنجة بالحصار الجديد، حتى أرسل يستدعي أمير انطاكية وكونت طرابلس للاسراع لنجدة المدينة بدون تأخير، وأرسل الملك المنادين لاستدعاء القلّة الباقية من الفرسان في المملكة. وصل الأميران مع قواتهما إلى معسكر الملك في هونين القريبة من بانياس وتدعى عين البلاطة، في زمن قصير نسبياً، وبشكل أسرع مما كان يتوقّع بالفعل. لقد توحّد الآن، الفرنجة ضد نور الدين - الملك بودوان ورينولودي شاتيون أمير انطاكية وريمون الثالث كونت طرابلس.(٢)

أمام هذا الجمع القوي من قوات الفرنجة، فضّل نور الدين فكّ الحصار والعودة إلى دمشق في التاسع من آب ١١٥٧. بعد ذلك عجّل بالمسير إلى حلب لأن أنباءاً وردت إليه مفادها أن السلطان قلج أرسلان يعدّ هجوماً على أملاكه في الشمال.

لقد حاول نور الدين، قبل فكّ الحصار، الدخول في مفاوضات مع بودوان الذي، شعر بأنه الأقوى، فلم يكترث إلى ذلك لا بل أوقف كلّ محاولة في هذا الصدد.(٢)

٤ - الفرنج يغزون في الشمال وينتصرون ونور الدين يثأر (١١٥٧ - ١١٦٤)

٤١ - توطئة:

إلى جانب الأسباب التي ذكرناها سابقاً، هناك أسباب أخرى جعلت نور الدين يتجنّب الاشتباك في الحرب ضد الفرنج في تلك الآونة. ففي أوائل خريف ١١٥٦، أحسّ الناس في سائر أنحاء بلاد الشام بوقوع هزات أرضية متعدّدة ولم تتعرّض دمشق لأضرار خطيرة، غير أن أنباء الدمار

(١) وليم، المرجع السابق، ص ٨٥٠.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٢.
(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٢.

وردت من حلب وحماه، بينما انهارت الباشورة من تحصينات أفاميا. وفي تشرين الأول وتشرين الثاني، وقعت هزات جديدة، أضرّت بشيزر، وتأثّرت جزيرة قبرص والمدن الساحليّة شمالي طرابلس بما وقع في أثناء الربيع التالي من هزات. على أن وادي نهر العاصي تعرّض في آب ١١٥٧ لهزّة عنيفة ولقي عدد كبير من الناس حتفهم في حمص وحلب. وبلغ الضرر في حماه من العنف ما حمل المؤرّخين على أن يطلقوا على الزلازل إسم «زلزال حماه».(١)

أما في حلب فقد انهار عدد من أبراج القلعة وهرب الناس إلى الجبال المحيطة. وفي حران، في أقصى الشمال، حصل صدع كبير في الأرض، بان من خلاله أطلال آثارات قديمة. أما التدمير الأهم فقد حصل في وادي العاصي: ففي حمص حصلت أضرار بالغة في قلعتها، والزلزال لم يوفّر كفرطاب وبارن ومعرة النعمان. أما في شيزر، فقد حصل دمار كبير للغاية. فبينما كان أفراد أسرة بني منقذ يحتفلون في قلعتها بختان ابن الأمير تاج الدولة بن أبو العساكر ابن منقذ، انهارت أسوار القلعة عليهم، ولم ينج من كلّ أفراد الأسرة إلاّ أميرة شيزر التي جرى إنقاذها من بين الانقاض، فضلاً عن شخصين كانا غائبين هما: شرف الدولة ابن سلطان والأمير أسامة الذي كان غائباً في مهمة دبلوماسية.(٢)

لقد انصرف كلّ من المسلمين والفرنجة إلى إعمار ما تخرّب من القلاع، فكفوا فترة من الزمن عن التفكير بالقيام بحملات حربية.

٤٢ - الهجوم الفرنجي في الشمال:

فعلاً لقد كان الفرنجة يطمحون خاصة بالاستيلاء مجدداً على المنطقة الوسطى من

---

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٣ - ٥٥٤.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٢.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٣ - ٥١٤.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٤.

العاصي حيث لا تستطيع شيزر أو أفاميا الصمود أمام هجوم كبير فالسيطرة عليهما يمكّنهم من من إنشاء رأس جسر فرنجي على الضفة اليمنى للعاصي وتهديد فعلي لمدينتي حمص وحماه.

في شهر تموز ١١٥٧، نزل في بيروت، سائحاً وحاجاً، للمرة الثالثة، كونت فلاندر، تياري دالزاس. وبفضل التعزيزات التي وصلت معه، تمكّن الفرنج من تعويض الخسائر التي منيوا بها في مدينتي أناب وبانياس، حيث كان المسلمون قد أسروا عدداً كبيراً من فرسانهم.(١)

وبدون أي إنذار، جمع ملك القدس بودوان ورينو دي شاتييون وريموند الثالث كونت طرابلس وتياري دالزاس قواتهم في إمارة طرابلس وأقاموا معسكرهم في منطقة قريبة من حصن الأكراد، وقرّروا القيام بهجوم باتجاه العاصي وقد اختاروا هدفاً رئيسياً قلعة روج الواقعة إلى الشرق من العاصي، جنوبي شرق جسر الشوغر، في مقاطعة الغاب الخصبة. وهذه القلعة كانت تسيطر على معرّة النعمان وتدافع عنها حامية إسلامية حازمة، وقد صمدت بقوّة للاقتحام الفرنجي.(٢)

٤٣ - ردّة فعل نور الدين على الهجمة الفرنجية:

في الأول من آب ١١٥٧، ترك نور الدين مدينة دمشق وانتقل إلى سوريا الشمالية، بعدما تنامت إليه أخبار عن تجمّع للفرنج في كونتية طرابلس، عدا عن تهديد السلطان قلج أرسلان بمهاجمة أراضي نور الدين في الشمال. وخارجاً عن الأسباب السياسية والمسائل العسكرية البحتة التي تدعوه إلى القيام بما قام به، كان على نور الدين أن يرمّم تحصيناته التي دمّرها الزلزال. ويبدو أن الأتابك كان في حمص عندما وقعت الهزة العنيفة في آب. وكان هناك يحاول تجنيد العدد الكبير من المقاتلين لمجابهة الفرنجة الذين يحاصرون قلعة الروج. وما أن اقترب جيش نور الدين وفصائل الخيالة التركمان التابعة له، حتى تخلّى الفرنج عن حصار

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٥.

(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤١٦.

القلعة المذكورة، وراحوا يفتّشون عن هدف أكثر سهولة للهجوم عليه وذلك بناء على توصيات رينو دي شاتيون. وفي هذه الأثناء، ظهر حدث غير متوقّع هو مرض نور الدين.[1]

٤٤ - مرض نور الدين (تشرين الأول ١١٥٧):

في تشرين الأول ١١٥٧، وبعد شهرين على عودة نور الدين من بانياس، دهمه في سرمين مرض خطير. وإذ ظنّ أنه مائت، أصرّ على أن يُحمل في محفة إلى حلب - القلعة. وهناك وضع وصيّته، التي تقضي بأن يخلفه أخوه نصرة الدين في كلّ أملاكه[2] والذي برز في أثناء حصار بانياس وبانت شخصيته العسكرية القوية، وعلى أن يتولّى أسد الدين شيركوه حكومة دمشق كممثل للحاكم العسكري لها. هذه الترتيبات ستخدم الأيوبيين لدعم آمالهم وطموحاتهم في تولي دمشق فور وفاة العاهل الزنكي.[3]

في نهاية تشرين الثاني، ترك شيركوه عاهله المريض، وانتقل إلى دمشق للسهر على حماية المدينة من هجومات الفرنجة المحتملة. لكن شقيقه نجم الدين أيوب نصحه بالعودة إلى حلب حيث وجوده سيكون مهماً في حال شفي نور الدين من مرضه. فهذه الترتيبات ستعطي حماية أفضل لمصالح الأسرة الأيوبية في دمشق.[4]

ترك الامير الزنكي الشاب نصرة الدين معسكره في زاردانا، القريب من قلعة الروج وسرمين على طريق انطاكية حلب ودخل إلى حلب استعداداً لتسلّم الارث، فلقي الأبواب موصدة في وجهه بناء لأوامر حاكمها العسكري ابن الداية. فوقعت اضطرابات في شوارع المدينة، لم تخمد إلاّ بعد أن تمّ استدعاء أعيان حلب إلى مخدع

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٦.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٤ - ٥٥٥.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٤١٧.
(٣) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٧.
(٤) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٩.

نور الدين في القلعة، فتحققوا من أنه ما زال على قيد الحياة. ومضت هذه الأزمة، وأخذ العاهل الزنكي يتماثل للشفاء ببطء، غير أنه فيما يبدو فقد شيئاً من الاقدام والنشاط. فلم يعد المحارب الذي لا يقهر. على أن قوى أخرى أخذت تظهر في بلاد الشام لتتحكّم في الموقف.(١)

٤٥ - الفرنج يهاجمون شيزر وحارم (١١٥٧ - ١١٥٨):

أوجد مرض نور الدين الذي عقب كارثة الزلزال، وضعاً ملائماً للفرنجة. فالحقيقة أن القوات الإسلامية التي بقيت موحّدة تحت قيادة نور الدين، تشرذمت وهبطت معنوياتها وحلّ الاضطراب في معسكرها.

ويبدو أن مرافقيه أهملوه وتخلّى عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته، وأهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز، وباتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء، وعلاوة على ذلك، ذكر أن الجنود الباكين بحزن عميق قد تفرّقوا باضطراب كبير وفوضى شديدة وكان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه، ولم يبق معه إلاّ رجاله المخلصون جداً.(٢)

أدرك الفرنجة لدى تلقّيهم هذه الأخبار عن أحوال عدوّهم، أن جميع الأشياء كانت تتفاعل مع بعضها بعضاً لتحقيق نجاح مشروعهم، فاتصلوا بطوروس الكليكي، الأمير الأرمني القوي ودعوه للانضمام إليهم في مشروع وعدوه انه سيكون مثمراً جداً. وافق الأمير وجمع على الفور جيشاً كبيراً وانتقل بسرعة قصوى نحو انطاكية. ولدى وصوله، زحفت القوات الفرنجية المشتركة نحو شيزر.(٣)

تقع شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجري بمحاذاة انطاكية، وتقع قلعتها في الجزء

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٥٤ - ٥٥٥.
- غروسيه، مرجع سابق، ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) وليم، المرجع السابق، ص ٨٥٢.

(٣) وليم، مماثل، ص ٨٥٣.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥١٩.

الأعلى منها، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها إلاّ أنها ضيّقة نوعاً ما. وهي محصّنة بشكل جيّد. فبالإضافة إلى دفاعاتها الطبيعية، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميها المدينة من جانب آخر بحيث يتعذّر بلوغها على الإطلاق. وشيزر تقع على مسافة نصف يوم سير من حماه إلى الغرب.

إن الاستيلاء على شيزر يسمح للفرنجة بالسيطرة على الطرقات التي تصل حلب بدمشق.

فوجىء أهالي شيزر بوصول الفرنجة إليهم، لأنهم لم يكونوا على اطلاع على مرض نور الدين. كانت مقاومتهم ضعيفة فوقع مركز الجسر القائم على العاصي، بسرعة بيد قوات التحالف[1] وكان يسمى «جسر بني منقذ». أما المدينة والقلعة فقد حاصرهما الفرنجة ومعهم آلات الحرب المتعدّدة، من مناجيق وعرادات وسلالم من الحبال. وكانت قوّة، من الاسماعيليين، الذين كانوا قد أتوا من مصياف، تدافع عن القلعة منذ وقوع الزلزال السابق.

بدأ الحصار ونصب الفرنجة في الخارج آلاتهم الحربية والمناجق وحاولوا أن يلحقوا بالأهالي كلّ ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوّة المدافعين بشدّة ومشقّة متواصلة، ورغب كلّ واحد من القادة الفرنج أن يكون أول من يقتحم المدينة، وقد سعى ليحقق لنفسه الفخر لكونه أول من يدخلها، وأحدثوا بها لهذا السبب دماراً ذريعاً إلى حدّ أن الموت بدأ يهدّد سكان المدينة من كافة الاتجاهات.[1]

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة، وكان اهتمامهم موجهاً نحو التجارة إلى أبعد الحدود. لم يتمكّنوا من تحمّل أعباء الحصار ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة، فقد استسلموا بعد بضعة أيام تحت الضغط المستمر لمهاجميهم واقتحم الفرنجة التحصينات واندفعوا إلى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوّة، فتراجع الأهالي إلى القلعة وتخلّوا عن كلّ ما كان قد بقي في المدينة السفلى. فوقع السلب والنهب لعدّة

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٢١.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٥٣.

أيام. بعدها كادت القلعة الخربة أن تستسلم لولا حدوث شجار بين الفرنجة الذين يحاصروها.(١) لسبب تافه لكنه مزعج للغاية، ذاك أن بودوان، ملك القدس، كان قد وعد بإعطاء المدينة إلى كونت فلاندر لتكون له إمارة وراثية تتبع للقدس. على أن رينالد (ارناط) الذي زعم أن بني منقذ كانوا يؤدّون الاتاوة لإنطاكية، طلب إلى كونت فلاندر ان يكون ولاؤه له فقط. عند ذلك لم يسع بودوان أن يحلّ المشكلة إلاّ بالتخلي عن المدينة وما حولها. تحرّك الجيش الفرنجي نحو الشمال ليحتل خرائب افاميا ثمّ يلقي الحصار على حارم، التي اذعنت في شباط ١١٥٨، بعد أن تعرّضت للقذائف الشديدة من المناجيق وقتل قائدها وتقرّر إعطاءها بعد فترة صغيرة إلى أحد أمراء أرناط الذي تولاها باسمه. بعد هذا الانتصار، تفكّك التحالف وعاد كلّ واحد إلى بلاده.

٤٦ - تحرّك نور الدين وأسره أرناط (١١٥٨ - ١١٦٠):

في آذار ١١٥٨، توجّه بودوان بحملة إلى أطراف دمشق ثمّ قام مع كونت فلاندر، بزحف مفاجىء على دمشق نفسها، وفي نيسان، فرضا الحصار على قلعة داريا بضواحيها. وإذ استعاد نور الدين عافيته، قرّر اتخاذ كافة التدابير اللازمة للدفاع عن ممتلكاته ضد الفرنجة إن كان في الشمال أو في الجنوب. لذلك ترك حلب واتجه نحو دمشق. فعرّج على شيزر وأعطى تعليماته لرفع الأنقاض منها. ولكي يربح عاطفة الشعب، ألغى عدداً من الضرائب وكلّف مجيد الدين، ممثّله في حلب، أن يكون الحاكم عليها، ثمّ تابع طريقه نحو دمشق التي دخلها في السابع من نيسان حيث أخذ قلعتها مركزاً له ولقيادته. بعدها راح يعيد تجميع قواته استعداداً لحملة جديدة ضد مملكة الفرنج في القدس،(٢) خاصة بعدما علم

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٦٣.
- وليم، مرجع سابق، ص ٨٥٤.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٢١.

(٢) نيكيتا، مماثل، ص ٥٢٥.

بالمفاوضات بين بودوان والإمبراطور البيزنطي والتي كانت تشغل تفكيره.(١)

وبينما كانت الاستعدادات العسكرية على وشك الانتهاء، قام أسد الدين شيركوه، يرافقه شقيقه نجم الدين أيوب، حاكم دمشق، بالإغارة، في ١ نيسان، على أراضي صيدا. وكانت مهمة الفرسان التركمان، منع كلّ تجمّع للفرنج، يمكنه إزعاج تقدّم نور الدين باتجاه الجنوب. نصب شيركوه كميناً في تلك الناحية وأسر عدداً كبيراً من الصليبيين، بينهم ابن قائد حارم، رينو دي سان فاليري، وكانت خسارته قتيلاً واحداً من المسلمين.(٢)

في الحادي عشر من أيار ١١٥٨، ترك نور الدين مع جيشه، مدينة دمشق وبحوزته كمية كبيرة من عتاد الحصار، وسار باتجاه جسر الخشب، بقعة تجمّع القوات المغيرة باتجاه الجنوب. ومن هناك سار نحو الجولان في جنوبي بانياس، لإلقاء الحصار على قلعة تل حبيس، وهي كناية عن كهف يقع على جانب هضبة مرتفعة وشديدة الانحدار. ولم يكن هناك أي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلى أو من الأسفل إلاّ من الجانب بواسطة سليل ضيّق وخطر على طول جرف. وكان الفرنجة قد حصّنوها بشكل ممتاز وبنوا في داخلها غرف للنوم وفيها التجهيزات اللازمة للقاطنين بداخلها. وكان يوجد بقربها نبع ماء غير ملّوث يستعمله رجال الحامية والجوار. وهذه القلعة تقع على الضفّة اليسرى لنهر اليرموك وتشرف على الجولان وتراقب كلّ تقدّم عبره.(٣)

منذ بدأ الحصار، اعلم رجال الحامية، فرنجة القدس بأنهم لا يمكنهم المدافعة إلاّ لمدّة عشرة أيام على الأكثر. وبانتظار النجدات،

---

(١) نيكيتا، مماثل، ص ٥٢٥.

(٢) نيكيتا، مماثل، ص ٤٢٦.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٦٦.

(٣) وليم، مرجع سابق، ص ٨٥٨.

- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٢٦.

- رينسمان، مرجع سابق، ص ٥١٦.

وبعد أن تعرّضت القلعة لضغط بلغ من الشدّة أنها وافقت على القيام بمفاوضات مع المسلمين وكانت الحامية على وشك الاستسلام.(١)

علم بودوان بهذا الحصار، فجمع قواته على الفور وأسرع إلى هناك يرافقه كونت فلاندر، غير أنهما اتخذا الطريق الذي يقع شمالي بحيرة طبريا ويؤدّي إلى دمشق، بدلاً من التوجّه إلى القلعة مباشرة. خاف نور الدين أن يقطع الفرنج عليه خطوط قواعده، فاستمع إلى نصيحة شيركوه، وزفع الحصار عن القلعة واتجه نحو جسر بنات يعقوب على أمل مفاجأة الفرنجة. نصب الصليبيون كميناً شمالي شرقي بحيرة طبريا، في سهل البقيعة، وما ان رأوا المسلمين حتى هاجموهم، بعد أن اعتقدوا انهم كشافة نور الدين.(٢)

وقعت المعركة في ١٣ تموز، في يوم شديد الحر وكانت المبادرة بيد بودوان. قاوم جيش نور الدين بشراسة، وشنّ هجوماً معاكساً بالسيوف، لكن ضغط الفرنج فعل فعله، فهرب بعض الأفراد من جراء وابل من السهام والنبال الفرنجية. وبلغ الباعث عند الفرنج على القتال من القوّة ما هزّ قوّة الزنكيين. وإذ لا زالت صحة نور الدين ضعيفة، جرى إقناعه بأن يغادر ساحة القتال، وما ان رحل حتى انسحب جيشه في اضطراب وخلل.(٣) بعد أن أصيب بخسائر فادحة وجسيمة. خاف الملك بودوان من حيلة لنور الدين، فلم يعط أمراً لقواته للقيام

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٨٥٨.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٢٦.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٦٦.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥١٦.
- غروسيه، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) رنسيمان، مماثل، ص ٥٦٦.
- وليم، مماثل، ص ٨٥٩.
- نيكيتا، مماثل، ص ٥٢٧.

بعملية المطاردة لاستغلال النجاح. أوقف نور الدين انسحابه والتحق بقواته وعقد هدنة مع الفرنج دون أن يمهرها بتوقيعه. عاد الزنكيون إلى دمشق. ولم يقع في بضع سنوات تالية على الحدود السورية الفلسطينية شيء من الحروب أو الغزوات الخطيرة. وأضحى بوسع كلٍّ من بودوان ونور الدين أن يوجّه اهتمامه لصعوبات مختلفة بدأت تذرّ قرنها في شمالي بلاد الشام.(١)

في عام ١١٦٠، عاد بودوان من الشمال إلى القدس، وقام ببعض الغارات على منطقة دمشق، بعد أن أفاد من انصراف نور الدين إلى أمور الشمال. وفي تشرين الثاني ١١٦٠، حدث ان الحركة الموسمية لقطعان الماشية من جبال اللكام إلى سهل نهر الفرات، أغرت أمير انطاكية، رينو (ارناط)، على أن يغير على وادي العاصي. وفي أثناء عودته، اضطرّ أن يسير ببطء بسبب قطعان الماشية والابل والأفراس التي ساقها أمامه فوقع في كمين نصبه له والي حلب مجد الدين، الذي تربّى مع نور الدين، واستبسل أرناط في القتال، غير أن القوات الإسلامية تفوّقت في العدد على رجاله، فأسقطوه عن جواده وأسروه وقيّدوه بالسلاسل واقتادوه إلى حلب بطريقة مخزية للغاية. وقد بقي مسجوناً في حلب فترة ستة عشر سنة، دون أن يتقدّم أحد من الفرنجة لافتدائه بالأموال. وقد التقى في سجنه بجوسلين صاحب الرها السابق، الذي وقع أسيراً بيد رجال نور الدين قبل بضعة شهور، أثناء غارة قام بها.(٢)

٤٧ - فشل نور الدين أمام حارم (١١٦٢):

بعد عودته من الحج، أخبر نور الدين عن مخططات الفرنجة للتدخّل عسكرياً في مصر. وعلم أيضاً أن الوضع في انطاكية لا يزال

---

(١) نيكيتا، مماثل، ص ٥٢٨.
- غروسيه، مرجع سابق، ص ١٥٢.
(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٥٢.
- رنسيمان، مماثل، ص ٥٧٧ - ٥٧٨.
- وليم، مماثل، ص ٨٦٨ - ٨٦٩.

مرتبكاً ومشوّشاً، وأن إمارة طرابلس لا يمكنها أن تبدّل موازين القوى لصالح الفرنجة فيما لو أرسلت نجدة إلى انطاكية. فالقوّة الوحيدة التي كان بإمكانها التدخّل الفعلي وقلب التوازن لصالحها، هي قوات ملك القدس الذي لا يستطيع المجازفة، لأنه على وشك التدخّل في مصر ضد الفاطميين. أمام هذا الواقع قرّر نور الدين الشروع بعمليات تحويل أنظار في الشمال آملاً أن يكبح العملية العسكرية التي سيقوم بها ملك القدس ضد الفاطميين.(١)

ففي نهاية عام ١١٦٢، وبينما كان الملك الفرنجي بودوان، يعاني، في طرابلس من مرض خطير، جمع نور الدين في حلب جيشاً كبيراً، انضمّ إليه الأمير أسامة بن منقذ، وسار به إلى حارم حيث ألقى الحصار عليها، وكانت بيد الفرنج.

أمام هذا الواقع جمع الفرنجة في انطاكية قوات كبيرة من البيزنطيين والفرنج والأرمن وساروا نحو المدينة المحاصرة. وما ان اقتربوا من حارم حتى أرسل نور الدين يفاوضهم على أن تكون المعركة معبأة بين الاثنين. حاول قادة الفرنج أن يربحوا وقتاً، فأجابوا الزنكيين بعروض الصداقة والأخوّة. لم يكن أحدٌ من الخصمين متأكّداً بربح المعركة فيما لو وقعت بينهما. ذاك أن الطقس كان ممطراً للغاية والوحول تغطي الأرض، ولا مجال للقيام بعمليات عسكرية في مثل هذه الظروف الصعبة، كما أن الخيالة لا يمكنها ان تقوم بمناوراتها بشكل فعّال وأكيد. وخوفاً من وصول تعزيزات جديدة للفرنج، قرّر نور الدين أن يفك الحصار عن حارم. لأجل ذلك فاوض الفرنج على الانسحاب المتوازن لقوات الطرفين، وتمّ له ما أراد. وهكذا أنقذت المدينة وبقيت في يد الصليبيين. في طريق العودة، حاصر نور الدين قلعة ارزخان، تلك القلعة التي كانت تسيطر على جسر الشوغر، المعبر الوحيد على العاصي للطريق المؤدّية من انطاكية إلى طرابلس. لم يطل الوقت حتى استسلمت القلعة فدمّرها الزنكيون نهائياً.(٢)

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٦٠.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٦٠.

٤٨ - هزيمة نور الدين في البقيعة (أيار ١١٦٣):

حدث السنة ١١٦٠، أن هدّد الملك بودوان III بغزو مصر، ولم يمنعه من ذلك إلاّ ما حصل عليه من وعد بأن يؤدّي له الخليفة الفاطمي اتاوة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار. على أن هذه الاتاوة لم يجرِ دفعها مطلقاً، فاتخذ ملك القدس اموري، الذي حلّ مكان بودوان من ذلك ذريعة ليهبط فجأة على مصر في أيلول ١١٦٣ ويلقى الحصار على الفرما بعد السويس، لكنه أجبر على الانسحاب.(١)

بعد فشله أمام حارم في نهاية عام ١١٦٢، حاول نور الدين أن يقوم بهجوم ثاني ضد الفرنجة. فراقب ما حدث من تدخّل اموري في أمر مصر، فاغتنم فرصة غيابه، وقرّر مهاجمة إمارة طرابلس، الأضعف بين الدويلات الفرنجية الثلاث. لقد أمل نور الدين بفتح منفذ على نحو وغزو الإمارة الشيعة لبني عمار.

في ربيع ١١٦٣، جمع نور الدين قواته وأغار على البقيعة، بهدف محاصرة حصن الأكراد الذي كان يشرف على السهل الضيّق، ومن ثمّ مهاجمة إمارة طرابلس.(٣) لقد أهمل نور الدين في توقّعاته، الأخذ بعين الاعتبار التعزيزات التي وصلت بحراً إلى الفرنجة في طرابلس. لقد تصادف بأن هيو كونت لوزينيون وجوفروا مارتل، كانا يجتازان طرابلس مع رجالهما عائدين من القدس بعد تأدية الحج، فانحازا إلى ريموند كونت طرابلس، وكذلك الفرسان الفرنج الذين كانوا عائدين من القدس إلى انطاكية. وترتب على الاستنجاد العاجل بانطاكية أنه لم يأتِ بوهيمند أميرها فحسب من الشمال، بل جاء أيضاً القائد البيزنطي كولومان مع

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٦٠.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٩٢.

(٣) نيكيتا، مماثل، ص ٥٧٤.

- رنسيمان، مماثل، ص ٥٩٣.

قواته(١) للمشاركة بالهجوم على القوات الزنكية.

لقد حافظ الفرنج على سر توقيت الهجوم ومحور التقدّم والجهدين الرئيسي والثانوي لذلك كانت المفاجأة تامة ودفع نور الدين الثمن للتيه الكبير الذي كان يشعر به ازاء انتصاراته، فقد حوّله إلى إنسان مهمل إلى حدّ ما.

في يوم من شهر أيار، وعند الظهيرة، بينما كان رجال نور الدين يستريحون في معسكرهم، وقت القيلولة، تحت خيمهم، وبينما كان الحراس والخفراء مرهقين من جراء الحرارة المرتفعة، «لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً، فإنهم يكونون آمنين، فركبوا من وقتهم، ولم يتوقّفوا حتى يجمعوا عساكرهم، وساروا مجدّين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلاّ وقد اقتربوا منهم، فأرادوا منعهم، فلم يطيقوا ذلك، فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال، فزهقهم الفرنجة بالجملة، فلم يثبت المسلمون، وعادوا يطلبون عسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معاً إلى العسكر الزنكي، فلم يتمكّن المسلمون من ركوب الخيل، وأخذ السلاح».(٢) فأكثروا القتل والأسر... «فلم يبقوا على أحد... وقصدوا خيمة نور الدين، وقد ركب فرسه، ونجا بنفسه، ولسرعته، ركب الفرس والشبحة في رجله، فنزل إنسان كردي وقطعها، فنجا نور الدين، وقتل الكردي». لقد أبيد جيشه بالفعل وقد تخلّى نور الدين عن جميع أمتعته وحتى عن سيفه ونجا بصعوبة من الوقوع بالأسر في يد الفرنجة... وكان عاري القدمين.(٣)

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٧٤.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٣.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٨٨.
(٢) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.
(٣) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٧٥.
- ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٤٦٣.

تابع نور الدين سيره حتى وصل إلى بحيرة قادش، بالقرب من حمص، «وبينه وبين المعركة أربعة فراسخ، وتلاحق به من سلم من العسكر».(١) وقد اشتهر في هذه المعركة كولومان حاكم كيليكيا وجنوده بما بذلوه من البلاء في القتال. في حمص أعاد نور الدين تنظيم صفوف الجيش وتلقّى التعزيزات فتخلّى الفرنجة عن مطاردته واستغلال النجاح.(٢)

بعد نكسة البقية، كان همّ نور الدين الرئيسي إعادة تنظيم جيشه، فأعاد جمع الناجين من عسكره وطلب التعزيزات والمساعدات من الأصدقاء والأقارب ومن سائر الأنحاء، واضعاً نصب عينيه «الأخذ بثأر الاسلام»، فأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل من حلب ودمشق.(٣) وقد عوّض على كلّ جندي ما كان قد فقده أثناء القتال وأعطاه مبلغاً من المال، وعوّض على عائلات القتلى والجرحى وذلك كي لا يشعر أي مقاتل أن دفاعه ذهب هدراً وكذلك، فكلّ من قُتل أعطى اقطاعه لأولاده. «ثمّ إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون الصلح، فلم يجبهم، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم».(٤)

٤٩ - نور الدين يثأر في حارم وبانياس (١١٦٤):

أ - الاستيلاء على حارم (آب ١١٦٤):

في بداية العام ١١٦٤، خضعت سياسة نور الدين إلى عاملين اثنين: الرغبة بالثأر عن نكبتي، حارم والبقيعة، والاهتمام لمنع نجاح الفرنجة بالتدخّل في الديار المصرية.

---

(١) الأربعة فراسخ تعادل حوالي العشرين كيلومتراً.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٣.

- نيكيتا، مماثل، ص ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٣) ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٣.

(٤) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٧٨.

بعد عودته مهزوماً من البقيعة، تحت حصن الأكراد، كما ذكرنا، فرّق نور الدين الأموال ونظّم جيشه وزوّده بالمناجيق والعرادات وآلات الحرب، «فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا» وأخذ يستعدّ للجهاد والأخذ بالثأر. وعندما علم بأن ملك القدس توجّه إلى مصر، قام نور الدين ومعه حشد ضخم وآلاف من الفرسان، وهاجم الإمارة الشمالية (انطاكية). فحاصر حارم التي تعتبر معقلها الرئيسي، وانحاز إليه جيش أخيه قطب الدين من الموصل وديار الجزيرة، وجنود فخر الدين أقرّه أرسلان، صاحب حصن كيفا ونجم الدين النبي، صاحب ماردين والأمراء الأراتقة في ديرت وكِر وغيرهم من أصحاب الأطراف.(١)

لدى وصول نور الدين إلى خارم، ألقى الحصار عليها وكانت تعد إحدى قلاع الفرنجة في بلاد انطاكية. ووضع آلاته الحربية حولها بالطريقة المألوفة وبدأ بمهاجمة القلعة بضراوة لم تسمح للسكان بأية راحة خلال الليل والنهار وخاصة قذائف المناجيق التي دمّرت وقتلت ما أمكنها، وبينما كان رينالد سانت فاليري سيّد حارم يدافع بشراسة عن قلعته، دعا بوهمند أمير انطاكية كلاً من ريمون كونت طرابلس وطوروس صاحب أرمينيا وكولومان البيزنطي لنجدته. فخرجوا جميعاً لمساندته في منتصف آب ١١٦٤. فلما سمع نور الدين بقدومهم، رفع الحصار عن حارم وانسحب بجيشه، فعزم بوهيمند اللحاق به بفرسانه البالغ عددهم ستمائة، مخالفاً بذلك نصيحة رينالد سانت فاليري، لأن المسلمين كانوا يفوقونهم عدداً وعدّة.(٢)

وقع الصدام بين الجيشين في العاشر من آب، قرب ارتاح. وإذ تجاهل بوهمند تحذير

---

(١) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٤٦٨.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٦.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٨٨.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٤٩٦.
- ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٨.
- وليم، المرجع السابق، ص ٨٨٩.

طوروس له، بادر بالهجوم، ولما تظاهر المسلمون بالفرار، اندفع وراءهم، فلم يلبث أن وقع في كمين نصبوه له، فأطبق جيش الموصل عليه وعلى فرسانه من كافة الجهات، وهرب من ساحة المعركة طوروس وأخوه مليح، لما اشتهر به من شدّة الحذر. ما بقية الجيش الفرنجي فلم ينج أحدٌ من القتل منه إلاّ من وقع في الأسر وكان من الذين وقعوا في الأسر بعد استسلامهم، بوهمند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس، وقسطنطين كولومان وهيولوزينيان، فجرى ربطهم سوية في الحبال وحملوا إلى حلب بالخزي والعار وألقوا في السجن وأصبحوا محط سخرية المسلمين.[1] ويقول ابن الأثير إن عدد قتلى الفرنج بلغ العشرة آلاف. وقد أشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى انطاكية وتملكها، لخلوّها من «حام يحميها، ومقاتل يذب عنها فلم يفعل وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلّموها إلى ملك الروم، لأن صاحبها ابن أخيه، ومجاورة بيماند أحب إليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية، وبث السرايا في تلك الأعمال، فنهبوها، وأسروا أهلها وقتلوهم».[2] بعدها هاجم نور الدين المعقل واستؤنفت عمليات الحصار من جديد وتمّ الاستيلاء على الحصن بالقوة في غضون أيام. بعدها أطلق سراح كولومان مقابل مائة وخمسين ثوب من الحرير.

ب - الاستيلاء على قلعة بانياس (تشرين الأول ١١٦٤):

بعد انتصاره في حارم، توجّه نور الدين ضد مملكة القدس، منتهزاً الفرصة لوجود قسم من جيشها يحارب على ضفاف النيل. فتقدّم مع قواته لمحاصرة مدينة بانياس. وبانياس هذه مدينة قديمة جداً في

---

(١) رنسيمان، مماثل، ص ٥٩٠ - ٥٩٧.
- وليم، مماثل، ص ٨٨٩.
- ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٩.

(٢) ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٩.

(٣) وليم، مماثل، ص ٨٩٠.

التاريخ «تقع عند قاعدة جبال لبنان المشهورة وكانت تعرف باسم دان خلال العصور القديمة».[١] قبل الوصول إلى المدينة، أطلق شائعات تقول انه يريد طبريا، «فجعل من بقي من الفرنج همّهم حفظها وتقويتها».

وصل نور الدين ونازل المدينة وضيّق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير اميران، فأصابه سهم في وجهه فأطفأ له عيناً من عينيه، «فلما رآه نور الدين، قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك، لتمنّيت ذهاب الأخرى». وجدّ في حصارها[٢] وكان أسقف المدينة متغيّباً عنها، وتناقص عدد السكان إلى حدّ كبير جداً. وكان نور الدين قد نصب مجانيقه والآلات الحربية في مواقع حول المدينة، فألغمت الأسوار وأضعفت الأبراج بسبب سقوط وابل مستمر من الحجارة، ولهذا تمّ الاستيلاء عليها خلال بضعة أيام، وأجبر الناس الموجودون بداخلها على الاستسلام بشرط أن يُسمح لهم بمغادرة بانياس دون مضايقة مع جميع ما كان بحوذتهم، وهكذا استولى نور الدين على المدينة في تشرين الأول ١١٦٤. وكان الفرنجة قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأسرهم، «فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالاً (حامية زنكية)».[٣] وهدّد بالزحف نحو منطقة الجليل ثمّ فرض هدنة على الفرنج. وكما كانت الأمور تجري يومذاك، فقد قاسمهم على عائدات مقاطعة طبريا «وقرّروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها، مالاً في كلّ سنة».[٣]

وما ان علم ملك القدس أموري، باستيلاء نور الدين على حارم وبانياس، حتى رفع الحصار عن بيلياس في مصر وعاد

---

(١) وليم، ج ٥، ص ٨٩٠.

(٢) ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٩.

(٣) ابن الأثير، مماثل، ص ٤٦٩.

- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٩٦:

إلى مملكته المهدّدة. وهكذا بلغ انتصار نور الـديـن هـدفـه الأسـاسـي ألا وهـو: أنـه منـع الفرنج من سحق قائده شيركوه في مصر. ويقول ابن الأثير إن نور الدين «عندما فتح حصن بانياس، كان معه ولد معين الدين انز، الذي سلّم بانياس سابقاً إلى الفرنج، فقال له الأتابك:

للمسلمين بعد الفتح فرصة واحدة ولك فرصتان، فقال: كيف ذاك، قال: لأن اليوم، بردّ الله جلد والدك من نار جهنّم».

الفصل الرابع
السباق بين نور الدين زنكي والفرنجة للاستيلاء على مصر (١١٦٤ - ١١٦٩)

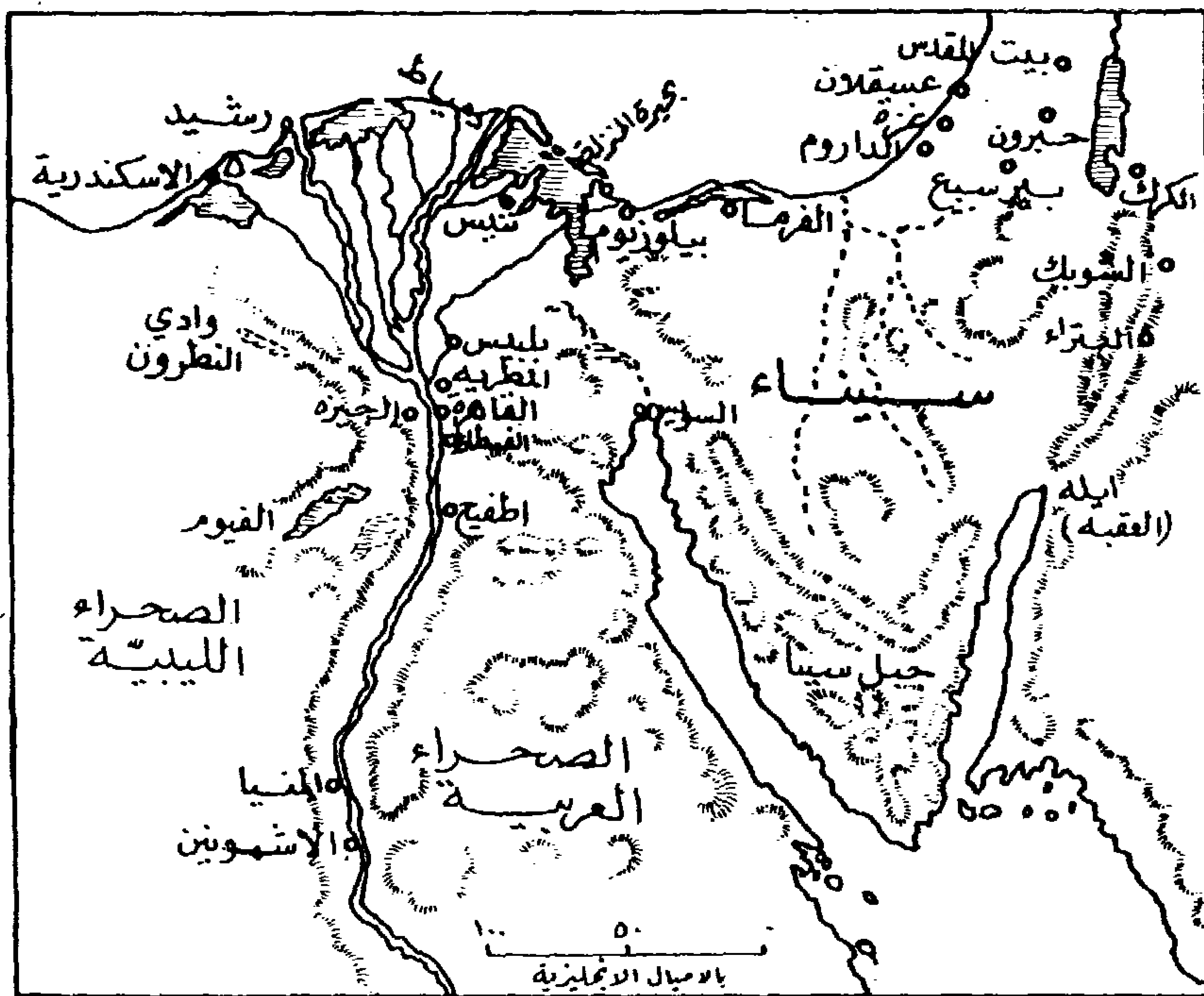
١ - توطئة

الواقع ان النية الطيّبة عند البيزنطيين كانت بالغة الأهمية عند الملك أموري، كي ما يحقق أكبر هدف سياسي له، وهو السيطرة على البلاد المصرية. إذ إن بقاء الإمارات الفرنجية يتوقّف، حسب إدراك الملك السليم، على ما يقع بين جيرانه المسلمين من اختلاف وتفرقة. لقد أضحت سوريا فعلاً متحدة لكن إذا استمرّ العداء بين مصر ونور الدين فالموقف سيكون لصالح الفرنجة. على أن الخلافة الفاطمية أصبحت من الضعف ما يؤذن باقتراب زوالها. والأهم ألاّ تقع في براثن نور الدين، عندها ستكون نهاية الإمارة الفرنجية، وهذا ما سيحصل لاحقاً مع صلاح الدين الأيوبي ابن شقيق شيركره ومع المماليك.

حدث في السنة ١١٦٠، ان هدّد الملك بودوان الثالث بغزو مصر، ولم يمنعه من ذلك إلاّ ما حصل عليه من وعد بأن يؤدّي له الخليفة الفاطمي ضريبة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار. على أن هذه الضريبة لم يجر دفعها مطلقاً، فاتخذ أموري من ذلك ذريعة ليهاجم فجأة مصر في أيلول ١١٦٣. فاجتاز الفرنجة برزخ السويس وألقوا الحصار على «الفرما»، لكن المصريين أجبروهم على الانسحاب، بأن دمّروا بعض سدود النيل الذي كان في موسم الفيضان.[١]

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٢.

مصر في القرن الثاني عشر



٢ - حملة نور الدين الأولى على مصر (١١٦٤)

ازدادت الفوضى في البلاط الفاطمي منذ ظفر الفرنجة بعسقلان، ولم يعش الوزير عباس، يومذاك، إلاّ سنة واحدة بعد وقوع هذه الكارثة. ولقي ابنه نصر الحظوة عند الخليفة الظافر. ولم يطل الوقت حتى قتل نصر الخليفة. وأشيع آنذاك أن أشقّاء الخليفة كانوا القتلة، فأقدم الوزير على إعدامهم، وعهد بالخلافة إلى الفائز ابن الظافر وكان عمره لا يتجاوز الخامسة عشر. وبعد مدّة وجيزة زحف ابن رزيك حاكم الصعيد، وهو أرمني الأصل إلى القاهرة، وظفر بتأييد قادة الحامية. وهرب عباس وابنه نصر إلى صحراء سيناء ومعهما أسامة، فأغار عليهم الفرنجة من حصن الشوبك، فاستطاع أسامة أن يفلت فوصل سالماً إلى دمشق، أما عباس فقد قتل وألقي القبض على نصر الذي سلّمه الفرنجة بعد مدّة إلى سلطات القاهرة فشنق وظلّت جثّته معلّقة على باب زويلة مدّة سنتين.(١)

ظلّ ابن رزيك في الحكم حتى سنة ١١٦١. وبعد موت الخليفة الفائز، خلفه ابن عمّه العاضد، وكان عمره ٩ سنوات، وبعد سنة أجبر على الزواج من ابنة رزيك. غير أن أخت الظاهر ساورها الشك في طموح هذا الوزير، فقُتل، وتولّى الوزارة بعده ابنه العادل الذي حكم فقط سنة وثلاثة أشهر ثمّ طرده وأمر بقتله حاكم الصعيد «شاور»(٢) الذي بقي في الوزارة بعده ثمانية أشهر حتى طرده سنة ١١٦٣، الحاجب «ضرغام» وهو من العرب. وبغية توطيد سلطانه، أمر ضرغام بإعدام كلّ من خشي من طموحه، فكاد الجيش المصري يخلو من كبار القادة.(٣)

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٠ - ٥٩١.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٦٣ - ٥٦٤.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٢.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٦٨.
(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٦٠.
- رنسيمان، م. س.، ص ٥٩٢.

لم يلبث «شاور» الذي فرّ من مصر، أن ظهر في بلاط نور الدين، وعرض عليه «إذا أرسل جيشاً لإعادته إلى الحكم في القاهرة، أن يدفع نفقات الحملة وأن يتنازل له عن المناطق الواقعة على الحدود، وأن يعترف بسيادته، وأن يؤدّي جزية سنوية قدرها ثلث خراج مصر فتردد نور الدين في قبول العرض خوفاً من المخاطرة بجيشه على امتداد الطرق التي يسيطر عليها الفرنج وراء الأردن، لكنه في نيسان ١١٦٤، قرّر إرسال قوّة زنكية بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر بصحبة شاور». إن الموافقة على عرض «شاور» كان الحدث الحاسم لمستقبل سياسة نور الدين في بلاد الشام والديار المصرية.

كان الوقت ملائماً للتدخّل:

- فالخلافة الفاطمية تحتضر ولا يلزم لموتها سوى قليل من الوقت.
- الوجود الزنكي العسكري في مصر يسمح لنور الدين أن يحاصر فعلياً مملكة القدس.

وإذا تمّ ذلك ستقع المملكة بين جبهتين، واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب، والأسطول الفاطمي في المتوسّط بإمكانه مضايقة تحرّكات السفن الفرنجية.(١)

زحف أسد الدين شيركوه في نيسان ١١٦٤ مع جيش كثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، ولكي يصرف أنظار الفرنجة عن هذا الزحف، قام نور الدين بالهجوم على بانياس. وتوجّه بصحبة شيركوه، صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب وهو شاب كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، لم يكن حريصاً على الاشتراك في الحملة. خاف ضرغام لما حدث، فأرسل يطلب المساعدة من ملك القدس اموري. غير ان مسير شيركوه بلغ من السرعة انه اجتاز برزخ السويس، قبل أن يستعدّ الفرنجة للتدخّل. وهزم شيركوه قرب الفرما، قوّة مصرية بقيادة شقيق ضرغام. ولم ينقض شهر أيار السنة ١١٦٤، حتى عاد شاور إلى الوزارة في القاهرة ومات ضرغام.(٢)

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٥٨٠.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٥٩٤.

- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٥٨٣.

وعندما وصل شاور إلى الحكم، طلب من شيركوه العودة إلى سوريا، فرفض أسد الدين الاستجابة له، واستولى على بلبيس، عند ذلك استنجد شاور بملك القدس، وطلب إليه التعجيل بالقدوم إلى مصر، بعد أن عرض عليه أن يدفع له ألف دينار عن كلّ مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل التي يبلغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة، وأنه سيتكفّل بكلّ نفقات العلف للحيوانات.(١)

٣ - ملك القدس اموري في مصر (١١٦٤) وعودة شيركوه إلى سوريا

في أول آب ١١٦٤، نظّم ملك القدس الدفاع عن مملكته في حال غيابه، وانطلق باتجاه مصر عبر صحراء سيناء فوصل إلى فرع من فروع النيل وهي فاقوس. فلحق به عندها شاور، ثمّ تحرّكا معاً، لمحاصرة أسد الدين شيركوه في بلبيس. لقد صمد هذا الحصن بفضل دفاع عسكر شيركوه مدّة ثلاثة أشهر فدبّ الجوع في داخله، وفقدت المعدات والعتاد، والراجح أنه كاد ان يسقط بيد الفرنج، لكن الأنباء التي وصلت من سوريا إلى ملك القدس تنبئه عن الهجوم على حارم وبانياس دعت أموري أن يفكّ الحصار عن بلبيس شرط جلاء شيركوه عن مصر.(٢) وافق أسد الدين على هذا الشرط، وبدأ التنفيذ، فسار الجيشان الفرنجي والزنكي في طريقين متوازيين عبر صحراء سيناء، بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم. وكان شيركوه آخر من غادر مصر للّحاق بجيشه.

لقد وافق شيركوه على ترك مصر، لأن سور مدينة بلبيس كان قصيراً جداً، وليس له خندق ولا فاصل يحميها. يقول ابن الأثير «أتى شيركوه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك... فقال له شيركوه

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥٥ - ٤٦٦.

(٢) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٤٦٦.

باعتزاز»، بأن جيشه سوف ينتقم له، وعندئذٍ ردَ الرجلُ الفرنجي في شهامة أنه أدرك الآن السر في ذيوع صيت شيركوه بين الفرنجة.(١)

٤ - غزوات نور الدين ضد مملكة القدس وإمارة طرابلس (١١٦٥ - ١١٦٦)

٤١ - الهجوم على مغارة شقيف تايرون (١١٦٥):

بعد عودته من مصر، شدّ شيركوه كوابحه ولم يعد يحلم إلاّ بالعودة إلى القاهرة. وفي هذه الأثناء، قرّر الأمير الكردي تنفيذ غارة ضد مقاطعة صيدا السنة ١١٦٥، مستغلاً غياب أموري الذي كان ينتظر في انطاكية عودة أميرها بوهمند الذي كان في القسطنطينية يدفع ما عليه من أتاوة للبيزنطيين. زحف شيركوه بقواته إلى مغارة شقيف تايرون وحاصرها، وكانت من الأماكن الفرنجية الأكثر تحصيناً، وهي تسيطر على طريق دمشق صيدا من تلك الناحية وطريق الجنوب بيت الدين وبعلبك. وهي حالياً قلعة نيحا الشوف في لبنان، على بعد ٧ كلم إلى الشمال من جزين وعلى ٢٧ كلم شرقي صيدا.

كانت هذه المغارة، صعبة المنال للغاية والهجوم عليها مباشرة لاحتلالها غير ممكن، فيجب محاصرتها وانتظار وقوع المجاعة بداخلها ليستسلم أهلها. . ويقال إن شيركوه دفع رشوة لحراسها «وان القلعة كانت قد سقطت في أيدي الأعداء بسبب التواطؤ مع حراسها كان واضحاً تماماً، حيث هرب فور تسليمها جميع الذين كانوا موجودين بداخلها إلى بلد العدو باستثناء قائدهم الذي قبض عليه لحسن الحظ وقد واجه نهاية تعيسة في صيدا حيث شنق فيها».(٢)

وفي منتصف العام ١١٦٦، أغار شيركوه على إقليم ما وراء نهر الأردن ونجح في

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٩٥.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٤٦٧.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٣.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٠.

الاستيلاء ثانية على مغارة محصّنة، كان يدافع عنها رجال الداوية الفرنجة بعدما كان الملك قد عهد بها إليهم، وهبّ الملك إلى نجدتها مع مجموعة كبيرة من الفرسان، لكن بلغه عندما كان مخيّماً على ضفاف الأردن نبأ أفاد أن المغارة قد سقطت في أيدي شيركوه، فأمر الملك بعدما أربكه هذا النبأ وأغضبه بشنق نحو ١٢ من الداوية المسؤولين عن تسليم الموقع.(١)

٤٢ - الاستيلاء على حصن المنيطرة في لبنان (١١٦٦):

في السنة ١١٦٦، ومستفيداً من أسر ريموند الثالث أمير طرابلس، وقسم كبير من فرسانه، هاجم نور الدين المنيطرة في شمال لبنان، وهو واحد من المواقع الحصينة في الإمارة ومركز استراتيجي مهمّ يسيطر على الجسر الطبيعي بمواجهة بلدة افقا في نهر ابراهيم والطريق المؤدّية من جونية في كسروان إلى بعلبك. بعدما جمع قواته، توجّه نور الدين بسرعة عبر البقاع، فوصل فجأة أمام الحصن وحاصره. وكانت الحامية تعتقد أنها في مأمن، لذلك لم تأخذ أية حيطة أو حذر لمثل هذا الحصار. دخل نور الدين الحصن وقتل جميع أفراد حاميته واستولى على غنائم كبيرة بداخله. وعندما وصلت قوة فرنجية لنجدته وجدته قد احتلّ من قبل الزنكيين، فعادت أدراجها عن طريق ممر عيناتا - الأرز، فاقدة الأمل بالاستيلاء عليه ثانية.(٢)

وهكذا أمّن نور الدين مواصلاته باحتلال الجناحين الحصينين: المنيطرة في الشمال وقلعة شقيف تايرون في الجنوب، فانكشف أمامه الطريق إلى منطقة التنوخيين الذين كانوا يسيطرون على قلب جبل لبنان (منطقة الغرب). وبعد هدوء قصير عاد نور الدين،

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠١.
(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠١.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠١.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٨١.

وأرسل في منتصف ١١٦٧ قواته بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان ذلك بمثابة التدخّل العسكري الثاني في هذه الديار.

٤٣ - الاستيلاء على صافيتا وعُريمة (١١٦٦):

في منتصف العام ١١٦٦، جمع نور الدين قواته، وأتاه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره من الأمراء، وتمّ اجتماع القوات في منطقة حمص، بعدها زحف الجيش وعلى رأسه نور الدين فدخل بلاد الفرنج - إمارة طرابلس، فاجتازوا حصن الأكراد، «فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة في لبنان، فنازلوها وحاصروها وحاصروا حلبا في عكار وأخذوها، وخربوها» وسارت قوات نور الدين في تلك الإمارة يميناً ويساراً،[1] تغير وتخرّب البلاد ثمّ فتحت حصني العريمة وصافيتا ثمّ عاد الجميع إلى حمص، فصاموا بها شهر رمضان الكريم، ثمّ زحفوا إلى بانياس في الجنوب وقصدوا حصن هونين وكان فيه حامية فرنجية وهو من أمنع حصون الصليبيين ومعاقلهم، فحاصروه وانهزم الفرنج فدخلوه وقتلوا من فيه وأحرقوه، «فوصل نور الدين في الغد، فهدم سوره كلّه ثمّ قرّر مهاجمة مدينة بيروت لكن الجنود تخلّفوا لطول المدّة، ففرّق نور الدين عسكره، فعاد قطب الدين إلى الموصل، ومنحه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له، فأخذها في طريقه، وعاد إلى الموصل».[2]

٥ - قوات نور الدين تغزو مصر للمرة الثانية (١١٦٧)

في نهاية ١١٦٦، حصل أسد الدين شيركوه، على الموافقة من سيده نور الدين بالتوجّه مرّة أخرى لغزو مصر. وأقنع الخليفة العباسي ببغداد بأن يعتبر الحملة موجّهة لقتال الخلافة الفاطمية الشيعية. والراجح أن هذه الحجّة أثّرت في نور الدين الذي

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٥.

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٦.

اشتدّ ورعه منذ مرضه الأخير. وتواترت الأخبار في هذه الأثناء بشكل واسع وأكيد عند الفرنجة أن شيركوه كان يستعد للزحف على مصر من جديد «في أبهة عسكرية وعلى رأس قوّة كبيرة من الفرسان جمعها من مناطق الشرق والشمال...». وان شيركوه المجهّز بشكل جيّد بالطعام الضروري لأيام عديدة وبكميات وافرة من الماء المنقول بالقِرَب على ظهور الجمال والبغال. وقد بدأ مسيرته عبر الصحراء. فجهّز أموري ملك القدس كلّ قواته المتوفّرة من الفرسان وانطلق بسرعة لمقاتلة شيركوه وإعاقة تقدّمه نحو مصر، وتقدّم حتى «قادس بارنيه» في الصحراء إلاّ أنه عاد من حيث أتى لأنه لم يجد شيركوه الذي تلقّى من حلب، آنذاك، امداداً من الفرسان. فخرج من دمشق في حزيران ١١٦٧، وصحبه أيضاً في هذه الحملة صلاح الدين ابن شقيقه أيوب. ولم يخفِ شيركوه نواياه هذه المرة. وتوفّر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد للمرّة الثانية بأموري الفرنجي الذي كان في بانياس.(١)

صدرت أوامر الملك اموري آنذاك لاستدعاء جميع القوات العسكرية من مدن المملكة كافة من الفرسان والمشاة على حدّ سواء. وكانت بقعة التجمّع منطقة عسقلان. وفي ٣٠ من كانون الثاني ١١٦٧، جمع الفرنجة ما يلزمهم من المواد اللوجستية وزحفوا بسرعة حثيثة حتى عبروا صحراء سيناء الشاسعة ثمّ توقّفوا قليلاً في العريش، لإجراء إحصاء لقواتهم، ولانتظار بقية الجيش. وأخيراً وصلوا إلى مدينة بلبيس.

وكان الملك الفرنجي قد أمّن قوات احتياطية لاتخاذ مواقعها على الحدود لدرء ما يجري من هجمات أثناء غيابه.

وقد تردّد ان شيركوه يجتاز فعلاً صحراء سيناء، فلم يسع الملك إلاّ ان يرسل ما تيسّر

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠١.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ١١ - ١٢.
- نيكيتا، م،رجع سابق، ص ٦٠٣.
- وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٤ - ٨٩٥.

الحصول عليه من الجنود لعرقلة تقدّمه، غير أن ذلك جاء متأخَراً.(١)

واستولى الذعر على شاور عندما علم بقدوم الفرنج وارتاع بسبب ظهورهم المفاجىء وارتاب بحسن نوايا الحشد المقترب. تقدّم الصليبيون في طريقهم إلى ما وراء مدينتي بلبيس والقاهرة وأقاموا معسكرهم على ضفّة نهر النيل اليسرى في مدينة بابليون، وهي قلعة قوية كانت زمن الفتوحات العربية وقد تمّ الاستيلاء عليها سنة ٦٤١م.(٢) وتقع على بعد ميل واحد من أسوار القاهرة.(٢) لقد التقى شاور بالجيش الفرنجي على مسافة من القاهرة وأرشده إلى المعسكر. وعقد مع الملك عهداً، بعد أن رفض اقتراحاً من شيركوه يقضي بالاتحاد لمناوءة الفرنج. وتقرّر ان يدفع للصليبيين اربعماية ألف دينار، نصفها على الفور والنصف الآخر فيما بعد.(٢)

وعلى الرغم من أن عاصفة رملية شديدة كادت تودي بجيش شيركوه، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في أوائل شهر شباط ١١٦٧. حيث علم أن جيش الفرنج شرع في السير في ٣٠ كانون الثاني ١١٦٧. عندئذ اجتاز القائد شيركوه الصحراء باتجاه الجنوب الغربي حتى بلغ الضفة الغربية لنهر النيل عند اطفيح، فالتزمها في سيره حتى عسكر في الجيزة تجاه القاهرة.

وبعد دراسة دقيقة قرّر الفرنج أنه من الأفضل أن يخرجوا لمواجهة شيركوه وقواته قبل أن يعبروا نهر النيل، لأن منعه من دخول مصر سيكون أفضل بكثير من خوض معركة بعد أن تكون قواته قد عبرت، فالقتال سيكون أشرس وأخطر. وهكذا حلّوا معسكرهم وساروا بسرعة نحو النقطة التي اعتقدوا أن شيركوه كان موجوداً فيها إلاّ انهم وجدوا أن شيركوه كان قد عبر النهر مع أغلب قواته ولم يبق سوى عدد قليل منهم فقبضوا عليهم

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٥.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠١ - ٦٠٢.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٨.

ولدى استجوابهم قدّموا مقداراً كبيراً من المعلومات المفيدة وخاصة فيما يتعلّق بعبور شيركوه للنهر وعدد جنوده.[1]

٥١ - معركة القاهرة:

كي يتجنّب اللقاء مع الفرنجة، قاد شيركوه جيشه نحو الجنوب ماراً بالاتفية، على مسافة حوالي /٦٠/ كلم وباتجاه مجرى النهر من القاهرة. ثمّ اجتاز النيل في نقطة «أبا» على الضفة الغربية. بعد ذلك صعد نحو الشمال بسير حثيث حتى وصل الجيزة مقابل الفسطاط. بقي شيركوه هناك حوالى اربعة وخمسين يوماً على الضفة اليسرى للنيل مقابل الفرنجة الذين، كانوا قد تمركزوا في الفسطاط.[2] وبغية تأمين الإمدادات، احتلّ الجيش الزنكي بعض قرى المنطقة الغربية. ثمّ هاجموا أيضاً جزيرة المحلة في الدلتا. وحالما علم شاور بذلك، أرسل إلى هناك النبيل الفرنجي «ميلون دي بلانسي والكامل، وهو واحد من أبناء شاور، مع قوّة من الفرسان، فوجدوا رجال شيركوه، يعاملون السكان بطريقة مخزية، فهاجموهم على الفور وتلا ذلك معركة دموية انتصر فيها الفرنجة ودفعوا الزنكيين مباشرة إلى النهر المجاور، فغرق فيه الذين نجوا من القتل. لقد قتل من رجال شيركوه التركمان حوالي الخمسماية.[3]

وبغية اجتياز النيل، بين الروضة والضفة الغربية، حاول الفرنجة إنشاء جسر من المراكب المربوطة بعضها إلى بعض، اثنين فاثنين بواسطة جذوع أشجار النخيل الموجودة هناك، وثبتت بالمراسي، وحصّن الجسر بأبراج خشبية وجهّز بالآلات الحربية. واستمرّ العمل به عدّة أيام حتى وصلوا إلى منتصف النهر،

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٨.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠٤.
(٢) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦٠٦.
- وليم، مرجع سابق، ص ٨٩٨ - ٨٩٩.
(٣) وليم، مرجع سابق، ص ٩٠٦.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٦.

فحال الخوف من التركمان دون إكمال العمل إلى الضفة المقابلة. لكن رماة السهام الأكراد التابعين لشيركوه، منعوا مجسّرين الهندسة الفرنج من إنجاز العمل حتى الضفة الثانية، ليصبح الجسر كاملاً متكاملاً للعبور بين الضفتين. وقد بقيت الأمور على هذا المنوال ما يقارب الشهر من الزمن.

كانت الأمور على هذه الحال، عندما وصلت نجدة من الفرنج بقيادة انغروا صاحب تورون وفيليب صاحب نابلس مع مجرى النهر، إلى جزيرة المحلّة البعيدة ٨ أميال عن مركز قوّة من جيش شيركوه.(١) فقطعوا النهر بواسطة المراكب وقضوا على تلك القوة؛ وبينما هم يحاولون عبور القناة البعيدة من النهر، هبّت فجأة زوبعة شديدة ومنعتهم من تحقيق هدفهم وأجبروا على إقامة معسكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطىء الأخر، وتركت جزءاً من القوة لتنهي بناء الجسر ولتحميه بعد إنجازه.(٢)

في الليلة التالية، تراجع التركمان الذين كانوا يحتلون الضفة اليسرى. وعند الفجر بدا للفرنجة هذا الانكفاء، فقرّروا مطاردتهم.(٢) وقد أرسل الملك هيودي ابلين، كامل ابن شاور، مع قوّة كبيرة من الفرسان الفرنجة والمصريين ليقوموا بحماية القاهرة والجسر الذي كان الجنود قد شيّدوه، وأوكلت مسؤولية العناية بالأبراج وجميع تحصينات المدينة إلى الفرنجة. وقد أرسل الملك أيضاً جيرارد دي بوغي وابناً آخراً لشاور يدعى «طي» إلى الضفة الأخرى للنهر مع قوّة مشتركة من الفرنج والمصريين، لتدمير قوات شيركوه في حال عبورها النهر.(٣)

تراجع شيركوه بسرعة نحو مصر الوسطى، خوفاً من أن يكتنفه الفرنجة، وأقام معسكره في «الاشمونين»، في خرائب مدينة

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٦.
- وليم، مرجع سابق، ص ٦٠٦.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٠٧.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٦ - ٦٠٧.
(٣) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٩٠٨.

«دلغا» أو هيرموبوليس القديمة، في ١٨ آذار ١١٦٧.(١)

لقد جلب الكشافة إلى الملك الفرنجي وشاور معلومات متواصلة عن تقدّم شيركوه. واستمرّت المطاردة لمدّة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم السبت، في آذار، وصلت الأخبار أن شيركوه يعسكر في الجوار.

٥٢ - معركة «البابين»:

تمركز الجيشان في وسط الكثبان الرملية في منطقة «البابين». لقد علم شيركوه، بواسطة رجال مخابراته أن عديد خصومه كبير جداً. فالمؤرّخ وليم الصوري يخبرنا أن جيش نور الدين الذي أرسله إلى مصر كان يتألّف من تسعة آلاف من الفرسان التركمان وغيرهم وثلاثة آلاف من رماة السهام وعشرة آلاف من البدو. هذا العدد مبالغ فيه كثيراً إذا أخذنا بعين الاعتبار مشاكل التموين الذي يفرضه مثل هذا الجيش الكبير والله أعلم؟؟. أما الفرنج فكان جيشهم يتألّف من ثلاثماية وخمس وسبعون فارساً مع خدمهم ومن عدد غير محدد من المصريين والمرتزقة والله أعلم؟؟.(٢)

في هذا الموقع، ضيّق الجيش المشترك الخناق على شيركوه، وقد تفوّق عليه بالعدد، والواضح أن الحامية المرابطة بالقاهرة لم تشترك في القتال. لقد عزم شيركوه أن يهاجم الفرنج والمصريين، فجمع قادته وعرض عليهم مخاوفه وطلب رأيهم. وقد اتفق الجميع، أنه من الأفضل والأجدى عبور الضفة الشرقية للنيل، كي يكونوا متأهّبين للعودة إلى بلاد الشام بأقصى السرعة في حالة الضرورة، باستثناء صوت واحد ارتفع معارضاً هو صوت الأمير شرف الدين برغش، مملوك نور الدين وصاحب قلعة الشقيف في جنوب لبنان. لقد أعلن شرف الدين أنه إذا رجع القادة المسلمون من مصر

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٧.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩١١ - فيما يخص العدد، نحن نفتقر إلى مستندات دقيقة.

- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٠٧.

دون إحراز النصر أو دون نشوب معركة ضدّ خصمهم، فإن نور الدين سيعزلهم من مقاطعاتهم ويمنع عنهم الرواتب المحدّدة لهم، والسبب انهم هربوا من المعركة وفرّوا من الخدمة العسكرية.(١)

اقتنع شيركوه بما قاله شرف الدين الذي سانده الرأي صلاح الدين الأيوبي ابن أخ شيركوه. وفي هذه الأثناء قامت ثورة على رأسها حاكم الاسكندرية نجم الدين بن مشعل، ابن وزير سابق وقد أرسل أحد مرافقيه المدعو «ادريسي» إلى شيركوه ليؤكد له مساندته الشخصية وأنه ضد التحالف الفرنجي - الشاوري. وهكذا أصبح لشيركوه حليف على الضفة اليسرى للنيل.(٢)

أ - المعركة ونتائجها:

في صبيحة اليوم التالي، ١٨ آذار ١١٦٧، شنَّ الفرنجة هجوماً على قوات شيركوه الذي كان قد أمر صلاح الدين، قائد قلب جيشه، بالانكفاء فور بداية الهجوم، كما هي العادة المتبعة عند الزنكيين، في التكتية العسكرية. وكان شيركوه على رأس قوة من جنود النخبة لديه في الجناح الأيمن، مستعداً للإطباق في المكان المحدّد عندما يحين الوقت. طارد الفرسان الفرنجة صلاح الدين، وعندما ابتعدوا عن ساحة المعركة، قذف شيركوه بقوات جناحه الأيمن لمهاجمة الجناح الأيسر للجيش المشترك وكانوا من المشاة. وعندما عاد الفرسان الفرنج من المطاردة العقيمة، وجدوا مشاة جيشهم قد تفرّقوا تحت ضغط الفرسان التركمان بعدما قتل عدد كبير منهم عدا عن الأسرى ومن بين القتلى، أسياد كبار ونبلاء افرنج مثل هوك صاحب كريونا والفارس النبيل اوستاش شولي، ومن بين الأسرى كان هوك صاحب قيصرية وارنولف صاحب تل باشر. أما أسقف بيت لحم فكانت جراحه بليغة. أصبح الوضع الفرنجي صعباً للغاية. فبين كثبان الرمال توالت

---

(١) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ١٤ - ١٥.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦٠٨.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦٠٨ - ٦٠٩.

المعارك الشرسة بين الخصمين وحوصر الملك ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم في معركة غير متكافئة في تلك النقطة، ووقع عدد آخر في الأسر، ومنهم هيو صاحب قيسارية. وتراجع أموري وشاور، بمن تبقى من قوات التحالف، إلى القاهرة للمشاركة بالدفاع عنها مع حاميتها الموجودة. واستولى شيركوه على الأمتعة والمعدات دون نزاع وأمر بنقلها بعيداً عن ساحة القتال.(١)

انتظر أموري في منية ابن الحسيب على بعد ٤٠ كلم إلى الشمال، ثلاثة أيام لتجميع قواته التي كان قد بدّدها فرسان شيركوه فلحق به ابن شاور. وعندما تمّ له ذلك في اليوم الرابع، تابع الملك تراجعه دون توقّف باتجاه القاهرة، وأقام معسكره إلى جانب الجسر أمام بابليون، «وأحصى أموري فرسانه هناك، فوجد أنه فقد مئة فارس، أي ربع فرسانه ويقال إن شيركوه فقد في تلك المعركة حوالى الألف والخمسماية مقاتل.(٢)

بعد هذه المعركة لا يمكننا تحديد من هو المنتصر، فشيركوه انكفأ عبر الفيوم متوجّهاً إلى الاسكندرية بعدما جمع قواته المتبقّية وأعاد تنظيمها في قوّة واحدة.(٢)

٥٣ - صلاح الدين الأيوبي وحصار الإسكندرية (١١٦٧):

بعد تجميع قواته وإعادة تنظيمها، اجتاز شيركوه مرّة أخرى نهر النيل وأسرع باتجاه الشمال الغربي لمنطقة الفيوم ولم يحاول مهاجمة القاهرة. ولم تمضِ أيام قليلة حتى ظهر أمام مدينة الإسكندرية، التي فتحت له أبوابها، نظراً لما يكنّه حاكمها نجم الدين بن مشعل وسكانها، من الكراهية لشاور. وفي تلك الأثناء أعاد الفرنج تنظيم قوات التحالف بظاهر القاهرة، إذ لا يزال هذا الجيش متفوّقاً في عدده وعتاده جيش شيركوه، بالرغم ما كان قد لحق به من الخسائر البشرية والمادية. تقدّم جيش

(١) وليم، المرجع السابق، ص ٩١٢.
- رنسيمان، المرجع السابق، ص ٦٠٥.
(٢) وليم، المرجع السابق، ص ٩١٣.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦١٠.

التحالف إلى الإسكندرية وألقى الحصار على المدينة بعدما سدّت المراكب المرفأ الذي كان بمثابة «فم ومفتاح مصر»،(١) وقدمت بعض الإمدادات من فلسطين واستدعى الملك الخرفين والنجاريين وأمرهم بتشييد برج أعلى من الأسوار يمكن من ضمنه مراقبة المدينة بأسرها ووضعت أيضاً، وفي أماكن استراتيجية حول الأسوار المناجيق والعرادات التي تقذف حجارة ضخمة ذات وزن كبير. وقد أطلقت قذائفها بشكل مستمر فحطّمت الأسوار وروّعت الأهالي بشكل يفوق الاحتمال. كما وأن الفرنج قطعوا الأشجار خارج المدينة وأبيدت الحدائق الغنّاء، وكان هذا العمل العدواني قد دفع الناس إلى الشكوى بمرارة بالغة بعدما جرى إقرار معاهدة الصلح، فقد شعروا أنهم تلقّوا في هذا المجال أذى كبيراً وأضراراً بالغة. لقد استخدم الفرنجة كلّ وسيلة لإلحاق الأذى وكانوا يستنبطون باستمرار وسائل جديدة لإنهاك المحاصرين، ولم تسمح الهجمات المستمرّة بأية استراحة للمدافعين المرهقين الذين راحوا يصرّحون علناً «ان الغرباء السوريين المزعجين هم الذين أتوا بهذا الأسى عليهم ويجب طردهم من المدينة، ونادوا بضرورة البحث عن اتفاق من نوع ما يمكن بوساطته تبديد هذه المحن غير المؤاتية، ورفع الحصار وإعادة الاسكندرية إلى حالتها السابقة من البحبوحة والحرية».(١)

وبعد مضي شهر من الحصار، تعرّضت خلالها القوات الزنكية وأهالي المدينة للجوع، عندها عيّن شيركوه صلاح الدين ابن شقيقه حاكماً عسكرياً على الاسكندرية وابن الزبير رئيساً للإدارة، وأثناء الليل عبر، مع مفرزة من خيالته حوالى الألف، خطوط الفرنج، باتجاه مصر العليا نحو الصعيد. أراد الملك مطاردته، غير أن شاور نصحه بالعدول عن ذلك، ذاك أن شيركوه لم يرد سوى نهب المدن والقرى في الوجه القبلي، كما أن الاستيلاء على الاسكندرية له الأهمية القصوى.(١)

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠٥ - ٦٠٦.
- وليم، مرجع سابق، ص ٩١٣ و٩١٧.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦١٠.

لم ينته شهر أيار حتى بلغ وضع صلاح الدين بداخل الاسكندرية من الحرج، أن أرسل إلى عمّه شيركوه يلتمس منه العودة. لقد دبّ الجوع بين السكان وانتشرت الأمراض وأصبح التسوّل والفقر سيّدا الموقف. لقد أدرك شيركوه أنه لم يعد بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل.(١) فلمّا اقترب من الإسكندرية أرسل أحد أسراه ارنولف صاحب قيصرية إلى اموري، يعرض عليه الصلح مشترطاً أن ينسحب من مصر هو والفرنجة سوياً، وأن يعد شاور بألاّ يعاقب رعاياه في الاسكندرية وغيرها من المدن والقرى التي ساندت قوات شيركوه. قبلَ الملك هذه الشروط، نظراً لما ورده من أخبار الحوادث التي وقعت في إمارة طرابلس ومملكة القدس.

في ٤ آب ١١٦٧، دخل الفرنج إلى الإسكندرية. أما صلاح الدين وجيشه فخرجوا منها في موكب عسكري حافل.

وقرّر شاور إلقاء القبض على كلّ من جرى الاشتباه به في أنه تعاون مع الزنكيين.(٢) ولمّا رفع صلاح الدين الشكوى إلى الملك من هذه التصرّفات، أمر شاور بإطلاق سراح الأسرى، حتى ان أموري قدّم السفن لنقل الجرحى من رجال شيركوه بحراً إلى عكا، غير انه تقرّر، إرسال الذين استردّوا عافيتهم إلى مزارع قصب السكر، فظلّوا يعملون إلى أن أتى الملك شخصياً فأطلق سراحهم. واتخذ صلاح الدين أثناء المفاوضات أصدقاء عديدين من الفرنج ويقال إن همفري صاحب تبنين نصّب صلاح الدين فارساً.(٣) على الطريقة الفرنجية.

في العاشر من آب ١١٦٧، غادر صلاح الدين وعمّه شيركوه الديار المصرية، فوصلا دمشق في أيلول من السنة ذاتها. أما الفرنج فتركوا في القاهرة مندوباً سامياً لهم مع قوّة صغيرة تتولى حماية أبواب المدينة وعادوا إلى ديارهم فبلغوا عسقلان في ٢٠ آب السنة

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦١١.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٠٧.

(٣) رنسيمان، مماثل.

١١٦٧. وكانوا قد اتفقوا مع شاور على أن يؤدي اتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية.

٦ - قوات نور الدين تغزو مصر للمرة الثالثة (١١٦٨ - ١١٦٩)

٦١ - الملك الفرنجي أموري يزحف نحو القاهرة (١١٦٨):

خلال هذه الفترة، بدأ يشاع في كلّ مكان من البلاد أن شاور «سلطان مصر» كان يرسل باستمرار رسلاً إلى نور الدين، ويلتمس منه المساعدة بشكل سرّي، وقد ادعى أنه كان معارضاً تماماً ولا يرغب بالانضمام إلى أية معاهدة سلام مع «الاعداء» الفرنج، وانه يعمل على نقض الاتفاق والانسحاب من المعاهدة التي عقدها مع أموري، إذا ما تأكّد من مساعدة نور الدين له.(١)

غضب اموري من هذه الأخبار وجمع قوات من المشاة والخيالة من جميع أنحاء المملكة وأشاع أنه سوف يهاجم حمص، حتى يمنع نور الدين من الحركة باتجاه مصر لصد الفرنجة. والواقع أن نور الدين كان حريصاً على أن يتجنّب الاشتباك في قتال مع الفرنج نظراً لانغماسه في مشاكل خاصة في شمالي شرقي بلاد الشام. ولم يدرك شاور ما يجري فعلاً عند الفرنج، إلاّ بعد أن زحف الصليبيون في العشرين من شهر تشرين الأول ١١٦٨ من عسقلان باتجاه بلاده. ارتاع شاور، إذ لم يتوقّع مطلقاً من اموري أن يقدم في استهانة بالغة على نقض المعاهدة التي عقدها معه.(٢) أرسل شاور مستشاره الأمير بدران لملاقاة الملك قبل الوصول إلى بلبيس، فاسترضاه أموري بما بذله من رشوة. أما الرسول الثاني، فكان شمس الخلافة، الذي لقي الملك في الصحراء قرب دير البلح، فاشتدّ في تقريع

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٢٨.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٥.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٤..

اموري لما ارتكبه من خيانة فردّ عليه، بأن برّر موقفه ما أجراه الكامل ابن شاور من مفاوضات مع شيركوه، وطلب، مقابل انسحابه، مليونين من الدنانير. لم يتجاوب شاور لهذا العرض، فتابع الصليبيون تقدّمهم مع عتادهم الحربي والمناجق فوصلوا إلى بلبيس وبدأوا على الفور عمليات الحصار. وقد قرّر شاور المقاومة مهما كانت النتائج. وكان على رأس حامية المدينة الأمير طيء ابن شاور الذي رفض أن يفتح أبواب بلبيس للفرنج، وكان عدد الحامية قليلاً. وكان شاور في هذه الأثناء قد قسّم قواته إلى قسمين، قسم أبقاه في القاهرة وقسم أرسله إلى بلبيس مع الأرزاق والمعدات لمساندة الأمير طيء. وفي أول تشرين الثاني بدأ الحصار. ولم يطل الوقت حتى تمكّن الجيش الفرنجي من شق طريقه إلى داخل المدينة بالقوّة واستولى عليها بحدّ السيف في الرابع من تشرين الثاني، بعد أن استبسلت حامية بلبيس لمدّة ثلاثة أيام. وتلى دخول الفرنج إلى الحصن إجراء مذبحة مروّعة لمدّة خمسة أيام.[١] وكان بين الأسرى معزى ابن شاور إضافة إلى واحد من أبناء إخوته، فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان الجنود الموجودين هناك. لقد اندفع الفرنج إلى داخل بلبيس بفوضى وبدون ضوابط أو انضباط فور فتح أحد مداخلها وحاول الملك أن يعيد الأمن إلى نصابه، فلما نجح في ذلك آخر الأمر، استردّ من بقي على قيد الحياة من الأسرى بعد أن بذل لهم الأموال. لقد اتحد المصريون جميعاً أقباط ومسلمون في كراهية الفرنج.[٢] وبعد بضعة أيام وصل إلى بحيرة المنزلة أسطول صغير فرنجي وكان معظم بحارته من رجال الغرب الذين كانوا قد وصلوا حديثاً، بعد أن أقلع صاعداً في الفرع التنيسي لنهر النيل، وانقضّ فجأة على مدينة تنيس وقتل وسلب

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٥.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٥.
- وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٠.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٢٧.

واسـرَ، وكـان الأقـبـاط أكثر مـن تـعـرّض للهجوم.[1]

بـعـد تـدمير بـلـبـيس زحـف أموري نـحو القاهرة مع جميع قواته وسار بشكل بطيء جداً. وفي ١٣ تشرين الثاني ١١٦٨، ظهر أمام أسوار الفسطاط، الضاحية القديمة التي تـقـع جـنـوبي الـقـاهـرة. وإذ ارتاب شاور في قدرته على الاحـتـفـاظ بالفسطاط، فأجلى سكانها إلى القاهرة وأشعل النار بها، بعدما وضع في المراكب والمنازل كمية كبيرة من النفط. وبقي الدخان الأسود للحريق مالئاً الأجـواء حـوالـى أربـعـة وخـمـسين يوماً من حين وضع النار في المدينة.[2] انفذ شاور رسوله شمس الخلافة مرّة أخرى إلى ملك الفرنج، يخطره بأنه سيبادر إلى إحراق القاهرة ومسـاواتـهـا بالأرض بـكـلّ كنوزها، قبـل أن يتركـهـا في أيـدي الصـلـيـبـيين. عندها قبـل اموري المسـاومـة عـلـى مـغـادرة مصـر، لـقـاء أموال تدفع له. فدفع شاور مئة ألف دينار لافتداء ابنه طيء ووعد بأموال أخرى تدفع بـعـد حـيـن. وفي تـلـك الأثـنـاء تحرّك جـيـش الفرنج بضعة أميال نحو الشمال، وعسكر في «المطريـة» لمدّة ثـمـانـيـة أيام بـانـتـظـار ابـتـزاز الأموال من شاور الذي وعده بدفع مليوني قطعة ذهبية. وهناك وردت الأنباء فجأة بأن شيركوه اتخذ طريقه إلى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمي.[3] ويعتقد بعض الذين كـانـوا مع الحـمـلـة الـفـرنجـيـة، أن الملك كـان بمقدوره ان يحتل القاهرة بسهولة لو تقدّم جـيـشـه نـحـوهـا بسـرعـة دون تـوقّف، لأن المصريين كانوا آنذاك ضعفاء جداً.[3]

٦٢ - شيركوه يظفر بمصر لنور الدين (١١٦٩):

في هذه الأثناء، خاف شاور من عواقب وجود الجيش الفرنجي قرب القاهرة، فتقدّم من الخليفة الفاطمي عارضاً عليه أنه لم يبق أمام المصريين إلاّ أمل وحيد وهو نور الدين.

(١) نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦٢٨.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٦١٦.
- نيكيتا، المرجع السابق، ص ٦٢٨:
(٣) وليم، المرجع السابق، ص ٩٣١.

وبناء على نصيحة شمس الخلافة، كتب الخليفة إلى نور الدين في حلب، يعرض عليه ثلث بلاد مصر، وإقطاعات لقادته. ولا بدّ أن الخليفة الفاطمي الشاب العاضد، أدرك خطورة استدعاء مدافع عنه، يعتبره ملحداً (سنياً)، غير أنه ليس للعاضد حول ولا قوّة. فلما بلغت نور الدين الدعوة، أرسل إلى قائده أسد الدين شيركوه المقيم في حمص يستدعيه، غير أن رسول الأتابك التقى بأسد الدين عند أبواب حلب. بعد الاجتماع به تمّ الاتفاق على إرسال قوّة كبيرة من الخيالة التركمان حوالى الثمانية آلاف فارس للانضمام إلى جيش دمشق والزخف سوياً إلى فتح البلاد المصرية، وقد زوّده أيضاً بمائتي ألف دينار.(١) وأمر صلاح الدين الأيوبي بأن يسير في صحبة عمّه. اجتمع الجيش الزنكي بكامله في ٢ كانون الأول ١١٦٨، في بقعة تجمّع اتفق عليها في جنوب دمشق، في معسكر رأس الماء. وأعطى نور الدين لكلّ فارس «ممن مع أسد الدين، عشرين ديناراً علاوة على راتبه الأساسي» وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء المشهود لهم بالوفاء لنور الدين فهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ابن حسان المنبجي «وصلاح الدين يوسف ابن أيوب، ... على كره منه».(٢)

وفي ١٧ كانون الأول ١١٦٨، زحف الجيش الزنكي بقيادة شيركوه نحو مصر. في هذه الأثناء كان أموري قد أطلق سراح ابن شاور وابن أخيه من الأسر لقاء دفع مئة ألف دينار وبانتظار باقي المبلغ. وبناء عليه رفع الملك الحصار عن القاهرة وانسحب مع قواته إلى موقع آخر يقع على بعد نحو ميل وأقام معسكره بالقرب من حدائق البلسم، ومكثت القوات هناك لمدّة ثمانية أيام.(٢)

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٢٩ - ٦٣٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٧.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٢.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ج ١٠، ص ١٤.

وتلقّى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من شاور، وأخيراً نقل المعسكر إلى موقع يسمّى «سرياقوس» على بعد ستة أميال من القاهرة. وكان شاور يرسل وعوداً بشكل مستمر بأنه كان يبذل كلّ جهد لجمع ما تبقّى من المبلغ الموعود. لقد استغلّ شاور سذاجة الفرنج بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل. ثمّ ظهرت فجأة شائعة أفادت بأن شيركوه في طريقه إلى القاهرة لغزوها والاستيلاء على مصر، عندها أمر الملك بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس، وزوّد نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوّة من الفرسان والمشاة لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من كانون الأول إلى الصحراء للانقضاض على القوات الزنكية القادمة من دمشق إلى مصر، عند خروجها من صحراء سيناء.(١) لكنه بعدما توغّل في داخل الصحراء، أفاده كشافة ثقاة، كانوا يعرفون المنطقة تماماً، أن شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته، مما استدعى تبديلاً في الخطط العسكرية ذاك أن القوات الحصرية لشاور تضاعفت بهذه التعزيزات، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن، لأن التأجيل كان مشحوناً بخطر شديد، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازة مماثلة. أمام هذا الواقع، فلم يعد أمام الفرنج من سبيل آخر، سواء الجلاء عن مصر. هذا الجلاء الذي بدأ في ٢ كانون الثاني ١١٦٩.(٢)

لم يخفِ نور الدين فرحته عندما علم بانسحاب القوات الفرنجية من مصر فعمّم هذه الفرصة على جميع حكّامه وممثّليه في المقاطعات وأمر، دون إبطاء بقرع الطبول في كافة المدن التابعة لسلطته معلناً البشائر المفرحة، «فإنه كان فتحاً جديداً لمصر. وحفظاً لبلاد الشام وغيرها».(٣)

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٧.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٤.
(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٤.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٣٤.

ظهر شيركوه أمام القاهرة في ٨ كانون الثاني ١١٦٩ وأقام معسكره في «باب اللوق»، قبل أن يدخل رسمياً إلى المدينة. لقد وصل شيركوه كحليف لشاور، «وحامي الخليفة الفاطمي ومخلّص الإسلام». بعد ذلك دخل القاهرة وتوجّه إلى بلاط الخليفة العاضد ودخل عليه واجتمع به فخلع عليه، وغمره بالتشاريف ووعده ببذل الأموال والمؤن لجنوده. أما شاور فأظهر التودّد له وراح يتردّد عليه كلّ يوم، للتشاور في التدابير المالية واقتسام أعمال الوزارة. وتلقّى شيركوه هذه المحادثات في سهولة ويسر، على حين أن ابن أخيه، صلاح الدين، مستشاره الأول، أصرّ على اتخاذ إجراء آخر.(١)

لقد كان شاور في وضع صعب للغاية، فقوات شيركوه ضخمة وقوية والخليفة الفاطمي منحها مساندته، وشعبية شيركوه تكبر ككرة الثلج، يوماً عن يوم. وقد حاول شاور أن يقنع الأمير الكردي للقيام بمطاردة الملك الفرنجي عبر الصحراء ليبعده عن مصر، لكن هذه الحيلة لم تنطل على شيركوه، فادّعى أن قواته متعبة للغاية وعليه إراحتها مهما كلّف الأمر، وكذلك الفرنج فقد أصبحوا بعيدين جداً ولا يمكن اللحاق بهم.(٢)

في ١٨ كانون الثاني ١١٦٩، تقرّر دعوة شاور للتوجّه برفقة شيركوه لزيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه.(٣)

وما ان تحرّك مع حراسه على طريق القبر، حتى انقضّ عليه صلاح الدين يوسف بن أيوب مع الأمير جرديك وحرّاسهما والقوه أرضاً عن فرسه وجرّدوه من سلاحه، فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيراً، «فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين». وفي أقلّ من ساعة صدر أمر الخليفة بقطع رأسه وإلقائه عند قدمي الخليفة نفسه.(٤) وكيما يتجنّب شيركوه أي محاولة لمناوأته، أعلن أنه أباح

---

(١) ابن الأثير، مماثل، ص ١٤ – ١٥.
– رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٨.
(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٣٥.
(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٥.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥.

نهب بيت الوزير شاور لمن أراد من الناس. ولما اندفع الرعاع إلى بيت الوزير، مضى شيركوه مع الخليفة إلى دار الخلافة الفاطمية (الشيعية)، فتقلّد في هدوء زمام الحكومة وأضحى في أسابيع قليلة سيداً على الديار المصرية بأسرها، وحاز أمراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من إقطاعات، واتخذ شيركوه لقب «الملك الوزير».(١)

أما الكامل بن شاور، فإنه لما قتل أبوه، دخل القصر هو وإخوته واعتصموا به، فكان آخر العهد بهم. «فكان شيركوه يتأسّف عليه كيف أعدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه شاور في منعه من قتل شيركوه، وكان يقول وددت أنه بقي حياً، لأحسن إليه جزاء الصنيعة».(١)

٦٣ - وفاة أسد الدين شيركوه (١١٦٩):

لمّا ثبّت شيركوه قدميه في مصر وظنّ أنه لم يبق له منازع، وافاه أجله «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة».(٢)

لم يعش أسد الدين طويلاً بعد أن تولّى الوزارة، إذ مات في ٢٣ آذار السنة ١١٦٩، نتيجة إفراطه في الأكل. وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام. وشهرته في التاريخ لم يطغ عليها سوى شهرة نور الدين زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب. لقد فاق شيركوه غيره من المسلمين في إدراك أن الاستيلاء على مصر يعتبر تمهيداً ضرورياً لاستعادة فلسطين من الفرنجة، «ولم يكفّ شيركوه عن العمل لتحقيق هذه الغاية، برغم ما اشتهر به نور الدين من التردّد والحرص الشديد. وجنى، صلاح الدين، ثمرة دأبه ومثابرته. لم تكن هيئة شيركوه ومظهره تلفت النظر أو تجذب الاهتمام، إذ كان قصير القامة، ممتلىء الجسم، أحمر الوجه، أعور العين، غير أنه كان قائداً عسكرياً فذّاً عبقرياً، ولم يصارعه إلاّ قلّة من القادة في شدّة تعلّق الجنود به».(١) وبناء على إرادته القطعية دفنت جثّته في القاهرة، ثمّ نقلت فيما بعد إلى مادين.

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٦١٨.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥.
(٢) صورة الانعام ٤٤.
(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١٩.

الفصل الخامس

- اندثار مملكة نور الدين زنكي وبروز صلاح الدين الأيوبي - جيش نور الدين (١١٦٩ - ١١٧٤)

١ - وصول صلاح الدين إلى الوزارة في مصر (آذار ١١٦٩)

عندما توفي شيركوه، كثر طلاب الوزارة بين الأمراء الذين أرسلهم نور الدين مع الحملة إلى مصر، منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمد الحارمي، خال صلاح الدين وغيرهم. وكان كلّ واحد منهم يرى في نفسه المقام اللازم والكفاءات العسكرية والإدارية والقيادية لاستلام هذه الوظيفة، ولكلٍ محازبيه وأنصاره.(١)

ثلاثة أيام بعد وفاة شيركوه أي في ٢٦ آذار ١١٦٩، استدعى الخليفة الفاطمي العاضد، صلاح الدين الأيوبي الذي كان قد رشّحه لمنصب الوزارة كلّ من: بهاء الدين قراقوش الأسدي، الأمير الوفي لشيركوه، والفقيه المشترع عيسى الهكاري. هذان الرجلان هما اللذين أوصيا الخليفة بتعيين الأمير صلاح الدين، ابن شقيق شيركوه، على كرسي الوزارة.(١)

لم يكن صلاح الدين في حين قلّد الوزارة أربى على الثانية والعشرين من عمره، وكان الأصغر سناً بين الأمراء والأقل خبرة وأنصاراً ومحازبين. وكان الأمر الذي أصدره الخليفة الفاطمي في ٢٣ آذار ١١٦٩، وقد جاء منه: «هذا عهد

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٣٨٥.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٧.

أمير المؤمنين إليك، وحجّة عند الله لديك، فاوفِ بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيديك». وقد اختاره الخليفة لاعتقاده أن افتقار صلاح الدين للتجربة سوف يرغمه على الاعتماد على موظّفي الدولة الفاطمية. في البداية رفض الأمير الأيوبي هذا المركز لكنه وافق أخيراً تحت ضغط وإلحاح الخليفة الذي قلّده، أمام جميع الموظّفين العسكريين والمدنيين في قصر الخلافة، رداء الشرف والعمامة، شعاري الوظيفة الجديدة ومنحه اللقب التالي: «الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب» وسلّمه براءة التولية المحرّرة من قبل القاضي الفاضل.[1] بعدها صعد نجم صلاح الدين وأطاعه الأمراء جميعاً وكثر محبّوه وأنصاره وثبّت قدمه في الوزارة المصرية لكنه بالنتيجة فهو نائب عن نور الدين لدى الخلافة الفاطمية. فهو الذي عيّنه، بعد الخليفة العاضد، عند إلقائه الخطبة. وكان نور الدين يعتبره القائد العام لجيشه وقد منحه، بعد موت شيركوه، لقب أمير «الاسفهلار».[1]

كان صلاح الدين الحاكم الجديد، رجلاً حاد الذكاء، نشيطاً وشجاعاً في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم وقد استمال قلوب الناس والأمراء وبذل الأموال فمالوا إليه وأحبّوه وضعف أمر العاضد. بعدها أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يوافق على إرسال إخوته وأهله، «فأرسلهم إليه بعد رفض مؤقت وشرط عليهم طاعته، والقيام بأمره ومساعدته، وكلّهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات المصريين، وأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة».[2] لقد أصبح صلاح الدين قائداً للجيوش السورية، ووزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً لنور الدين السني. كذلك وبفضل دهائه أمر بأن يتم الدعاء للخليفة ولنور الدين في خطبة الجمعة.

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٣٩.

- ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٨.

(٢) ابن الأثير، مماثل لأعلاه.

عاش صلاح الدين في مصر مطمئناً لموقعه لكنه كان يخاف من نور الدين ومن وشايات الأعداء ضدّه، فقرّر أن يقاوم نور الدين عسكرياً في حال فكّر في عزله عن النيابة في مصر. واستناداً إلى هذه الفكرة راح يعمل على كسب محبّة المصريين وعلى إقامة دولة جديدة هناك إذا ما أراد إزالة الخلافة الفاطمية. كان مخطط الملك الناصر، السيطرة على الدولة الفاطمية ومن ثمّ إزالتها وإقامة دولة جديدة تمتدّ خارج الأراضي المصرية باتجاه فلسطين وسوريا. ولأجل إتمام هذا الشيء، كان لا بدّ من الانطلاق إلى سوريا والقضاء على نور الدين نهائياً والسيطرة التامة على بلاد الشام بعد القضاء التام على الخلافة الفاطمية. وبغية تقوية نفسه للسيطرة، تخلّص صلاح الدين من الجنود السودانيين في الجيش الفاطمي لعدم اطمئنانه إلى ولائهم كما وأنه أسند، كما قلنا، مناصب الدولة إلى أنصاره وأقاربه المخلصين وبذلك خمدت المعارضة المناهضة له.

٢ - الناصر صلاح الدين يردّ الفرنجة على أعقابهم عن مصر (تشرين الأول ١١٦٩)

٢١ - حملة مشتركة من الفرنج والبيزنطيين لمهاجمة مصر (سير الاقتراب):

في أواخر أيلول ١١٦٩، وصل الأسطول البيزنطي إلى عكا في فلسطين، فأثار وصوله حماس سكان المدينة. ولم يكن على متنه من المؤن إلاّ لما يكفي ثلاثة شهور وقد أوشكت هذه الفترة أن تنتهي، كما أنه لم يتيسّر الحصول على المؤن في عكا.[١]

في الخامس عشر من تشرين الأول أمر ملك القدس الجيش المشترك بالتجمّع في عسقلان، بعدما ترك قوّة من الفرسان لحماية المملكة، خلال غيابه، من ضغط نور الدين ومطامعه لأنه كان ما يزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق. وكان الأسطول البيزنطي قد أبحر قبل عدّة أيام من عكا متوجّهاً إلى الأراضي المصرية.[٢]

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٣.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٣٩.

في ١٦ تشرين الأول ١١٦٩، تقدّمت القوات الفرنجية زاحفة ببطء، بغية عدم إنهاك قوات المشاة أكثر من اللازم. وفي ٢٥ تشرين الأول، دخل الجيش الغازي مصر عند مدينة الفرما. وكانت خالية من السكان. وتوقّع صلاح الدين أن تتعرّض بلبيس للهجوم، فشحنها بالجنود، غير ان الفرنج اجتازوا الفروع الشرقية للنيل على سفن الأسطول البيزنطي الذي كان قد وصل إليها قبل ثلاثة أيام. أسرع الجيش في مسيره إلى دمياط، الحصن المنيع الذي كان يتحكّم في الفرع الرئيسي للنيل، حيث يستطيع الأسطول أن يقلع منه إلى القاهرة.(١)

أخذ صلاح الدين على حين غرة، فلم يجرؤ على مغادرة القاهرة، خشية أن يتشجّع أنصار الفاطميين ويقوموا بثورة ضده. لكنه أرسل تعزيزات إلى دمياط، وكتب إلى نور الدين يلتمس منه المساعدة.

٢٢ - حصار دمياط:

لدى وصول الفرنج أمام أسوار دمياط، ألقت حاميتها سلسلة حديدية ضخمة في نهر النيل، ربطت البرج بالمدينة ومنعت منعاً باتاً العبور إلى القسم العلوي من النهر لتحول دون مرور سفن الأسطول المعادي التي كانت مهمّتها منع وصول الامدادات والتعزيزات من القاهرة عبر فرع النيل إلى المدينة المحاصرة. ارتاع الفرنجة لما شاهدوه من التحصينات الضخمة، فقرر أموري أن يبني أبراجاً أخرى للحصار على أن أول برج شيّده، وضعه، نتيجة خطأ في التقدير، إزاء أمنع جانب من الأسوار. وتوالى وصول الجنود الجدد والإمدادات إلى المدينة يوماً بعد يوم، على عكس مؤن البيزنطيين الموجودة في الأسطول وعلى الشاطىء والتي أخذت بالنفاد هي أيضاً يوماً بعد يوم، ولم يتقدّم حلفاء الفرنجة، لمساعدتهم رغم توفّر المؤن والأرزاق.(٢)

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٤.
- وليم، مرجع سابق، ص ٩٤٠.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٥.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

في هذه الأثناء أرسل صلاح الدين ابن شقيقه، الملك المظفّر تقي الدين ابن شاهنشاه، وخاله شهاب الدين محمود وبحوزتهما كمية كبيرة من الأرزاق والتعزيزات العسكرية، وقد وصلت إلى داخل المدينة بكلّ سهولة عبر نهر النيل.(١)

كان صلاح الدين لا يثق بالجنود المصريين، فقد بعث برسائل متعدّدة إلى نور الدين، شارحاً له خطورة الوضع وطالباً المساعدة بالرجال والعتاد. لم يتأخّر نور الدين بتنظيم التعزيزات وراح يرسلها أولاً باول، مفرزة وراء أخرى، بينما أوغل هو شخصياً في بلاد الفرنج الخالية تقريباً من المدافعين، مع قوة خفيفة من الخيالة.(١)

أرجأ الجيش الحليف شنّ الهجوم ثلاثة أيام الأمر الذي سمح بوصول «حشد لا يحصى من جيش صلاح الدين مع سفن محمّلة بجنود مسلمين، فامتلأت المدينة حتى التخمة بعدما كانت عملياً فارغة في وقت سابق.

استعمل الفرنجة كافة أنواع المناجيق والعرادات وقذفوا الصخور الكبيرة إلى داخل دمياط واستعملوا أخرى لحماية اللغّامين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكأنهم «داخل كهوف مخيفة، ومن ثمّ حفر أنفاق سريّة تحت الأسوار مما سبّب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاسناد».(٢) وكانت الطرق المؤدّية إلى المدينة قد مهّدت بطريقة جيّدة، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية بالأسوار. واصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرّك الضغط باستمرار على المحاصرين، وكانوا يقذفون بدون انقطاع وابلاً من السهام والقذائف الحجرية، ويبذلون جهوداً جبارة لتدمير الأسوار والمنازل الملصقة بها.(٣)

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٤٧.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٤١.

(٣) وليم، مرجع سابق، ص ٩٤٢.

واجه سكان المدينة هذه الإجراءات بإجراءات أخرى مماثلة، لذلك شيّدوا برجاً عالياً مقابل البرج النقّال الفرنجي ووضعوا بداخله جنوداً مسلّحين لمقاومة أعدائهم من داخل آلة حربية مشابهة، وأن يردّوا على هجمات الفرنج بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة محاولين تدمير البرج الفرنجي، ونظّموا خططاً عسكرية لم يفكّر بها أحد حتى يومذاك «فالحاجة أم الاختراع أو المحنة تطوّر الدهاء».

بدأ الفرنج يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجّب عليهم أن يشدّدوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل، «فمنهم نسبة إلى خيانة ومنهم إلى إهمال واستخفاف».(١)

في هذه الأثناء كان رأي القائد البيزنطي إطلاق الهجوم الشامل على جميع الأسوار، بينما، اموري، كان يعتقد أن هذا الهجوم ينطوي على خطر بالغ الشدة. وقد راجت بين قادة الفرنج، مقولة أن حماس القائد البيزنطي كونتوستيفانوس، يرجع إلى رغبته في أن تكون غنائم دمياط من نصيب الإمبراطور البيزنطي.(٢) وما ان أقبل شهر كانون الأول السنة ١١٦٩، حتى تجلّى فشل الحملة. فليس بوسع البيزنطيين أن يمضوا إلى أبعد من ذلك، نظراً لنفاد الأرزاق والمؤن. إلى جانب ذلك فقد تمكّن رجال صلاح الدين من إنزال سفينة حراقة بين سفن الأسطول المعادي، فألحقت به خسائر فادحة برغم مبادرة أموري إلى التدخّل لمنع استفحال الضرر. وقد انتشرت شائعة مفادها أن جيشاً كبيراً من الشام أخذ يقترب من المدينة.(٣) وقد زاد الطين بلّة، أن الأمطار هطلت قبل موعدها، وحوّلت المعسكر الفرنجي إلى مستنقع. لقد حان الوقت لرفع الحصار. لقد بدأت المفاوضات مع صلاح الدين، وليس معروفاً لنا ما تمّ الاتفاق عليه من شروط. والراجح

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٤٢.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٥.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٦.

أنه تقرّر ان يؤدّي المسلمون للفرنجة تعويضاً مالياً... والله أعلم. ومن المحقق ان الملك اموري كان يأمل في أن إظهار الصداقة لصلاح الدين، قد تبعده عن نور الدين، الذي جرى الارتياب في أن علاقاته بصلاح الدين تفتقر إلى الاخلاص.(١)

في ١٣ كانون الأول ١١٦٩، أحرق الفرنج كلّ أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين، ثمّ تراجعوا من دمياط، فوصلوا إلى عسقلان في ٢٤ من الشهر نفسه.

٣ - ارتياب نور الدين بصلاح الدين الأيوبي

لقد كانت ثقة نور الدين بنائبه شيركوه، ثقة عمياء غير أنه ارتاب في أطماع حاكم مصر الجديد صلاح الدين. ومع ذلك فان تصرّف الملك الناصر ابن أيوب لغاية هذا الوقت، كان بالغ الاستقامة. فبعد فشل حملة الفرنج على دمياط، قوي نفوذ صلاح الدين في مصر، وصار الناس يلهجون باسمه وكأنه المنقذ، وبما أن العاضد، الخليفة الفاطمي كان ضعيفاً، ذو شخصية منكرة محطّمة، فقد خلعه صلاح الدين من الخلافة بأن حذف اسمه من الخطبة العام ١١٧٢ ودعا للخليفة العباسي المقيم في بغداد.

وقبل هذا التاريخ وفي السنة ١١٧٠، أنفذ نور الدين إليه، والده نجم الدين أيوب وبصحبته قافلة من الجنود الزنكيين، للتدليل على صداقته من جهة، وكيما يخصّه فيما يبدو، بلفتة من قبله، من جهة أخرى نظراً لشدّة تعلّق نجم الدين بسيّده نور الدين.(٢) ذهب مع القافلة عدد كبير من تجار دمشق، الذين أرادوا استئناف التجارة بين برّ الشام والقاهرة، وكثير من أصدقاء صلاح الدين. وقد رافق نور الدين هذه القافلة حتى رأس المعلاّ حيث ودّع صديقه الوفي نجم الدين رسمياً، طالباً منه تذكير

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٦.
- وليم، مرجع سابق، ص ٩٤٥ - ٩٤٦.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٤٩.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٧.

ابنه صلاح الدين بأن واجبه الرئيسي هو الجهاد المقدّس ضد الكفرة.[1] ومن ثمّ ذهب الأمير زنكي مسرعاً نحو الجنوب بهدف منع الفرنج من مهاجمة قافلة نجم الدين. وبعد استراحة في عمّان، في بلاد البلقاء، وصل نور الدين بسرعة إلى الكرك، في جنوبي شرقي البحر الميت. واعتباراً من العشرين من نيسان ١١٧٠، ركّز مناجيقه أمام هذه القلعة التي يدافع عنها الفرنجي رينولد دي شاتيون. وكانت هذه القلعة قوية بشكل أنها لا تؤخذ ولا يمكن السيطرة عليها. وأهميتها انها كانت تسيطر على طريقي الحج والقاهرة. بعد أربعة أيام من تركيز الحصار، أُخبر نور الدين بأن الفرنج يزحفون نحوه بقوّة كبيرة عديدها مائتين من الخيالة وألفا من أهل البلاد وعدد كبير من المشاة بقيادة بطلين من أبطال الصليبيين: اونفري دي تورون وفيليب ميللي. وعندما أصبحت هذه القوّة على مقربة من القلعة، رفع نور الدين الحصار وتوجّه لمجابهتها قبل أن تأتيها التعزيزات الفرنجية، فتراجعت من حيث أتت. وهكذا وصل كلّ منهما إلى هدفه: فنور الدين أمّن لقافلته الزاحفة إلى مصر، الأمن والأمان وعدم التعرّض لها في إقليم ما وراء الأردن. والفرنجة أمّنوا رفع الحصار عن الكرك. بعدها عاد نور الدين إلى سوريا. وكانت هذه هي الحركة الوحيدة التي قام بها نور الدين لمناوأة الفرنج. ففي أثناء حملة الفرنج على مصر، لم يعكّر صفو سلامهم، بل انهم استطاعوا في كانون الثاني ١١٧٠، أن يستردّوا قلعة عكار الواقعة جنوبي البقيعة، التي سبق ان فقدوها، ترجيحاً السنة ١١٦٥، وقد أعطاها مع عرقة، باعتباره وصياً على إمارة طرابلس، للاسبتارية (Hospitalier) الفرنج، الذين سيطروا وقتذاك على كلّ الوادي.[2] وفي السنة ١١٧٢ انشأ صلاح الدين ثلاث مدارس، في القاهرة والاسكندرية لنشر

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٥٢.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٥٣.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٢٨.

المذهب السني وأسند المناصب الدينية إلى أهل السنة.

شكّ نور الدين بنائبه في مصر وبولائه له، خاصة عندما طلب إليه إرسال نجدة عسكرية، لمحاربة الفرنج وتقاعس عن ذلك، فقرّر نور الدين مهاجمته في عقر داره - مصر - والقضاء عليه، فأخذ يعدّ العدّة لتنفيذ هذا الهجوم، لكن الحظ كان إلى جانب صلاح الدين، فقد توفي نور الدين فجأة.

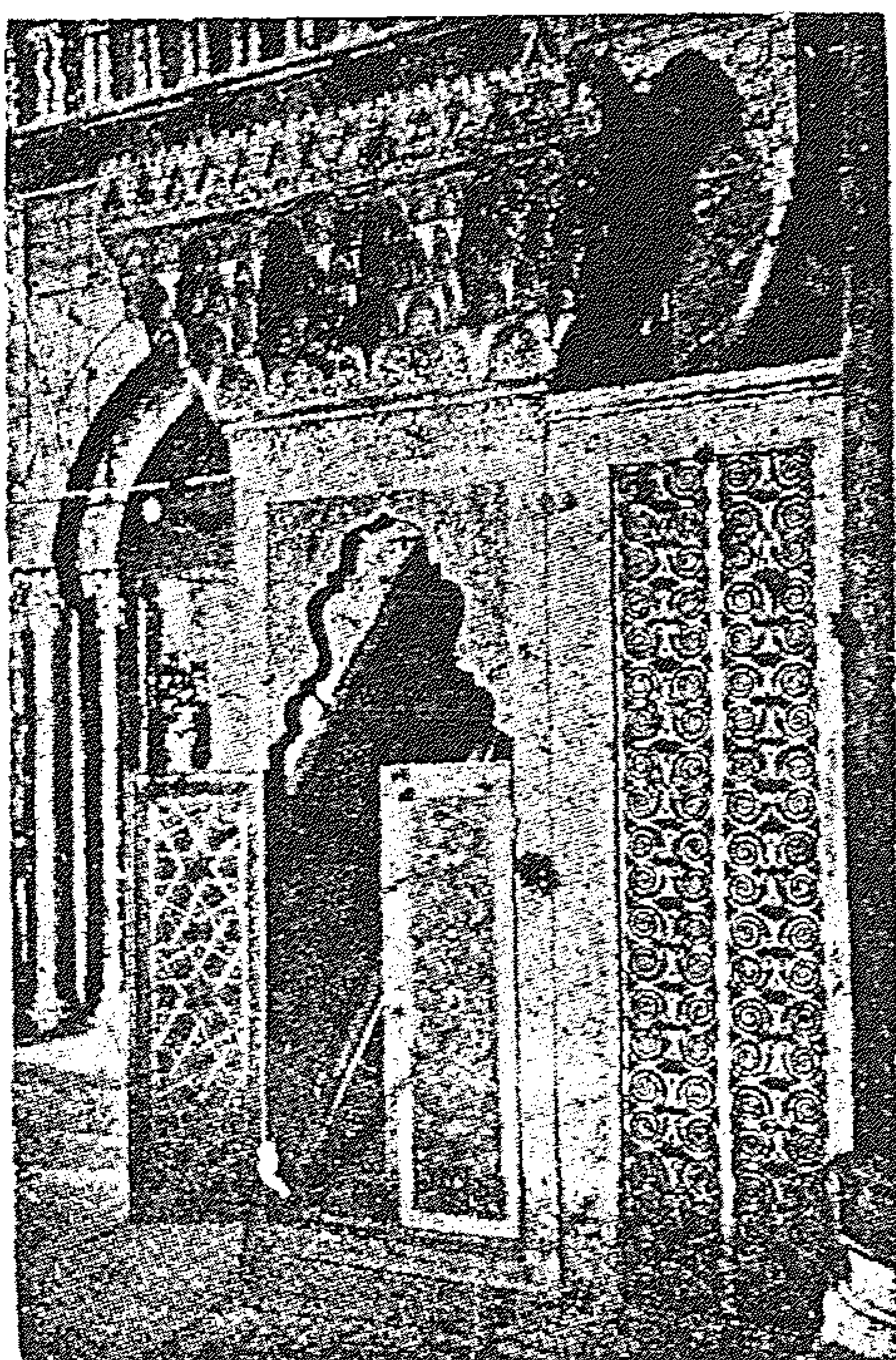
٤ - وفاة نور الدين زنكي (١١٧٤)

كما قلنا سابقاً، لم تعد ثمة حاجة إلى الفرار من غضب نور الدين. ففي ربيع ١١٧٤، قدم الاتابك نور الدين زنكي إلى دمشق لإعداد خطة عسكرية لحملته على مصر. وبينما كان ممتطياً فرسه، مع أصدقاء له، ذات صباح، يتنزّهون في الحدائق، تحدّث إليهم عن تفاهة حياة الإنسان، ولم تنقض سوى تسعة أيام، حتى مات نور الدين في ١٥ أيار السنة ١١٧٤ بالذبحة الصدرية.(١) ودفن في قلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين.(٢)

كان نور الدين حاكماً عظيماً ورجلاً صالحاً، أحبّ العدالة وآثرها على كلّ الأمور، وبعد مرضه الذي ألمّ به منذ ١٩ سنة، صار ينفق معظم وقته في أعمال الخير والتقوى، فاكتسب احترام رعاياه وأعدائه على السواء. وكان شديد التقشّف، وقلّ أن ابتسم، والتزم البساطة في حياته، وسارت أسرته على نهجه. وانفق أموالاً كثيرة على البرّ والإحسان. كان إدارياً حازماً يقظاً. ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه سيفه له من مملكة شاسعة. كان نور الدين في مظهره، طويل القامة، داكن البشرة، أجرد

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٤٣.
- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٦٦٣.
(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٥٦.

منبر نور الدين في المسجد الأقصى



اللحية، دقيق التقاطيع، هادىء الطباع، يغلب عليه الأسى والحزن وكان لعب الكرة هوايته المفضّلة. ويقول ابن الأثير انه «طالعت سير الملوك المتقدّمين فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً للعدل، وكان كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربّه
ما أحسن المحراب في المحراب»[1]

«وقد بنى أسوار مدن الشام جميعها، وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى المسجد النوري في الموصل والخانات في الطرق... وكان يكرّم العلماء ورجال الدين ويعظّمهم ويقوم إليهم ويجلس معهم ولا يردّ لهم قولاً... وبالجملة كانت حسناته كثيرة ومناقبه غزيرة... رحمه الله».[1]

٥ – وفاة الملك الفرنجي اموري (١١٧٤)

خلف نور الدين في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل، وهو لم يتجاوز الحادية عشر عمره وكان بصحبة والده في دمشق. وانتزع الأمير ابن المقدّم لنفسه الوصاية بدمشق، بعد أن ظفر بتأييد والدة إسماعيل. كما ان كمشتكين والي حلب، أعلن نفسه بها وصياً وتدخّل أمير الموصل سيف الدين، ابن عم اسماعيل، فأضاف إلى أملاكه نصيبين وكلّ بلاد الجزيرة حتى الرها. أما صلاح الدين، فكتب إلى أمراء دمشق يطالب بأن تكون له الوصاية، غير أنه لم يكن من القوّة آنذاك ما يدعوه إلى المضي في دعواه.[2] على أن تداعي وحدة المسلمين هيأ للفرنج فرصة، بادر اموري إلى اغتنامها. ففي حزيران ١١٧٤، زحف الملك الفرنجي قاصداً بانياس، وخرج ابن المقدم من دمشق فالتقى به وعرض عليه عقد هدنة

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٥٦ – ٥٧.
(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٥٩.
– رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٧ – ٥٨.

فقبل الملك مشترطاً عليه تأدية مبلغاً ضخماً من المال وان يطلق سراح جميع أسرى الفرنج في دمشق، وأن يعقد معه في المستقبل محالفة لمناهضة صلاح الدين.

ويقال أيضاً: ان الملك لمّا علم بوفاة نور الدين حشد قوات المملكة كافة على الفور، وزحف إلى بانياس حيث ألقى الحصار عليها. وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النسوة رسالة إلى اموري طالبته فيها بالتخلّي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقّتة، ووعدت أن تدفع له مبلغاً كبيراً من المال، فواصل الملك الحصار على أمل ابتزاز رشوة أكبر. وقد بقي الحصار خمسة عشر يوماً وسبّب مظالم كبيرة للسكان لكنه دفعهم إلى التشبّث بقوّة للدفاع عن مدينتهم. وأخيراً قرّر الملك قبول المال الأول ورفع الحصار بعدما أطلق المسلمون عشرين من الفرسان الفرنج.(١)

وكان اموري يومذاك، يعاني من مرض الإسهال (الدوزنطرية). ولما تمّ توقيع الاتفاق، ركب الملك عائداً إلى القدس، مجتازاً في طريقه طبرية ونابلس، وما ان وصل عاصمته حتى اشتدّ به المرض ولم تنفع معه العلاجات المعروفة آنذاك. وفي ١١ حزيران ١١٧٤، توفي الملك ولم يكن قد ناهز الثامنة والثلاثين من عمره.(١)

إن وفاة نور الدين زنكي والملك اموري أنقذت صلاح الدين ومهّدت الطريق لانتصاراته المقبلة. وكانت نذيراً بزوال مملكة القدس وإمبراطورية آل زنكي.

٦ – جيش نور الدين زنكي

٦١ – العديد:

حقيقة، يجهل المؤرّخون كم كان العديد الحقيقي للقوات النظامية لنور الدين زنكي ولقوات حلفائه. ولا نعلم أي شيء عن عدد المتطوّعين الاختياريين الذين كانوا يلتحقون بالجيش الزنكي للقتال معه طيلة الحملة العسكرية. لم يكن هناك جيش بالمعنى الذي نعرفه اليوم. فبين الحملة

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٦٩ – ٩٧٠.

العسكرية والأخرى، كان الرجال يمارسون أعمالاً أخرى ولم يكن لهم ثكنات عسكرية.(١)

ورث نور الدين قسماً من جيش والده الأتابك عماد الدين، ذاك ان متطوّعي الموصل عادوا إلى الجزيرة عشية وفاة عماد الدين ليدخلوا تحت إمرة سيف الدين غازي. ولمتابعة الجهاد المقدّس الذي قاده والده، كان بخلافة نور الدين عدد من الأمراء الأكراد والترك. لقد قام جيشه أساساً على العنصر التركي - الكردي الغريب أصلاً عن سكان بلاد الشام.

بالنسبة للتطويع، مما لا شك فيه أنه كان يوجد سجلات ترعى هذا الشيء تسمى «ديوان الجيش». وهذا الديوان كان يقسم إلى قسمين رئيسيين، الأول لإدارة الجيش ويهتم بتنظيم ومعالجة العديد والذخيرة، والثاني ينظّم الرواتب. وفي عهد نور الدين زنكي الغي ديوان الرواتب ليحل محلّه «ديوان الاقطاع».(٢)

في السنة ١١٢٣، قام الفرنج بغزوتين ضد حلب، الأمر الذي سمح لنا أن نأخذ فكرة عن عديد الخيالة يومذاك في البلاد السورية.

خلال هاتين الغزوتين، اشترك في المرة الأولى حوالى الخمسماية فارس وثلاثماية في المرة الثانية. وعلى ما يبدو فحلب كانت تفتقر إلى الخيالة، فلقد كان الزنكيون يأتون بالخيالة التركمان من الجزيرة في العراق، لسدّ النقص الحاصل.(٢)

وابتداءاً من العام ١١٤٩، برز عنصر الخيالة التركمان، في كلّ الغزوات والحملات التي كان نور الدين يقوم بها. وفي أغلب الأحيان، كان لهم الفضل الرئيسي في ربح المعركة. ففي معركة اينب كان عديد فرسان نور الدين حوالي الستة آلاف. وهذا العدد ارتفع فيما بعد إلى عشرة آلاف عندما كانت تصل التعزيزات من الموصل والتركمان والبدو.(٣)

خلال حكم نور الدين، كان لدى كلّ أمير من أمرائه «عسكره» الخاص به. فأمير

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢١.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٢.

(٣) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٢.

حلب كان عديد جيشه حوالى الألف فارس أي ضعف العدد الذي كان السنة ١١٢٤. أما في دمشق، فقد وصل العديد السنة ١١٧٣، إلى الألف أيضاً بقيادة شمس الدين بن المقدم. في نهاية حكمه، كان عسكر نور الدين من الخيالة لا يتعدّى الثلاثة آلاف مقاتل. وفي الموصل كان عديد العسكر حوالى الألفين يمكن ان يعزّز بأربعة آلاف وخمسماية فارس. والجدير ذكره أن شيركوه كان لديه في حمص قوة من خمسماية فارس.

أما العسكر النظامي فقد شكّل ضمن وحدات من «الطولب»، وهي كلمة تركية تعني «فصيلة» يتراوح عددها من سبعين إلى مائتي رجل، توزع لهم الأسلحة من مخازن تسمّى «الزردخانة»، ويمنح لهم «تعويضاً أولياً» عند بدء الحملة أو الغزوة.(١)

في العام ١١٥٧، وبعد الاشتباك الذي وقع بين قوات نور الدين وقوات ملك القدس، بودوان الذي نشبت قرب بحيرة طبريا، أحصي قتيلان من جهة المسلمين وأربعة من جهة الفرنج، مما يسمح بالقول ان عديد المقاتلين في كلا الجهتين لم يكن كبيراً.

في السنة ١١٦٧، وأثناء الحملة الثانية على مصر، كان عديد خيالة أسد الدين شيركوه حوالى الالفين من الفرسان، يقابلهم حوالى ٣٧٤ فارساً فرنجياً معزّزين بخادمين لكلّ فارس وبحوالي الألف من المصريين، فيصبح عدد المقاتلين عند الفريقين المتخاصمين، متعادلاً تقريباً.

وعندما باشر شيركوه حملته الثالثة على مصر منحه نور الدين مائتي ألف دينار، كسلفة حرب، وزوّده بالسلاح والحيوانات وسمح له باختيار ألفي رجل من القوات النظامية ومنح لكلّ واحد منهم عشرين دينار «كتعويض أولي» عند بدأ هذه الحملة. وقد تمكّن شيركوه من استئجار خدمات ستة آلاف فارس تركماني، من قبيلة «ياروقي». لقاء دفع البدل. يضاف إلى هؤلاء الثمانية آلاف مقاتل، عسكر شيركوه الخاص بصفته أمير حمص، وكانوا

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٣.

خمسماية من المماليك عدا عن الأكراد والمساعدين.[1] بعد موت شيركوه، برزت إلى العلن، الخصومات والصراعات بين القادة والمقاتلين الأتراك الزنكيين ومنافسيهم الأكراد في الحملة المصرية. وعندما استلم صلاح الدين الأيوبي، السلطة، رجع عدد كبير من قادة نور الدين الأتراك مع وحداتهم وكذلك الخيالة التركمان إلى سوريا. أما الأكراد، المخلصين للأيوبيين فقد بقوا في مصر، وعلى الأخص منهم «الاسدية» الذين كانوا يخدمون تحت القيادة المباشرة لشيركوه. وفي السنة ١١٧١، استعرض صلاح الدين جيشه في القاهرة فكان مؤلّفاً من ١٤٧ «طولبا»، وعشرين بوضع الغياب، أي ما يعادل حوالى أربعة عشر ألف مقاتل، أكثرهم من الطواشية والباقي من الكرغولامية.

بعد عشر سنوات، أي العام ١١٨١، كان لدى صلاح الدين ٨٦٠٠ مقاتل وأكثر من مئة أمير وحوالي ستة آلاف من الطواشية وألف وخمسماية كرغولي.[2]

٦٢ - عديد الجيش الفرنجي الذي قاتل نور الدين:

مما لا شكّ فيه، أن معلوماتنا، عن عديد الجيش الفرنجي الذي قاتل نور الدين، هي أشمل وأدق من تلك التي استقيناها عن الجيش الزنكي. ولكن يجب علينا أن نرتاب من كتّاب السِيَر، يومذاك، الذين يميلون دائماً إلى تضخيم عديد القوات المتصارعة. فالعدد ٦٠ ألفاً، المعطى لكلّ من جيش لويس السابع وكونراد الثالث في الحملة الفرنجية الثانية، والذي اعتمده المؤرّخ غروسيه،[3] لا يمكن تصديقه، ذاك أن لويس ملك فرنسا، كان بإمكانه، في أحسن الأحوال، أن يجنّد سبعماية فارس، وكونت فلاندر، ستماية فقط. كان متوسّط عديد سرية الخيالة الفرنجية لا يتعدّى المئة فارس، فأمير طرابلس الفرنجي كان لديه

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٤.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٤.

(٣) غروسيه، ج ٢، ص ٢٢٧.

سرية خيالة فقط والأمير بودوان استولى على الرها بثمانين من الفرسان إلى جانب السكان الموالين له.[1] لقد دافع الفرنج، كما نذكر، عن غزة بحوالى ٨٠ من فرسان المعبد.

بعد الحملة الفرنجية الأولى، كان عديد القوات الصليبية في انطاكية يتراوح بين ٥٠٠ و ١٢٠٠ من الفرسان. وفي العام ١١١٩، خاض روجيه، أمير انطاكية معركته بجيش قوامه ٧٠٠ فارس و٣٠٠٠ من المشاة.

في السنة ١١٤٩ - ١١٥٠، أرسل بودوان الثالث، الأمير أونغروا طورون ومعه ٦٠ فارساً، بمهمّة مساندة معسكر «عزاز» وتغطية انطاكية. وفي معركة البابين العام ١١٦٧، كان مع ملك القدس، اموري، ٣٦٠ من الفرسان الفرنج، قتل منهم أثناء المعركة حوالي المئة.

في بداية حكم نور الدين زنكي، كان جيش مملكة القدس يتألّف من ٥٧٧ فارساً و٦٠٢٥ من المشاة. وفي نهاية حكمه، تدنّى عديد الخيالة إلى ٢٦٠ من الفرسان، وكانت الخسارة يعوّضها باستمرار وصول أعداد جديدة من الفرنج.[2]

٦٣ - تنظيم جيش نور الدين:

أ - الخيالة:

كان العظيم من خيالة نور الدين، يتألّف من العناصر التركمان الذين يتقنون رمي السهام وهم ركوباً على ظهور جيادهم، ومن العناصر الكردية وخاصة أكراد الشاهرزورية. وكان فرسان الطواشيه، غير المقيّدين، يؤلّفون القسم الأهم من خيالة الجيش الزنكي. وكان للفارس الطواشي، فرسه الخاص وخادمه، ويُسمّى «غلام». يتلقّى جعالة مالية تتراوح بين سبعماية وألف ومايتي دينار للاهتمام بركب (براك) من عشرة رؤوس من حيوانات الجر والحمل

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٥.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٥.
- غروسيه، ج ٢، ص ٢٩٠.

والركوب مثل الجياد والبغال، بغية استعمالها للصالح العام.(١)

كان لزاماً على الأمراء الخدمة بضعة أشهر في السنة، بعدها يتغيّبون حتى تأتي الفترة الثانية، كان لكلّ أمير ذو شأن، بيرقه الخاص «العلم»، يجمع حوله مقاتليه. إلى جانب هؤلاء الفرسان، كان لدى الزنكيين قوات مساعدة من عرب البدو، وقد برع هؤلاء في عمليات السرقة والنهب. وكان الأهالي ينظرون إليهم بعين الريبة لقيامهم بعمليات تهريب القمح مع الفرنج، حتى انهم كثيراً ما كانوا أدلاّء للصليبيين على تخوم الصحراء الفلسطينية. ثمّ يأتي بعدهم، «الغزاة» الذين يؤلّفون عصابات غير نظامية، ليجاهدوا مع المسلمين ضد الفرنج في كلّ المواقع.(٢)

لحماية نفسه، كان الفارس في جيش نور الدين يحمل ترساً يقيه الضربات العدوّة ويضع على رأسه خوذة كروية ويلبس درعاً مزرّداً قصيراً. وكان سلاحه، للقتال وجهاً لوجه، السيف والدبوس الذي يعلّقه في السرج، إنما سلاحه المفضّل كان القوس. ويستعيض عن اعورار تجهيزاته، بحراكية مطيته القصوى وبسرعته وحذاقته كرام تقن في رماية القوس من عن صهوة الجواد. كان فرسان نور الدين يمتطون الجياد العربية الغالية الأثمان، الصبورة على التعب. وذات السرعة المدهشة. ومع أن طعامها العشب لا غير وحفنة من الشعير، فهي تعمل اليوم بكامله بلا كلل ولا ملل. يسيرون جماعات ويحاربون أفراداً بين كرّ وفرّ. والأمر كلّه يتوقف على سرعة الجواد وخفّة جرية وحراكياته.

وكان الفرسان، في أيام السلم يتدرّبون على القتال عن صهوة جيادهم في ميادين خاصة أنشأها نور الدين في المدن والبلدات. يتدرّبون على رمي الجريد والضرب بالسيف والرمي بالقوس على أهداف متحرّكة أو ثابتة. اهتمّ نور الدين كثيراً لإبقاء قواته في حالة جيّدة جداً، إن من جهة التدريب أو التسليح، لذلك أعدّ،

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٢٩.

(٢) مماثل، ص ٧٣٠.

خارج أبواب حلب ودمشق، أراض للتمارين في أمكنة مقفلة، تسمّى «ميدان». ففي دمشق كان يوجد «الميدان الأخضر»، في غربي المدينة، على ضفاف نهر بردى.(١) بينما في جنوبي المدينة، فقد كان «ميدان الحصى» ولا يزال اسمه حاضراً حتى يومنا هذا. أما في حلب فقد كان «الميدان الأسود» الذي أنشأه نور الدين بالقرب من باب العراق، مكاناً لتدريب الخيالة التركمان، وكانت مقاييسه على الشكل التالي: الطول ٣٩٣ ذراع ونصف والعرض ١٦٦ ذراع.(٢) أما داخل القلعة نفسها، فقد أعدّ نور الدين الميدان الأخضر نظراً للأعشاب الخضراء التي زرعها في أرضه.

كان نور الدين رياضياً كبيراً وفارساً ماهراً، وكانت هوايته المفضّلة «لعبة البولو» وكان يلعبها حتى أثناء الليل على أنوار المشاعل. وكانت التمارين الأكثر شيوعاً هي: لعب الجريد، رمي القبق ولعب الكرة.(٣)

ب - المشاة:

لا يظهر عناصر المشاة في جيش نور الدين إلاّ عندما تستوجب الحملة العسكرية حصاراً لإحدى القلاع أو الحصون أو المدن أو عندما تكون العمليات واسعة النطاق. وفي سلاح المشاة كان يوجد عدّة اختصاصات منها: النبّالون والسهّامون وحاملوا الدبابيس والحراب والرماح. وعناصر المشاة كانوا موزعين في مختلف الوحدات الاختصاصية: كالحجّارون وهم سدنة المجانيق، يجهّزون قذائف الحجارة ويطلقونها بواسطة المجانيق - والنقّابون واللغّامون الذين كانوا يستعملون المعاول والفؤوس. وأغلب هؤلاء العناصر كانوا من خُرسان أو من أرمن حلب وكانوا مشهورين بأعمال الحفر والنسف وترميم التحصينات الدفاعية. وكان هناك أيضاً الحفّارون والنجّارون الذين كانوا يلعبون دوراً مهماً مع الجيوش المحاصِرة.

(١) بقي هذا الميدان حتى عام ١٩٤٦، أما حالياً فقد بنت الحكومة على أرضه، إنشاءات المعرض الدولي السنوي.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٠ - ٧٣١.

(٣) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٢.

وأخيراً كان الصنّاعون (الصنّاع) الذين يتقنون أعمال البناء والمقدّمون أي رؤوساء عمال الورش.[1]

إلى جانب كلّ هؤلاء، كان «النفّاطون» أو «قاذفو اللهب» ينضوون في وحدات اختصاصية ويتقنون تجهيز وإعداد النفط واستعماله عند الطلب.

إن تقنية استعمال النار السائلة (النار الإغريقية) منحت المسلمين تفوّقاً كبيراً على الفرنج. لقد استعمل عماد الدين زنكي النفط ضد الصليبيين في الرها. وكذلك جيش الوزير شاور في تشرين الثاني ١١٦٨ لحرق الفسطاط في مصر. وفي الصيف التالي، استعملها صلاح الدين لإنهاء عصيان العبيد في القاهرة.[1] وتقنية استعمال النفط كانت بذرّه على الأرض وإشعال النار فيه.[1]

وقد تفنّن المسلمون في صنع النفط ومزجه بأجسام أخرى لرفع حرارته، فمزجوه بالكبريت وغبار الفحم وصمغ الصنوبر وأضافوا إلى هذا المزيج كلس الجير أو ملح البارود.[1]

إلى جانب هؤلاء «العسكر» كان «المتطوّعون» الاختياريّون «الفقهاء» والصوفيون الذين يشتركون فقط في حملات الجهاد المقدّس ولمدّة محدّدة، يدفع لهم أسبوعياً وكانت تجذبهم الأرباح. لم تكن قيادتهم سهلة فأثناء حصار نور الدين لبانياس، كان القسم الكبير من قواته من هؤلاء المتطوّعين، فلم يمض وقت طويل، حتى قرّروا العودة إلى منازلهم، مدّعين صعوبة الحصار وطول مدّته. لقد كانوا على بيّنة أن صناديق الأموال عند نور الدين أصبحت فارغة وخافوا ان يطلب الاستدانة منهم لمتابعة الحملة. حلّ نور الدين القضية بأن سمح لهم بالمغادرة بعدما حدّد موعداً جديداً في الربيع المقبل.[2]

أما عسكر «الغزاة» أو «مقاتلو الجهاد المقدّس»، فقد تكوّنوا من عصابات غير نظامية، تغويهم المكاسب الأرضية أكثر

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٣.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٥.

بكثير من المغانم السماوية، ودوماً جاهزون للمشاركة في قتال الكفّار. ومن الموافق أيضاً أن نذكر «البطّالون»، وهم الرجال الذين لا يعملون شيئاً ويتلقّون العطاءات ويقبضون النفقات.

ج - الرواتب:

كلّ مقاتل يشترك في القتال، له الحق أن يقبض راتباً أو بالاحرى، «عطاء المحارب»، يرصد له من «ديوان الجيش» وأثناء دفع الرواتب، يعود القيّم إلى العديد المقيّد في السجلات (الدفتر)، حيث نجد أسماء المقاتلين والحيوانات الموسومة بالحديد الحامي.

أما غنائم الحرب فقد كان حجمها، في أغلب الأحيان، كبيراً. وقد وضعت لها قواعد دقيقة عند اقتسامها بين العسكر، ومن جملتها تمييز حصّة رجل المشاة عن مثيلتها لدى الفارس الذي يحق لهذا استلام حصّته الشخصية وحصّة مطيته.(١)

ولتوزيع المغانم، كان لدى جيش نور الدين «ديوان» خاص يشرف عليه قاض. ويضاف أحياناً إلى الراتب، مخصّصات عينيّة أو تعويضات خاصة لتشجيع النشيطين من الجنود.

أما الممتلكات المنقولة وغير المنقولة، المسلوبة من العدو، والتي كانت تخصّ المسلمين، يجب أن تعاد إلى مالكيها، في حال أُفيد عنها من قبل أصحابها قبل قسمة المغانم. وانطلاقاً من هذا المبدأ، أعاد الاتابك عماد الدين زنكي إلى سكان معرة النعمان، الأراضي التي كان الفرنجة قد سلبوها منهم.(٢)

د - التوجيه والمعنويات والصحة:

إلى جانب الوحدات المقاتلة، كان يوجد في جيش نور الدين، مصلحة حقيقية تتعلّق بالتأثير النفساني والمعنوي، ويعمل فيها أمام ومرشد عام وعدد من قارئي القرآن الكريم وقاض ملحق بالجيش، يفصل

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٦.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٦.

بالمنازعات ويشرف على الغنائم قبل توزيعها. أما من الناحية الصحية فقد كان يوجد أطباء صحة وجرّاحون لمعالجة المرضى والجرحى. أما من جهة العناية الصحية، فقد كان يهتم بها عناصر لنقل المصابين وممرّضون وصيدلانيون.

هـ - التموين والإمداد اللوجستي:

إن عمليّة التموين والإمداد (Ravitaillement)، لم يذكرها الكتّاب الغربيون ولا المؤرّخون العرب. لذلك نجهل تماماً على ماذا كانت تحتوي الوجبة اليومية للجندي في جيش نور الدين، فالمؤرّخ العربي أبو شامة، لحظ قافلة تموين يقودها أمير زنكي.

كان عناصر القوات الإسلامية، يعتمدون، بالنسبة لحيواناتهم، على مراعي البلاد التي يقاتلون فيها. لذلك وجب عليهم، مسبقاً، معرفة موارد المنطقة التي سيهاجمونها، لتحديد مهمة مصلحة التموين للقيام بعملية إمداد المقاتلين ومطياتهم.[1] مجهّزين ليقاوموا البرد والصقيع. هذه هي طبيعة الأشياء في سوريا خلال الفترة الواقعة بين شهري كانون الأول ونيسان من كلّ سنة.

خلال مواسم الحصاد، وحول نهاية شهر نيسان، كان من الصعب تجنيد قوات عسكرية للقيام بحملة جديّة. فأمير المقاطعة، لا يمكنه، في هذه الفترة من السنة، ان يغيب عن أرضه. فأحياناً كان عليه ان يدافع عن غلاله ضد القطعان التي يرسلها عدوّه إلى المراعي الواقعة في حقوله، وأحياناً أخرى كان هو نفسه يقوم بغزوات سريعة على أراضي جيرانه لإتلاف غلالهم ومحاصيلهم، انه تنازع البقاء.[2] لذلك نرى أن المعارك والحروب كانت تقع إجمالاً في الفترة بين نهاية فصل الربيع وامتداداً حتى بداية فصل الخريف من كلّ سنة.

من جهة أخرى كان المتطوّعون الاختياريون والمساعدون لا يخدمون طيلة

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٧.

(٢) ابن الأثير، ج ٥، ص ٤٢٨.

- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٨.

مدّة الحملة لأنه كان من المحتمل أن يعودوا إلى أملاكهم وأراضيهم للدفاع عنها. وعندما تنتهي الحملة يعود كلّ متطوّع إلى بيته بانتظار الحملة التالية في نهاية الربيع.

لا يباشر الجيش حملته العسكرية، إلاّ بعدما يطّلع القائد، على كافة تقارير عملائه الذين ينقلون إليه المعلومات المتوفّرة الصحيحة والدقيقة عن خصمه وعن بقع التجمّع ونقاط المياه. وعند المباشرة بالتحرّك، يرسل مفرزة سبّاقة بأمرة رائد ومعه كشّافين، مهمتهم تحديد موقع المعسكر. في الجيش يتقدّم المشاة والفرسان سوية وفي بعض الأحيان، يركب جندي المشاة وراء الفارس.(١) يتبع الجنود البيارق التي تدلّ على مكان وجود القائد والتي هي في الوقت نفسه، علامة تجمع العشائر أو القبائل.(١) تُنقل الأثقال، وعتاد التخييم، ومعدات الحصار بعد فكّها قطعة قطعة، بواسطة الجمال والجياد والحمير والبغال. وفي عهد نور الدين كانت العوائق ترسل إلى الأمام. وإذا كانت الحملة ستطول في الزمن، فقد كان الجيش يجلب معه في المؤخّرة قطعان الغنم والبقر.(٢)

أثناء تقدّم الجيوش، كانت المرحلة اليومية تعادل حوالى الثلاثين كيلومتراً. أما مكان المعسكر فيختاره المسؤولون حيث توجد المياه والكلأ بكميات متوافرة. وكانوا يتحاشون التعسكر في المنخفضات أو المستنقعات. فالموقع الأمثل يجب أن يكون في الأرض المرتفعة أو المنبسطة والجافة.(٢) تنصب خيام المعسكر على شكل ثلثي الدائرة وفي مركزها تكون خيمة القائد. ويضعون الخفراء في المحيط الخارجي للمعسكر. ولحماية أفضل كانوا يحفرون حفرة ويضعون فيها الأفخاخ (المطلاطا).(٢)

ولأجل تحاشي منع المفاجأة، كانوا يركّزون مسالح تحيط بالمعسكر على بعد حوالى أربعة كيلومترات (اليزاك YAZAK)، وهو بمثابة جهاز إنذار وتلقي وكبح تقدّم

---

(١) ابن الأثير، ج ٥، ص ٤٢٨.

- نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٨.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٩.

العدو. وعندما يصبح الجيش قريباً جداً من الخصم، يوجد دائماً بمواجهته قوّة صدم تسمى الكراريا (Karariya). وكان نور الدين يحاول دائماً إرسال عملاء له لتعمل في صفوف العدو.(١)

في الحملات التي قامت بها قوات نور الدين في مصر، كانت الصعوبات جدّ كبيرة، خاصة، في معركة «البابين»، فقد قاتلت في منطقة صحراوية تفتقر إلى المؤن الغذائية والمراعي. لقد ارتكبت قيادة الجيوش الإسلامية خطأً كبيراً لأنها لم تدرس أرض المعركة وما يحيط بها، درساً مستفيضاً، وإلاّ لما وقعت بما وقعت به. فالامداد في مثل هذه الظروف واجب وإلزامي وإلاّ فالخسارة متوقّعة في كلّ حين.(٢)

في بلاد الشام خاصة، وأثناء المعارك، كان «السبيلة» وهم التجار، وبائعو المأكولات للجند، يسيرون وراء الوحدات المقاتلة ويتوقفون في كلّ محطّة توقف للقيام بعمليات البيع والشراء. وفي المعسكرات، كان يفتح سوق للبيع يسمى «سوق العسكر». في هذا السوق، كنا نجد بائعي اللحوم المشوية وأصحاب المطاعم المتواضعة يصنّعون مأكولاتهم ويبيعونها في الهواء الطلق، حيث كانوا يقدّمون للجنود، المقليات والتوابل على مختلف أشكالها وأنواعها.(٢)

٦٤ - الجيش في الميدان:

في عهد نور الدين، وخلال كلّ القرون الوسطى، بقيت الحروب في الشرق مواسمية. وكانت الحملات العسكرية نادراً ما تنفّذ في فصل الشتاء، ذاك أن الوحول تصبح معيقة. وتحرّك القوات العسكرية، تبطئه الأراضي المليئة بالمياه. أثناء تقدّم الجيش الزنكي، يجب أن نميّز نوعين من العمليات العسكرية: الغارة الموسمية في الربيع أو في بداية الصيف، والحملة العسكرية لمدّة محدّدة. خلال

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٩.
(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٣٧.

الغارة، تتوغّل الخيالة عميقاً وسريعاً في أرض العدو، وتمارس عمل الغرية (Guérilla)، فتتلف الغلال، وتدمّر الآبار وتفسد الحياة الاقتصادية، لكنها لا تحتل أي مركز عسكري عدو. وبعد جمع الغنائم وسلب المواشي، يعود الخيالة إلى قاعدتهم. ولمهاجمة العدو وطرده من مركزه المحصّن، كان نور الدين ينظّم حملة عسكرية تعمل على مرحلتين: الأولى، «حرب الحركة» والثانية «حرب الحصار». وحرب الحصار هذه، كان هدفها الاستيلاء على الحصون، حيث احتلالها يؤمّن له مكاسب إقليمية. فمن هذه الحصون يمكن السيطرة على غلال البلاد المجاورة.(١)

٦٥ - تكتية القتال عند نور الدين:

كانت تكتية القتال عند نور الدين، تتكيّف مع الظروف: فهناك عمليات الإرهاق والقتال الجبهي والحصار.

أ - الإرهاق:

واحدة من المناورات الأساسية لنور الدين والأكثر تكراراً كانت: أن يفصل الخيالة عن المشاة وان يفصم تماسك وحدات الخصم بالإرهاق.

في هذا النوع من العمليات، كان الفرسان الزنكيين، المسلّحين أساساً، بالأقواس والسهام، ينفّذون عرضاً فروسياً حقيقياً حول رتل العدو المتقدّم، فيهاجمونه من الجنب، ويرهقون مؤخّرته ثمّ يطلقون عليه وابلاً كبيراً من السهام ثمّ يتوارون. وعندما تتصدّع خطوط العدو، وتقتل الجياد أو تقع جريحة، ينظّم الفرسان التركمان صفوفهم بكوكبات متراصّة ويهجمون بشدّة على العدو، واضعين خارج القتال، واحداً تلو الآخر، من مقاتليه المعزولين. وهذا النوع من القتال، كان جديداً على الفرنج الذين كانوا لا يحسنون القتال أثناء التقدّم بسبب البطء في حراكيتهم التكتية، ومع الأيام اكتسبوا خبرة كبيرة وأصبحوا على المستوى نفسه مع المسلمين.(٢)

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٠.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٢.

ب - القتال الجبهي:

خارج الكمائن، كانت المعارك التي يحكمها عنصر المفاجأة نادرة جداً، ذاك أن، في المعسكرين، كان يوجد كشّافون، مهمتهم تأمين جلب المعلومات عن العدو. من جهة أخرى كان الدخول في المعركة، بصورة عامة، نتيجة لقرار منطقي يستند على تداول الاراء. حتى القرن الثاني عشر، كان القتال الجبهي يجمع الخيالة، السلاح الأهم، والمشاة التي كان عديدها ضعف عديد الأولى. وحقيقة الأمر، كانت المشاة كناية عن سدّ يمنع العدو من الوصول إلى الخيالة، فتقوم إما بدور تحضيري للاقتحام، بواسطة سهامها وإما بتحطيم اندفاع العدو بواسطة حرابها.(١) ويبدو انه في عهد نور الدين، أعطيت إلى المشاة الاسلامية، أهمية أكبر وأشمل مما كانت لها في القرون السالفة.(١)

كان الجيش الزنكي، في ميدان القتال، يأخذ الترتيبات القتالية التالية: القلب والجناحين، على صفوف ثلاثة. الصف الأول، يتألّف من عناصر المشاة المجهّزين بالدروع: فيضعون الركبة اليسرى على الأرض وراء الدرع ويمسكون بأيديهم الرماح الطويلة المغروزة في الأرض على زاوية ٤٥° تقريباً. ويشكّل هؤلاء المقاتلون الخط الدفاعي الأول. في الصف الثاني ووراء كلّ اثنين من المقاتلين نجد رامي النبال مع قوسه اليدوي. وكانت مهمة هذا الصف ردّ هجمة الخصم بواسطة سهامه. أما في الصف الثالث، يصطف الفرسان على سروج خيولهم. وإلى جانبهم وبعيد قليلاً، يصطف الفرسان على سروج خيولهم، وإلى جانبهم وبعيد قليلاً، نرى «الأبطال» وهم خيالة النخبة، جاهزون للتدخّل السريع لحماية التراجع أو للهجوم على معسكر العدو.

تكمن الصعوبة، عند ابتداء المعركة، في إمكانية السيطرة على الجند، فعلى القائد أن يعمل المستحيل للحدّ من الأخطار ولمسك رجاله بين يديه.

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٢.

ج - الكرَ والفر:

في الوقت المتفق عليه، وبعد احتواء العدو، تبتعد صفوف مشاة الوسط عن مراكزها، لتلتحق بالجناحين، تاركة ميدان القتال حراً للخيالة لتنفيذ مناورة الكرّ والفر. ففي هجوم مفاجىء، تدخل خيالة نور الدين، الموجودة في وسط الجهاز، في تماس مع العدو، ثمّ تتظاهر بالضعف وتتراجع إلى الوراء هاربة دون مقاومة، فتلحق بها خيالة الفرنج بحماس كبير لتدميرها.

فالوقت الحسّاس هو الوقت الذي تقوم فيه خيالة نور الدين بالعودة بالاتجاه المعاكس لتنفيذ هجوم ردّي ضد هؤلاء.

هذه المناورة، دقيقة إلى حدّ كبير، فيجب أن تنفّذ عندما يدمّر رجال الجناحين، قوات الفرنج التي لم تشترك بملاحقة خيالة الزنكيين. والأدهى من كلّ ذلك، أن خيالة الفرنج العائدة إلى مراكزها تحت ضغط خيالة نور الدين، تقع في مصيدة أو بين فكّي كماشة: الخيالة من الوراء وقوات المشاة من الأمام. فتقع المجزرة، ومن ينجو من القتل سيقع أسيراً في قبضة الزنكيين. وإذا عدنا إلى السنة ١١٦٤، وفي حصار «حارم» يبدو لنا ان نور الدين نفّذ بدقّة عملية الكر والفر. وفي الحملة الثالثة على مصر سنة ١١٦٧، نفّذ شيركوه مناورة الكرّ والفر ضد الفرنج على رأسهم الملك اموري.

من هذه الأمثلة، يمكننا الاستنتاج أن دور الخيالة في جيش نور الدين كان أساسياً، فهذه التكتية المهمة متأتية من حراكينها وتجهيزاتها الإفرادية، وسلاحها، القوس.

د - تقنية الحصار:

قاد نور الدين سياسة نشيطة لكنها في بعض الأحيان عدوانية، الأمر الذي دفعه للقيام بعمليات حصار لعدد كبير من المواقع. كان يسعى دوماً لتعزيز مكاسبه الإقليمية وللسيطرة على الغلال والمحاصيل الزراعية للمنطقة المجاورة، كما حصل في «حارم»، أو لوضع اليد على نقاط مرور مهمّة، مثل «بانياس».(١)

---

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٦.

في بعض الأحيان كان نور الدين يفكّ حصاره للموقع المذكور عندما يعلم بدخول تعزيزات عدوّة، كما حصل له في حارم أثناء محاولته الأولى أو في قلعة الحصن السنة ١١٦٣، ثم لم يجد الجيش الإسلامي خلاصه إلاّ بالفرار من أرض المعركة،[١] فنجا بجلده. في بعض الأحيان كان الحصار لا يفضي إلى شيء، فيضطر المحاصر للانكفاء بسبب نقص الامدادات أو توقّفها لأي سبب كان أو بسبب الحاجة للأموال لدفع رواتب الجند، كما حصل لنور الدين في بانياس. حتى القرن الثاني عشر، كانت معدات الهجوم على المواقع الحصينة، ضعيفة نسبياً، وقد بقي الدفاع متفوّقاً على الهجوم. وكان الهجوم ينفّذ بواسطة الوسائل الكلاسيكية مثل: الحصار، التنقيب والهدم، الألغام والمتفجّرات، واستعمال الآلات الحربية، مثل المنجنيق والاكباش أو الدبابات والعرادة.[٢]

وعملية الحصار الأكثر شيوعاً، في عهد نور الدين كانت تحصل على الشكل التالي:

تحيط القوات المتقدّمة بأسوار الموقع محاولة الاقتراب أكثر فأكثر. وأول الأعمال التي تنفّذها وراء سياج التحصين (من أوتاد وغيره)، وفي مأمن من نبال المحاصرين، كان ردم الحفرة التي تحيط بالموقع ومن ثمّ حفر أنفاق تحت الأرض تؤدّي إلى أساسات الأسوار. وقد تسوّى بعض قطاعات الأرض ليعدّ عليها مسطّحات مائلة قليلاً نحو الجدران،[٣] مما يسمح بجلب الأكباش وبتقريب آلات الحرب لمهاجمة المدينة. إلى جانب ذلك، تقطع، إذا أمكن، الطرق المؤدّية إلى مصادر المياه، بغية عرقلة الامداد إلى المحاصرين. وبعد استطلاعات ودراسة معمّقة للأسوار والأبراج والمراكز الدفاعية المحصّنة، وأبراج رماة السهام وغيرها من مراكز الرمي العدوّة، يباشر بدك المدينة. كلّ هذه الأعمال، يقوم بها المشاة، أما الخيالة فليس

(١) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٠.

(٢) نيكيتا، مرجع سابق، ص ٧٤٢.

(٣) نيكيتا، مماثل، ص ٧٤٧.

لها الدور الأساسي في هذه العمليات، إنما عملها في هذه المرحلة، يقوم على الاستكشاف والتغطية لمنع أي مفاجأة عدوّة ولمنع وصول الإمدادات إلى الموقع المحاصر. والنجاح في هذه العمليات يأتي من الحماس والتنسيق الكامل بين العناصر المختلفة من رماة السهام وسدنة الأسلحة الثقيلة (المناجيق والعرادات وغيرها) والنقابين اللغّامين ومن جنود الاقتحام، المجهّزين بالخطافات والكلاّبات الحديدية، والحبال وسلالم الحصار المتنوّعة الأطوال والأحجام. يحاول جنود الاقتحام، تسلّق الأسوار لكن المدافعين، نادراً، ما كانوا يسمحوا بتنفيذ مثل هذا الاقتحام ضد الأسوار. وبهدف شل الدفاع، تدفع القوات المحاصرة، أبراج الاقتحام المتحرّكة (الزحافات) على موازاة الأبراج الثابتة في الأسوار. كانت هذه الأبراج، تشاد بطوابق متعدّدة وبداخل كلّ طابق، يتمركز رماة السهام والمقاتلين المزوّدين بالجسور الخشبية التي تلقى من الأبراج إلى الأسوار، فينتقل عليها هؤلاء للقيام بعمليات الالتحام مع العدو، مما يسمح للقوات الصديقة بتسلّق الدفاعات العدوّة. وفي بعض الحالات، كان المدافعون يعملون جهدهم لإشعال النار في هذه الأبراج الخشبية التي كانت تصان بواسطة جلود الحيوانات المذبوحة حديثاً وبالصلصال. في هذه الأثناء يعمل النقّابون واللغّامون على فتح ثغرة في الأسوار وسريعاً ما يوسّعوها فيدخل الجنود إلى داخل المدينة ويبدأ قتال الشوارع الذي لا يتوقّف إلاّ إذا ترك أحد الخصمين القتال مستسلماً.

القسم الثاني

- صلاح الدين الأيوبي يقارع الصليبيين ويستولي على القدس عاصمة مملكتهم.

- سقوط دولة الفرنج في الشرق

(١١٦٩ - ١٢٩١)

الفصل السادس

- غزوات صلاح الدين الأيوبي ضد القوات الفرنجية (١١٧٤-١١٨٦)

١ - توطئة

جاءت وفاة الملك العادل نور الدين زنكي سنة ١١٧٤، ضربة للمشاريع التوحيدية التي حلم بها هذا الملك. ذلك أنه في الوقت الذي تمّ فيه توحيد مصر وسوريا (دمشق وحلب) والموصل في يد واحدة.

توفي نور الدين الذي اجتمعت فيه في ذلك الحين آمال المسلمين. ولو قيّض للملك الفرنجي اموري أن يطول عمره فلا يموت بعد نور الدين بشهرين، لتمكّن الفرنجة من استرداد الكثير مما خسروه. وبالفعل نرى أن اموري بدأ فوراً، اثر وفاة نور الدين، يستغلّ الفرصة بمحاصرة بانياس.

لقد ضعضعت وفاة نور الدين قادة المسلمين، فحدث الاختلاف بسرعة فيما بينهم، وظهرت الأطماع، لأن الوريث الشرعي لنور الدين وهو ابنه إسماعيل الملقّب بالملك الصالح لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد. وبرز البعض من قادة نور الدين يستغلّون الفرصة كأبن المقدم في دمشق وأبن الداية كمشتكين في حلب، وانتقل الملك الصالح إلى حلب متخذاً منها عاصمة له. وفي الموصل قام سيف الدين غازي «الثاني» مع أخيه عز الدين مسعود، أما في مصر فكان صلاح الدين الأيوبي وإخوته. وهكذا أصبحت الوحدة الإسلامية التي حققها نور الدين موزّعة بين عائلتين قويتين:

(١) مكي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

صلاح الدين مؤسّس الدولة الأيوبية



العائلة الزنكية في سوريا والموصل، والعائلة الأيوبية في مصر. وكان لا بدّ من التصادم بين العائلتين لتنفرد إحداهما بالحكم والمسؤولية تحت إسم الوصاية على الملك القاصر الصالح إسماعيل.

في الجانب الفرنجي فلم يكن الوضع أفضل، فالملك اموري توفي وكان وريثه الشرعي ابنه بودوان الرابع الذي كان في الثالثة عشر من العمر، وكان مريضاً بالجذام، فكان لا بدّ من وصاية عليه، وقد برز بسرعة الأمير ميلون دي بلانسي فأصبح وصياً وقبض على أمور الفرنج بحزم، إنما دبّر الفرنج مؤامرة ضده انتهت بمقتله ووصول الأمير الكونت ريمون الثالث أمير طرابلس إلى الوصاية السنة ١١٧٤. وكان هذا الكونت قد أمضى من قبل ثماني سنوات في الأسر عند نور الدين إثر وقوعه أسيراً في معركة حارم ١١٦٤، ثمّ أطلق سراحه السنة ١١٧٢ بفدية كبيرة. وكان يتقن اللغة العربية ويتفهّم أوضاع البلاد. وقد تزوّج من الأميرة اشيڤا حاكمة بلاد طبريا والجليل. وهكذا تمكّن الفرنج بسرعة من جمع صفوفهم، بينما كان المسلمون مستمرين في مخاصماتهم ومطامعهم.(١)

٢ - محاولة توحيد مصر وبلاد الشام

٢١ - الاستيلاء على دمشق وحمص وحماه وما جاورها:

بعد وفاة أموري ملك الفرنج، لم يعد ثمّة خطر لغزو البلاد المصرية براً. والواقع أن أسطولاً صقلياً كان على مقربة من الشواطىء المصرية. فملك صقلية، على ما يظهر، لم يسمع شيئاً عن فشل مؤامرة الفاطميين، ضد صلاح الدين، ولا عن وفاة الملك الفرنجي. ففي ٢٥ حزيران ١١٧٤، ظهر فجأة أمام الاسكندرية أسطول صقلّي مولّف من ٢٨٤ سفينة لكنهم اكتشفوا أنهم أضحوا محرومين من المساعدة التي علّقوا

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤.
- مكي، مرجع سابق، ص ١٦٥.
- وليم، ج ٥، ص ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٤.

عليها أهمية كبيرة. على أن فشل الفرنجة في أن يفاجئوا الاسكندرية، واقتراب صلاح الدين بجيشه، حمل الصقلّيين على أن يعودوا إلى سفنهم، والإقلاع من الاسكندرية في أول آب ١١٧٤، فأضحى لصلاح الدين مطلق الحرية في المسير إلى سوريا.(١)

في هذه الأثناء استدعى أعيان دمشق البارزين سراً صلاح الدين مما أزعج، ابن المقدم، والي دمشق، فاستنجد بالفرنج لبذل المساعدة له. وازداد خوفه، حينما هرب من دمشق، الملك الصالح بن نور الدين مع أمه إلى حلب، حيث أضحى في رعاية كمشتكين أميرها. ثمّ لجأ ابن المقدم إلى أمير الموصل سيف الدين الغازي لمساندته، غير أن سيف الدين آثر توطيد مكاسبه بالجزيرة، وقد ألحّ أهل دمشق على أميرهم «علناً» هذه المرة، لدعوة صلاح الدين لنجدته، فالخلاف أصبح كبيراً وخطيراً بين دمشق وحلب بشأن الملك الصالح. لقد استفاد صلاح الدين من التحالف الذي تمّ بين الأمراء الزنكيين وقادة الباطنية (الحشاشين) والفرنجة ضده، فتفاهم مع زعماء دمشق وعلى رأسهم ابن المقدّم، وجاء من مصر إلى دمشق في سبعماية من خيرة فرسانه، بعدما أوكل شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف الدين، وأسرع في سيره، مجتازاً إقليم ما وراء الأردن، حيث لم يحاول الفرنج اعتراض طريقه، فبلغ دمشق في ٢٦ تشرين الثاني ١١٧٤. فتلقّاه أهل المدينة بالفرح والسرور، وأمضى ليلته في الدار التي يملكها والده بدمشق، وفي صبيحة اليوم الثاني، فتح له ابن المقدّم أبواب القلعة وكانت بيد خادم اسمه ريمان وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها واتسع بها.(٢)

---

(١) وليم، ج ٥، ص ٩٧٣.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٥١.
- مكي، مرجع سابق، ص ١٦٧.
- وليم، مرجع سابق، ص ٩٧٨.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٦.

بعد ذلك جعل صلاح الدين أخاه طغتكين والياً على دمشق يحكمها باسم الملك الصالح ابن نور الدين، ثمّ قرّر السير نحو الشمال لمناوأة كمشتكين بحلب، بعد أن أغدق على أهل دمشق المنح والعطاءات من خزينة الصالح، ما أرضاهم وزاد في فرحهم وسعادتهم.[1]

انتظر صلاح الدين بعض الوقت في دمشق، ولم تكد تصله الإمدادات من مصر، حتى سار من المدينة قاصداً حلب. وفي ٩ كانون الأول ١١٧٤، وصل إلى حمص، «وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها»، فراسله صلاح الدين لتسليمها، فامتنع، فقاتله «من الغد، فملك البلد وأمّن أهلها» وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد صلاح الدين من حلب... وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرّق وأن تصعد إليهم مسيرة...».[1] بعد ذلك اجتاز حماه في طريقه إلى حلب واستولى عليها وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك، فامتنع عن «التسليم إلى صلاح الدين» ثمّ سار جورديك إلى حلب «واستخلف بقلعة حماه أخاه ليحفظها فلما وصل إلى حلب... قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلمّا علم أخوه بذلك، سلّم القلعة إلى صلاح الدين فملكها».[1] ثمّ سار إلى حلب فاغلق كمشتكين أبوابها في وجهه. فشرع في ٣٠ كانون الأول في أحكام محاصرة المدينة. كان أهل حلب ينزعون إلى الإذعان له، غير أن الملك الصالح الصبي، خرج إليهم، فناشدهم أن يحافظوا عليه من رجل سلبه إرثه. وإذ رقّ الناس لحاله، فلم يتخلّوا عنه أبداً.

في هذه الأثناء، أرسل كمشتكين يلتمس النجدة من الباطنية والفرنج. ولم تمض إلاّ أيام قليلة، حتى تمّ اكتشاف جماعة من الباطنيين عند خيمة صلاح الدين.[2] فتقرّر قتلهم بعد ان استبسلوا في الدفاع عن أنفسهم.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٦٧.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٥١.
(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٨٢ - ٩٨٣.

٢٢ - رفع الحصار عن حلب (١١٧٥) والسيطرة على سوريا:

في أول شباط ١١٧٥، ظهر أمام حمص الكونت ريموند، أمير طرابلس وجيش فرنجي، فشرعوا في مهاجمة أسوار المدينة، تساندهم الحامية المرابطة بالقلعة. وحقق هذا الهجوم النتيجة المرغوبة، إذ إن صلاح الدين رفع الحصار عن حلب، وهرع نحو الجنوب، غير أن ريموند لم يمكث طويلاً ليلتقي به، رغم أن مهمته كانت قطع خط الرجوع على صلاح الدين الذي وصل إلى حمص كي يدافع عنها ويحصّنها.(١)

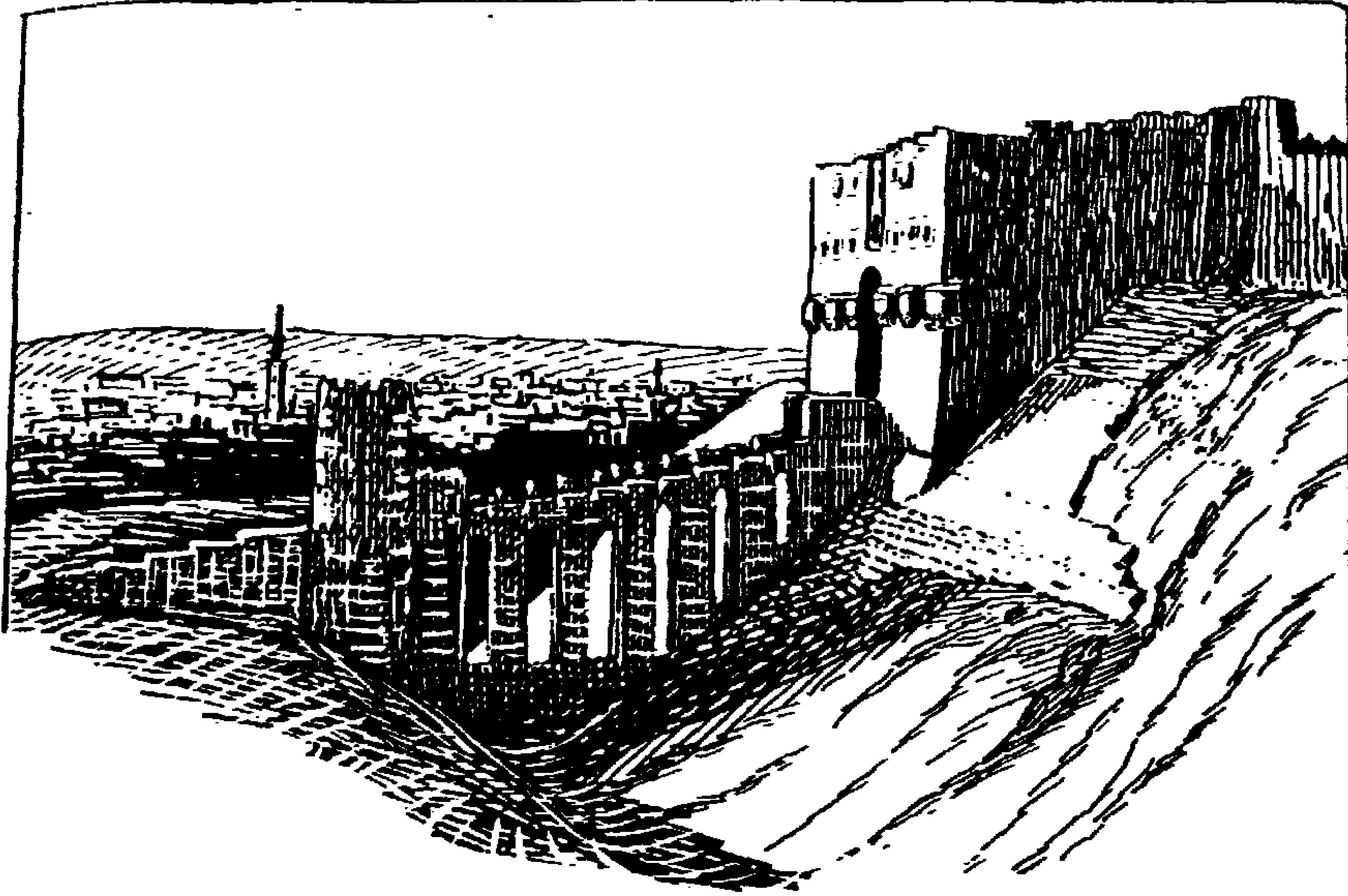
ما ان بدأ شهر نيسان ١١٧٥، حتى كان صلاح الدين يبسط سلطانه على كلّ سوريا حتى حماه شمالاً، غير أن حلب ما زالت مستقلّة بيد كشتكين والملك الصالح. وأعرب كشتكين عن امتنانه للفرنج، فأطلق سراح رينالد شاتيون المعروف بارناط وجوسلين كورتيناي، وسائر الأسرى الفرنج، بعد أن ضعفت أجسادهم في سجون حلب المظلمة والرطبة.(٢)

وقد سبّب هجوم صلاح الدين على حلب أن الأمراء الزنكيين في الموصل وحلب قاموا بهجوم عليه لتخليص الشام من يده غير أن صلاح الدين أوقع بالجيش المتحالف في خانق، (واد ضيق)، بين التلال الواقعة إلى الشمال من حماه عرف باسم «قرون حماه» فأجهز عليه جنوده البطّالون، ومع ذلك لم يشعر صلاح الدين أنه من القوة ما يكفي لمواصلة القتال، فقرّر عقد هدنة قضت بأن يحوز بعض البلاد شمالي حماه، وفيما عدا ذلك بقيت الأحوال على ما كانت عليه.(٣) ومن حماه سار إلى بعلبك وبها خادم اسمه يُمن وهو والٍ عليها من أيام نور الدين، فسلّمه القلعة وأمّنه صلاح الدين(٤) على حياته وأملاكه.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٦٨.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٥٧.
(٣) رنسيمان، مماثل، ص ٦٥٨.
- مكّي، مرجع سابق، ص ١٦٧.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٦٨.

قلعة حلب الأيوبية



قلعة حلب الايوبية

تخلّى صلاح الدين، عندئذٍ عن تبعيّته للملك الصالح اسماعيل. وقطع الخطبة له وصارت الدعوة لنفسه واتخذ لقب ملك مصر والشام. وسك النقود باسمه وحده، وأقرّ خليفة بغداد عن طيب خاطر ما حدث، وبعث إليه الخلع الخليفية التي بلغته في أيار ١١٧٥ وهو في حماه.(١)

السنة ١١٧٥، عقد صلاح الدين معاهدة مع الفرنج وأطلق من كان بحوزته من الأسرى الصليبيين كي يستطيع ان يتفرّغ لقتال سيف الدين أمير الموصل، لكن الفرنج نقضوا الهدنة في السنة التالية. وبينما كان صلاح الدين ينازل حلب، أغار الأمير ريموند كونت طرابلس في البقيعة على إقليم البقاع اللبناني، وقدم من الجنوب جيش مملكة القدس بقيادة همفري سيّد تبنين والملك الذي لم يتجاوز عمره الخامسة عشر. ويبدو أن ابن المقدم أمير بعلبك، قد هزمه. غير أن الفرنج اجتمعوا سوياً وأنزلوا هزيمة ساحقة بتوران شاه، شقيق صلاح الدين وبقوات دمشق. وما ان بدأ صلاح الدين بالمسير نحو بعلبك، حتى انسحب الفرنج من جديد، ولم يقتفِ أثرهم، إذ كان حريصاً على العودة إلى مصر. بعد أن عيّن أخاه توران شاه على قيادة جيش قوي في بلاد الشام، اجتاز صلاح الدين إقليم ما وراء الأردن مرّة أخرى، ووصل إلى القاهرة في نهاية شهر أيلول ١١٧٦.(٢)

٣ – هزيمة صلاح الدين في تل الصافية (١١٧٧)

في شهر تشرين الثاني ١١٧٧، وصل إلى مسامع صلاح الدين من عملائه وجواسيسه أن التحالف بين البيزنطيين والفرنج قد انهار، وأن كونت فلاندر ذهب إلى الشمال، فقرّر القيام بهجوم مفاجىء من الساحل إلى داخل فلسطين. وفي ١٨ من الشهر نفسه، اجتاز حدود مملكة القدس قادماً من مصر. استدعى فرسان الداوية الفرنج كلّ من كان

(١) لم يتخذ صلاح الدين مطلقاً لقب «سلطان»، غير ان المؤرّخين العرب، دأبوا على نعته به.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ٩٨٦.

– رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٦٢.

في متناول يديهم من الفرسان للدفاع عن غزّة، غير أن الجيش المصري توجّه رأساً إلى عسقلان. في هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى ملك القدس بودوان الذي كان مريضاً ولم يكن قد شفي بعد، فتوجّه بكلّ ما استطاع ان يحشده من الجنود الفرسان، وكان عددهم لم يتجاوز خمسماية فارس، ودخل حصن عسقلان وبصحبته أسقف بيت لحم يحمل الصليب المقدّس (صليب الصاباوت)، قبل قدوم صلاح الدين.(١)

ترك صلاح الدين، قبل وصوله إلى عسقلان، في العريش القديمة، جزءًا من الأمتعة الثقيلة «وأثقال الجنود»، ثمّ أخذ معه الجنود المسلّحين تسليحاً خفيفاً وأكثر المحاربين ممارسة ومرّ بقلعتي الداروم وغزة، بعدها بعث الكشافة أمامه، ثم ظهر فجأة أمام عسقلان. في هذه الأثناء كان الملك قد استدعى كل الرجال القادرين على حمل السلاح للالتحاق به في عسقلان. غير أن صلاح الدين الموجود خارج الأسوار، اعترض طريق الدفعات الأولى من هؤلاء الجنود، وأوقعهم في الأسر. بعد ذلك ترك صلاح الدين قوّة صغيرة أمام عسقلان لمشاغلة الملك الفرنجي والتضييق عليه ومضى في سيره إلى مدينة القدس وسمح لقواده أن يطوفوا بالقرى والريف، لينهبوها ويستبيحوها. وكان بينهم، مملوك يدعى «جاولي»، وكان محارباً شجاعاً، وكان أرمني المولد. فتقدّم مع زمرة من قواته إلى الرملة وهي مدينة واقعة في السهل وأحرقها بعدما وجدها مهجورة من سكانها لأنها لم تكن محصّنة بشكل جيّد ولأن البعض منهم قد التحق بحملة بودوان في عسقلان وبعضهم ذهب إلى حيفا مع الضعفاء والنساء والأطفال والبعض الأخر ذهب إلى حصن «مجدل يابا». ومن الرملة انتقل «جاولي» إلى مدينة اللدّ المجاورة فحاصرها ورماها بوابل من السهام والأسلحة من كلّ نوع

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٢.
- وليم، ج ٦، ص ٩٩٨.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ٨٥.

وأنهك أهلها دون توقّف، فهرب الناس كل الناس إلى كنيسة القديس جورج. وحلّ الرعب بين الأهالي الموجودين في السهول حيث كان عساكر صلاح الدين يطوفون بحرية ودون مقاومة. ويقال إن سكان القدس كانوا مستعدّين إلى حدٍّ ما للتخلّي عن المدينة المقدّسة،[1] لأنه لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها، فهرعوا إلى برج داوود وتخلّوا عن باقي المدينة. وكان بعض المغيرين المسلمين قد وصلوا إلى قلقيليا وانتشروا فوق السهل بأكمله تقريباً وكانوا على وشك السير نحو الهضاب.

وبينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في ذلك الجزء من مملكة القدس الفرنجية وصلت الأخبار إلى الملك مفادها أن حشداً من المسلمين قد انتشر في أرض المملكة واستولى عليها. فأرسل أمراً إلى فرسان الداوية في غزّة للالتحاق به في عسقلان التي غادرها على الفور مع جنوده زاحفاً بمحاذاة الساحل حتى وصل إلى «يبنه»، علّه يتمكّن من مباغتة صلاح الدين خلسة وفجأة، ثمّ انحرف نحو الداخل. وحدث في ٢٥ تشرين الثاني ١١٧٧، وبينما كان الجيش المصري يجتاز أخدوداً قرب قلعة «تل الصافية»، على مسافة بضعة أميال، إلى الجنوب الشرقي من الرملة، أن انقضّ عليه فجأة فرسان الفرنج القادمون من الشمال. وكانت مفاجأة تامة، إذ كان قسم من جنود صلاح الدين يسعى للحصول على العلف لخيولهم، ولم يتوافر له من الوقت ما يكفي لإعادة حشد قواته. فلاذ عدد كبير منهم بالفرار، تحت ضغط القوات الفرنجية في أول صدام، بينما لم ينقذ حياة صلاح الدين إلاّ حرسه الخاص من غلمانه. أما القوات التي صمدت في الميدان، فقد أبادها فرسان الفرنج،[2] فكانت حقاً مذبحة رهيبة.[3]

(١) وليم، مرجع سابق، ص ٩٩٩ - ١٠٠٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٢.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٠٠ - ١٠٠١.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٨٥ - ٨٦.

يقول وليم الصوري المؤرّخ والذي كان يراقب الملك بودوان أثناء تلك المعركة، إن عدد جنود صلاح الدين كان ستة وعشرون ألف فارس بالإضافة إلى عدد كبير من راكبي الجمال وحيوانات التحميل، بينهم ثمانية آلاف من جنود النخبة - «الطواسين» والباقون من الفرسان العاديين المعروفين باسم «قرا غلام». وكان عدد حراس صلاح الدين حوالى الألف من الفرسان الشجعان المماليك، كان الجميع يرتدون حريراً أصفراً فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه.(١)

ولّى الجيش المصري الأدبار إلى بلاده في بضع ساعات بعد أن خلّف وراءه كلّ ما كان بحوزته من غنائم وأسرى. فطارده الفرنج حتى غياب الشمس - مسافة ١٢ ميلاً وقد قتلوا منهم العدد الكثير. وأثناء الفرار تخلّى العسكر عن سلاحه وأحماله، كيما تزداد سرعتهم في الفرار. وحاول صلاح الدين أن يعيد الأمن والانضباط إلى نصابه، غير ان اجتياز صحراء سيناء كان شاقاً ومؤلماً. لقد انقضّ رجال البدو على هؤلاء الفارّين العزّل من السلاح وقتلوا عدداً كبيراً منهم.

لدى وصول صلاح الدين إلى الحدود المصرية، أرسل القصاد راكبي الهجن إلى القاهرة ليؤكّدوا لكلّ من تسوّله نفسه التمرّد، انه ما زال على قيد الحياة، غير أن هيبته تعرّضت لنكسة ومحنة قاسيتين.(٢)

هذا الانتصار أنقذ مملكة القدس في الوقت الراهن، غير أنه لم يغيّر الوضع على مرّ الزمن، فموارد البلاد المصرية كبيرة وكبيرة جداً ولا حدّ لها، والفرنج ما زالوا يعانون نقصاً في الرجال.

كان على الفرنجة أن يطاردوا صلاح الدين إلى داخل مصر، لأنه كان في قمّة ضعفه، والمصريين على وشك الثورة ضدّه. فلو فعل الملك ذلك أو قام بهجوم خاطف على دمشق، لاستطاع ان يحطّم قوّة صلاح الدين، غير أنه لم يكن بوسعه ان يخاطر بجيشه الصغير في مهاجمة عدوّه، ما لم يحصل على مساعدة خارجية.

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٠٢.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٣.

استعاض الملك عن ذلك بأن قرّر تشييد مراكز دفاعية محصّنة ومتينة على امتداد حدود إمارة دمشق، حيث أدّى ضياع بانياس إلى قلب نظام الدفاع عن المملكة رأساً على عقب. حصّن سيد تبنين قلعة هونين، بين بانياس وتبنين اللبنانية، وشيّد الملك قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن بين الحولة وطبريا كيما يتحكّم في «المخاضة» التي يسمّيها الفرنج «مخاضة الأحزان» أو مخاضة يعقوب.(١).

٤ – المناوشات العسكرية بين المسلمين والفرنج (١١٧٨ – ١١٨٦)

٤١ – الفرنج ينقضون المعاهدة فيدفعون الثمن باهظاً (١١٧٨ – ١١٧٩):

خلال هذه الفترة حصّن ملك القدس وشيّد مراكز دفاعية وقلاع على امتداد حدود إمارة دمشق. وما يقع على جانبي الحدود من الأراضي، استوطنها المسلمون ممن يمتهنون الفلاحة والرعي، ودان بعضهم بالولاء لأمير دمشق، وخضع بعضهم للفرنج. وكانت لهم الحرية في اجتياز هذه الحدود، من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر، «وإذ لم يميّز هذه الحدود سوى شجرة سنديان ضخمة».(١). وتعاهد الفرنج بألاّ يقوموا مطلقاً بتحصين موضع العبور أو بإقفاله بوجه المسلمين من كلي الجانبين.(١) وأراد الملك أن يلتزم بالمعاهدة، بأن يشيّد قلعة في مكان آخر، إنما استطاع فرسان الداوية من الفرنج ان يغلبوه على أمره، فبدأوا بتشييدها في موضع العبور نفسه. تقدّم المسلمون النازلون هناك بالشكوى إلى صلاح الدين، عن نقض المعاهدة و«الإيمان»، فعرض صلاح الدين على الملك بودوان، في بداية الأمر، ستين

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٤.
– وليم، ج ٦، ص ١٠٠٨.
– تقع هذه المخاضة على بعد ١٠ أميال من بانياس، على هضبة ذات ارتفاع معتدل. وقد شيّدت القلعة خلال ستة أشهر فقط، على شكل مربع صلب وذات سماكة ممتازة وارتفاع كافٍ.

ألف دينار ثمّ مائة ألف ليثنيه عن متابعة العمل وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً. فلما رفض بودوان العرض، أقسم صلاح الدين بأنه سوف يبادر إلى اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع العمل. ولم يطل الوقت حتى ظهرت في تلك المنطقة، عصابات من دمشق فراحت تحاصر الطرقات العامة، ولم يعد يتمكّن أحد من الجيش من الخروج والدخول دون التعرّض للخطر، وكذلك المسافرون وكانت الأعداد تتضخّم من ليلة إلى أخرى، فيقتلون ويجرحون ويستولون على الغنائم والأسلاب وأصبحوا مكروهين من الجميع، مسلمين وفرنجة على حدٍ سواء.[1] وبذلت محاولات متكرّرة لإبادتهم تماماً لكن دون نجاح. عند ذلك استولى الملك فجأة على المواقع التي كانوا يخرجون منها للسلب والسرقة وقتل جميع من استطاع القبض عليهم، إلاّ أن غالبيتهم نجت لأنهم كانوا قد هربوا إلى منطقة دمشق. وبفضل الكمائن التي نصبها الفرنج تمكّنوا من أسر تسعة منهم وقتل أكثر من سبعين آخرين وكان ذلك في ٢١ آذار ١١٧٩.

بعد تشييد القلعة نهائياً، وفي ربيع ١١٧٩، بلغت بودوان أنباء كان مفادها ان المسلمين قد قادوا قطعانهم ومواشيهم إلى الغابة بالقرب من بانياس، بحثاً عن الكلأ، وليس بينهم مقاتلين سوى بعض الحراس المرافقين للمواشي كما كانت العادة يومذاك، فنهض الملك ليعترض قطعان الغنم القادمة من سهول دمشق نحو بانياس، ليسوقها أمامه. فأرسل صلاح الدين، الموجود منذ مدّة في دمشق، ابن أخيه، «فروخشاه»، لاستطلاع الوضع وإفادته فوراً بواسطة الحمام الزاجل، عن مكان وجود الفرنج واتجاه تقدّمهم. وفي العاشر من نيسان ١١٧٩، انقضّ فروخشاه فجأة على أعدائه، من وادٍ ضيّق في غابة بانياس، وكان الفرنج في موقع صعب وخاصة مجموعة الملك التي كان بودوان «راكباً معها وتسير بإهمال كبير»، فانقضّ عليهم المسلمون من بين الصخور، فقتلوا الخيول وأطلقوا وابلاً

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩.

من السهام من بُعد وشدّدوا الخناق على قوات الفرنجة.[1] ولم يستطع الملك أن يخلّص نفسه ومجموعته إلاّ بفضل شجاعة همفري، سيد تبنين، الذي استمرّ مع حرسه على مقاومة المسلمين، حتى أفلتت مجموعة الملك من الكمين. وأصيب همفري بجراح مميتة، فقضى نحبه في ٢٢ حزيران من تلك السنة، في قلعته الجديدة في هونين، وتعتبر وفاته ضربة بالغة العنف أصابت مملكة القدس. لقد أجمع الناس فرنجة ومسلمون على الإشادة بأخلاقه وقد احترموه وبجّلوه. [2] وقد قتل في تلك المعركة جنود وقادة من الفرنج مشهورون أمثال صاحب الناصرة ابراهام وغيره.

بعد وفاة همفري، سيد تبنين، ألقى صلاح الدين الحصار على القلعة الجديدة. وكان جنوده يطلقون السهام دون انقطاع على المحاصرين وينهكوهم بهجمات متكرّرة. غير ان مراكزها الدفاعية بلغت من المتانة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة أيام، فعسكر أمام بانياس. ويقول أحد المؤرّخين، وهو وليم الصوري «وحدث فجأة أن سهماً أطلقه أحد المحاصرين الفرنج يقال إن اسمه كان «رينوريوس ماروم»، أصاب بجرح مميت واحداً من أغنى أمراء صلاح الدين، فأثار مقتله اضطراباً كبيراً بين المسلمين إلى د،جة أنهم تخلّوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار عن القلعة ورحلوا».[3] والله أعلم؟

من بانياس كان صلاح الدين يرسل قواته للإغارة على منطقة الجليل وعلى قسم من جنوبي لبنان، لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين بيروت وصيدا. حشد الملك الفرنجي قواته وطلب من أمير طرابلس مساندته، وسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين ومنها تحرّكا إلى منطقة مرجعيون حيث علما أن فروخشاه وجماعته، في طريق عودتهم من الساحل

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠١٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٦.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق.
(٣) وليم، مرجع سابق، ص ١٠١١.

ومعهم غنائم كبيرة. راقب صلاح الدين من برج المراقبة ما كان يحدث في مرجعيون، من ذعر لقطعان الغنم وتفرّقها، فأدرك أن جيش الفرنج لا بدّ ان اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته.(١) وبينما كان الفرنج ينزلون الهزيمة بفروخشاه، في العاشر من حزيران ١١٦٩، تقدّم أمير طرابلس ريموند والفرسان الداوية نحو نهر الأردن، وعند مدخل الوادي فاجأوا جيش صلاح الدين وهاجموه على الفور، غير أن صلاح الدين قام بهجوم معاكس، فردّهم على أعقابهم فولّوا الأدبار باتجاه قوات الملك في مرجعيون التي هرب عناصرها بدورهم ولم يلبث الجيش الفرنجي بأكمله أن لاذ بالفرار. واستطاع الملك والأمير ريموند وقسم من مقاتليهم أن يعبروا نهر الليطاني عند «جسر القعقعية» إلى النبطية ومنها إلى قلعة الشقيف، ومن تبقى من جنودهم شرقي الليطاني، فقد قتل أو أسر.

ومن وقع في الأسر، كان أودو سانت أماند، مقدّم الداوية المتعجرف، الذي يعتبر تهوّره وحماقته السبب الأساسي للهزيمة، والأمير بودوان صاحب الرملة وهيو صاحب طبريا وسيّد الجليل الذي افتدته والدته بخمسين ألف دينار صوري (من صور). وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف ديناراً، فدية، عن بودوان المذكور، لكن الصفقة لم تتمّ. وبعد أشهر قليلة، أفرج صلاح الدين عن بودوان مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين.(٢)

وبدلاً من الهجوم على فلسطين، استعاض صلاح الدين بأن هاجم قلعة «مخاضة الأحزان» التي شيّدها الملك بودوان. وبعد حصار خمسة أيام، تمكّن المسلمون من تنقيب أسوار القلعة ومن الدخول إليها. وقتلوا كلّ من كان بداخلها دون رحمة. وتمّ تدمير القلعة عن آخرها حتى تساوت مع الأرض.(٣)

---

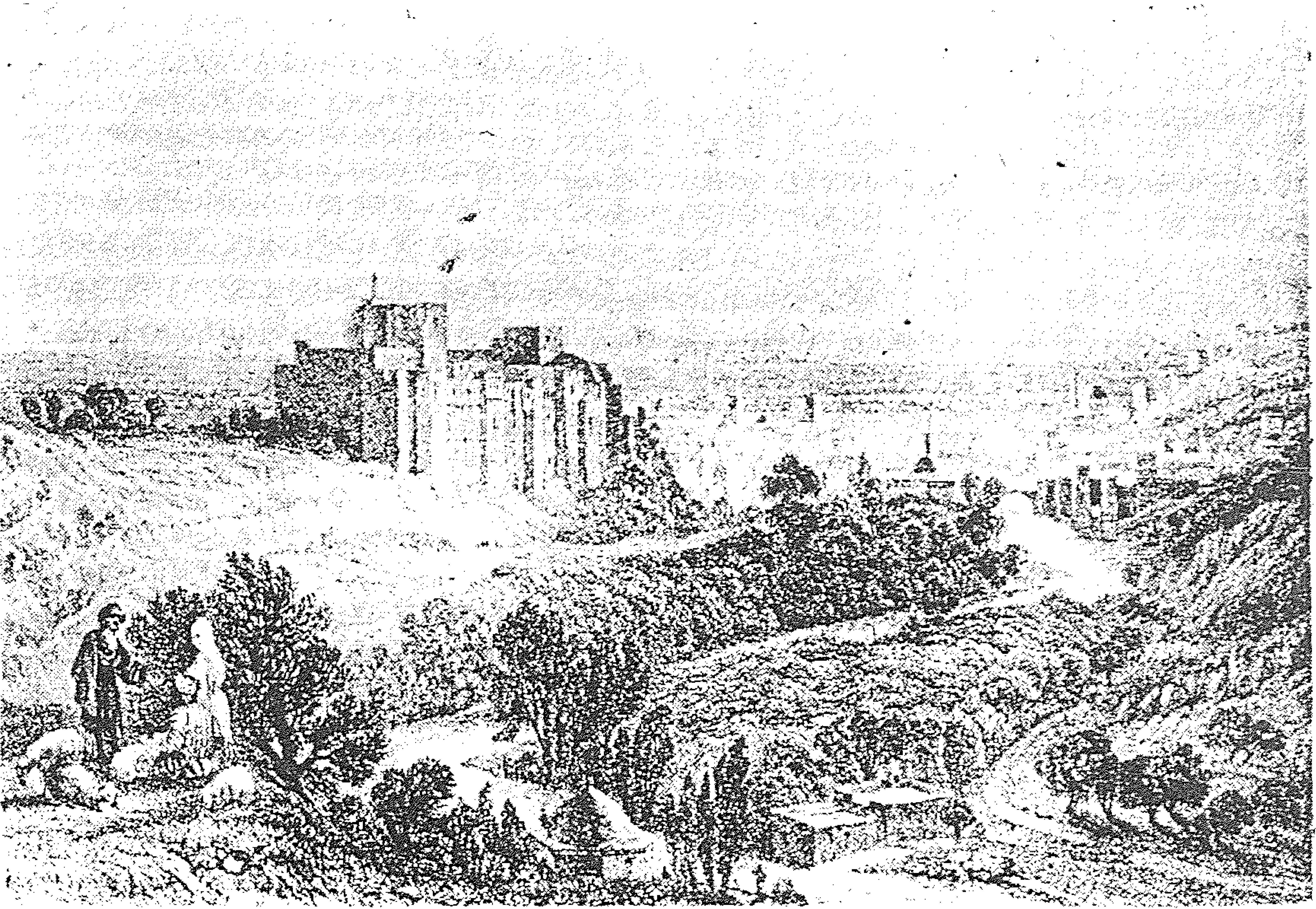
(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٧.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٨ - ٦٧٩.

(٣) وليم، مرجع سابق، ص ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣.

- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٩٥ - ٩٦.

قلعة طرابلس الصليبية - قلعة سانجيل (الصنجيل)



٤٢ - صلاح الدين يغزو إمارة طرابلس الفرنجية (١١٨٠):

في بداية صيف ١١٨٠، قاد صلاح الدين جميع قواته من الفرسان نحو إمارة طرابلس، بعدما اتخذ كافة التدابير الأمنية والعسكرية لمنطقتي دمشق وبصرى. وأقام معسكره قرب مدينة طرابلس، ومنه راح يرسل خيالته إلى المناطق المجاورة للسلب والنهب وتدمير المحصولات من الأراضي المرويّة. وكان أمير طرابلس قد انسحب بقواته من المدينة إلى عرقة في عكار، منتظراً هناك فرصة للاشتباك مع قوات صلاح الدين دون خسارة كبيرة، كما بقي فرسان الداوية محتجزين في حصونهم ولم يرغبوا بالمجازفة في مواجهة المسلمين. وكان فرسان الاسبتارية قد انسحبوا هم أيضاً إلى قلعتهم المحصّنة في الكرك. وفي هذه الأثناء احتلّ المسلمون موقعاً بين الكرك وعرقة مما أدّى إلى انقطاع المساندة والاتصالات بين الفرنجة بعضهم بعضاً.(١)

قام خيالة صلاح الدين بالتجوّل في السهول والمراعي والحقول المزروعة دون أن يقاومهم أحدٌ، فأحرقوا جميع المحاصيل، مما كان قد تمّ جمعه في المخازن، وكلّ ما كان مكوّماً في الحقول. وساقوا أمامهم قطعان الماشية كغنيمة. فدبّ الذعر في الأهالي وخرّب الريف بأسره في جميع الاتجاهات.(١)

وفي هذه الأثناء ظهر أسطول صلاح الدين فجأة، في بداية حزيران في المنطقة المجاورة لبيروت. وعندما علم قابودان الأسطول أن سيّده صلاح الدين في منطقة طرابلس، أبحر إلى هناك واستولى على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس.

أثار نزول أسطول صلاح الدين في أرواد، خوفاً ورعباً في المنطقة بكاملها خاصة بعدما ألحق الضرر بالسكان بقدر الإمكان. وكان صلاح الدين قد دمّر المنطقة بشكل يرضيه، عند ذلك أمر الأسطول بالعودة، ثمّ جمع جنوده وقادته وعاد بهم إلى دمشق، وعقد بعد بضعة أيام معاهدة سلام مع

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠١٧.

كونت طرابلس وانسحب إلى «مكان بعيد من دمشق».(١)

٤٣ - صلاح الدين يعقد هدنة سنتين مع الفرنجة (١١٨٠):

في مستهل السنة الجديدة (١١٨٠)، شنّت قوات صلاح الدين غارة عنيفة على منطقة الجليل في فلسطين، كما قام الأسطول المصري، بغارة موفّقة أيضاً على السفن الفرنجية الراسية في ميناء عكا. أمام هذا الواقع، أرسل الملك بودوان إلى صلاح الدين يطلب عقد هدنة، فوافق السلطان. والواقع ان سوريا بأسرها تعرّضت للمجاعة بسبب عدم هطول الأمطار. وما حدث من جفاف شديد في فصل الشتاء ومستهل الربيع، وما من أحد كان بودّه أن يقوم بغارات، لما قد تلحق بالمحصولات الضئيلة من أضرار. والراجح أيضاً أن صلاح الدين قرّر الاستيلاء على حلب قبل مهاجمة مملكة القدس وقد ارتبك أيضاً لما سمع أن أسطولاً صقلياً كان هدفه مصر.(٢)

تحدّدت الهدنة لمدّة سنتين بمقتضى معاهدة، وقّعها في أيار ١١٨٠، ممثّلون عن بودوان وصلاح الدين. وفي الخريف توجّه السلطان صلاح نحو الشمال إلى الفرات، حيث وقع خصام بين الأمير نور الدين ارتق، صاحب حصن كيفا وكان حليفاً لصلاح الدين، وبين السلطان السلجوقي قلج أرسلان الذي زوّجه ابنته فأهملها ووقع في غرام راقصة. في ٢ تشرين الأول ١١٨٠، عقد صلاح الدين مجلساً قرب سميساط، بحضور أمراء الأراتقة ورسل من قبل قلج ارسلان وسيف الدين حاكم الموصل وروبين حاكم ارمينية وأقسم الجميع على مراعاة السلام بينهم، في السنتين القادمتين.(٣)

(١) Maalouf, op. cit., p. 216.
- وليم، مرجع سابق، ص ١٠١٨.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٧٩.
- وليم، مرجع سابق، ص ١٠٢٧.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٨٠.

أمضى الملك بودوان فترة الهدنة في محاولة إقامة جبهة فرنجية لمواجهة صلاح الدين. في ٢٤ تشرين الأول ١١٨٠، توفي الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية. ففقد الفرنج أقوى حليف لهم. ولو امتدّ به الأجل، لأضحى أسطوله وأمواله بالغة القيمة للصليبيين. فلما مات، أصبح انهيار الامبراطورية ظاهراً.

٤٤ - رينولد شاتيون (ارناط) ينقض الهدنة ١١٨١:

كان الأمير ارناط الفرنجي سيداً على إقطاع إقليم ما وراء الأردن الكرك، وكان، كما يقول ابن الأثير، «من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدّهم عداوة للمسلمين»، ولم يكن بوسعه أن يفهم كلّ سياسة تتعارض مع رغباته. فبمقتضى شروط الهدنة، كان للتجار المسلمين والمسيحيين الحرية في أن يجتاز كلّ من الجانبين بلاد الجانب الآخر. ففي صيف ١١٨١، تجهّز ارناط وجمع جنوده واتجه نحو الشرق إلى بلاد العرب، إلى واحة «تيماء»، الواقعة قرب الطريق الممتد من دمشق إلى مكة المكرّمة في الحجاز. وقرب الواحة كانت قافلة لتجّار عرب أثرياء، تسير مطمئنّة في الصحراء السورية باتجاه مكة المكرّمة، فانقضّ عليها ارناط واستولى على كلّ ما كانت تحمله من السلع التجارية.(١) ولعلّه فكّر أيضاً في المضي لمهاجمة المدينة، كما قال ابن الأثير، «ومنها إلى مدينة النبي». بادر صلاح الدين إلى إرسال حملة عاجلة بقيادة فروخشاه، ابن أخيه، من دمشق، فوصل إلى إقليم ما وراء الأردن فنهبه وخرّبه، عند ذلك عاد ارناط إلى اقطاعه وانسحب فروخشاه إلى قواعده في دمشق.(١)

اتصل صلاح الدين بالملك بودوان عارضاً شكواه من التصرّف المشين الذي قام به أمير أرعن لا يحترم المعاهدات وينقضها، وطالب بالتعويض عن الخسائر

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٠٥.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٩٧.

Maalouf, op. cit. p 216. -

التي لحقت بتجّار القافلة وبإعادة كافة السلع التي نهبت إلى أصحابها. أقرّ بودوان بعدالة دعوى صلاح الدين واستدعى ارناط الذي برّر عمله رافضاً إعادة أي شيء من المسلوبات أو إصلاح الخطأ. وقد أغفل الملك هذا الموضوع لأنه اصطدم في البلاط بأصدقاء ارناط الذين برّروا عمله.

بعد بضعة أشهر من هذه الحادثة، تحطّمت سفينة في دمياط - مصر بعدما دفعتها الرياح المعاكسة إلى الشاطىء، وكان على متنها حوالى ألف وخمسمائة من الحجاج الفرنج. أمر صلاح الدين بالاستيلاء على عتادهم وكلّ ما كانوا يحملونه وزجّهم في السجون المصرية وأمر بمصادرة أملاكهم لاستخدامه الخاص، ثمّ أرسل إلى بودوان يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم إذا أعاد ارناط مسلوبات التجار المسلمين غير أن بودوان رفض هذا العرض، فاعتبر صلاح الدين أن المعاهدة المبرمة بينهما أصبحت لاغية. وأضحت الحرب أمراً لا مفرّ منه.(١)

٤٥ - صلاح الدين يهاجم الفرنج ويمتنع عن بيروت (١١٨٢):

أقنع ارناط وأصحابه في البلاط، الملك بودوان بحشد الجيش الملكي في إقليم ما وراء الأردن، للانقضاض على قوات صلاح الدين عند قدومها من الديار المصرية، مع أن هذا العمل سيجعل فلسطين مكشوفة للعاهل الأيوبي حينما يقترب منها.(٢)

في ١١ أيار ١١٨٢، غادر صلاح الدين الديار المصرية متوجّهاً إلى الشام، وبينما كان في فسطاطه يودّع وزرائه وأعيان حكومته، وقف معلمٌ لبعض أولاده وأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد قائلاً:

تمتّع من شميم عرار نجد
فما بعد العشيّة من عرار

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٣٦ - ١٠٣٧.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٩٧ - ٦٩٨.
(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٦١٦.

وهذا البيت من الشعر يدلّ على أن السلطان لن يعود مطلقاً إلى القاهرة، وتحققت النبوءة.(١)

سار صلاح الدين عن مصر، وتبعه «من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من برّ الشام بسبب الغلاء المتفشّي هناك» وجعل طريقه على «العقبة»، وقد وصلته الأخبار أن الفرنج قد اجتمعوا لمحاربته وصدّه عن متابعة المسير.(٢)

اجتاز السلطان بجيشه صحراء سيناء إلى العقبة، ثمّ توجّه نحو الشمال وكانت رغبته الانتقام من الأمير ارناط حاكم تلك المنطقة والذي اعتقل بعض العرب المسلمين خلافاً للمعاهدة. وزحفه هذا استغرق حوالى العشرين يوماً دون أن يصادفه شيء من العقبات. فأتلف المحصولات ونهب كلّ ما وجده في طريقه، ولمّا اقترب من بلاد الكرك، سمع أن الملك قد جمع قواته لمحاربته، فسيّر الضعفاء من قومه والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في عسكره وراح يشنّ الغارات على أطراف فلسطين والأردن وخاصة على الكرك والشوبك، فلم يخرج إليه أحد من الصليبيين. ثمّ سار فأتى دمشق فوصلها في الحادي عشر من صفر السنة ٥٧٨هـ.(٢) مع العلم أن صلاح الدين قد مرّ بقواته على بعد ٣٦ ميلاً من الجيش الفرنجي الذي كان معسكِراً في المدينة القديمة البتراء للدفاع عن الأمير ارناط ومصالحه «وليس في سبيل المصلحة العامة».(٣) وقبل وصول صلاح الدين، كان فروخشاه قد قام فعلاً بالإغارة على الجليل، ونهب القرى وظفر بحوالى عشرين ألف رأس من الماشية ووقع في أسره ألف رجل. وأثناء عودته، هاجم حصن «حبيس جلدك» المنحوت في الصخرة التي تطلّ على نهر اليرموك وراء نهر الأردن.(٤)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) ابن الأثير، مماثل.

– رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٩٨.

(٣) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٣٨.

(٤) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٣٩.

وشقّ فروخشاه نفقاً في الصخرة فأضحى الحصن تحت رحمته، فاستسلم الأهالي.[١]

بقي صلاح الدين ثلاثة أسابيع في دمشق. وفي ١١ تموز ١١٨٢ سار مع فروخشاه في جيش كبير، فوصل إلى فلسطين جنوبي بحيرة طبريا. فرجع الملك بودوان من إقليم ما وراء الأردن، وسار إزاء الضفة الغربية للنهر، بعد أن استدعى البطريرك والصليب المقدّس، ليبارك أسلحته وجيشه. التقى الجيشان في أسفل قلعة كوكب الهوى التابعة لفرسان الاسبتارية الفرنج.

وكان صلاح الدين قد عسكر قرب البحيرة، في الاقحوانة من الأردن وسيّر فروخشاه إلى بيسان، فدخلها عنوة وغنم ما فيها وقتل وسبى ثمّ أغار على غور الأردن، «فعمّ أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وكلّ الولاية حتى قاربوا مرج عكا، وسار الفرنج من طبريا، كما قلنا سابقاً ووصلوا إلى قلعة الكوكب».[٢]

وقعت المعركة بين الجيشين، وكانت ضارية جداً، وصمد الفرنج لهجمات صلاح الدين. وما قاموا به من محاولات لردّ الهجمات، لم تحطّم خطوط المسلمين. ولما انقضى النهار، عاد الجانبان وقد زعم كلّ منهما لنفسه النصر المبين.[٣]

وفي شهر آب، اجتاز صلاح الدين الحدود الفرنجية مرّة أخرى، واخترق بسرعة خاطفة الجبال إلى بيروت. وفي هذا الوقت ظهر أمام الساحل، أسطوله، الذي قد أرسل بطلبه بواسطة بريد الحمام الزاجل المنتظم بين دمشق والقاهرة. غير أن بيروت كانت منيعة التحصين وفيها جهاز دفاعي منظّم

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٩٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٢

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦٩٩.

- وليم، مرجع سابق، ص ١٠٤.

جداً. ولما علم بودوان بالأنباء، اندفع بجيشه من الجليل وأعطى أمراً لجمع السفن الراسية في ميناءَيْ عكا وصور لنقل قواته إلى المدينة المحاصرة. لم يتمكّن صلاح الدين قبل وصول الفرنج الاستيلاء على بيروت رغم هجومه الصاعق عليها، فآثر الانسحاب.(١)

وكان صلاح الدين قبل إلقاء الحصار، وخوفاً من أن يسرع الملك وقواته إلى بيروت، أمر أخاه أن يجمع قوات الفرسان التي كانت قد تركت في مصر ومهاجمة فلسطين من الجنوب وتدمير سائر المنطقة الواقعة حول غزّة وعسقلان والداروم، التي تعتبر المدن الأخيرة التي تخصّ الفرنج على الحدود المصرية.

وكان هدف صلاح الدين من إعطاء هذا الأمر لقواته، أن يشغل قسماً من جيش الفرنج هناك، ليبقى هو حراً في مهاجمة بيروت بضراوة أكبر.(١)

لم يكن صلاح الدين قد جلب معه المناجيق وآلات الحصار التي تستخدم عادة في محاصرة القلاع، ولربّما اعتقد أنه سيتمكّن من الاستيلاء على بيروت بهجوم مفاجىء بدون مساعدة أدوات كهذه. بقي الحصار ثلاثة أيام متتالية. وعندما انسحب إلى مسافة قصيرة، قسّم فرسانه إلى مجموعات وأمرهم أن يهاجموا السهول الواقعة حول بيروت وأن يدمّروا تدميراً كاملاً كافة الأبراج الواقعة في متناول يديه. ودمّرت أيضاً البساتين والكروم الواقعة في المنطقة المجاورة للمدينة بالفؤوس والبلطات، ثمّ أمر باحتلال بعض الطرق الصعبة والضيّقة بين بيروت صيدا وإن كانت تعتبر طرق نفاذ لقوات الفرنجة للوصول إلى المدينة. كما شيّد ستائر دفاعية من الحجارة بحذاء شاطىء البحر. لم تستسلم بيروت رغم الضغوطات العسكرية الشرسة التي قامت بها قوات صلاح الدين.(٢)

---

(١) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٤٤ - ١٠٤٥.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٤٨.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٠.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٢.

٤٦ - حملة الأمير ارناط (شاتيون) في البحر الأحمر (١١٨٢):

في خريف ١١٨٢، حينما سمع الأمير ارناط، برحيل صلاح الدين نحو الشمال، قام بتنفيذ مشروع طالما جال في خاطره، وهو أن يُنزل في البحر الأحمر، أسطولاً يغير به على القوافل البحرية الوفيرة الثروة التي تقصد مكة، وعلى المدينة الإسلامية المقدّسة نفسها. وحوالى نهاية هذه السنة، توجّه ارناط إلى مرفأ ايلة الواقع على رأس خليج العقبة، حاملاً إليه السفن التي أعدّها من أخشاب غابات فلسطين، وكان قد جرّبها في مياه البحر الميت. وسقطت ايلة وحصنها بيديه بعدما حاصرهما ومنع الأهالي من ورود الماء، «فنالوا شدّة شديدة وضيّق عليهم».(١) ولكن الفرنج لم يستولوا على الحصن الواقع في جزيرة «جراي» القريب من المرفأ. أبقى ارناط سفينتين في ايلة وانطلق باقي الأسطول، يسيّره قراصنة محلّيون، على طول الساحل الافريقي للبحر الأحمر، وأخذوا يغيرون على كلّ ما صادفوه في طريقهم من القرى والبلدات الصغيرة، فهاجموا ونهبوا عيذاب، وهي ميناء كبير للنوبة يقع قبالة مكة، وهناك استولوا على سفن تجارية مليئة بالسلع، كانت قادمة من عدن ومن الهند، ثمّ نزلت إلى البرّ جماعة منهم، هاجمت قافلة كبيرة، لا مدافع عنها، كانت قادمة عبر الصحراء من وادي النيل. ومن عيذاب اجتازوا البحر الأحمر إلى ساحل بلاد العرب. فأضرموا النار في السفن الإسلامية الراسية في الحوراء وينبع، مرفأي المدينة، ثمّ اوغلوا حتى وصلوا إلى غابر، من موانىء مكة ذاتها، وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقلّها حجاج مسلمون متجهون إلى جدّة. لقد أخذ الناس على حين غفلة كما قال ابن الأثير: «عمّت المفاجأة كلّ الناس الذين لم يعرفوا في حياتهم أي إنسان فرنجي، لا تاجراً ولا محارباً».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٧.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٦.
- Maalouf, op. cit. 217.

ارتاع العالم الإسلامي لما حدث من انتهاك لحرمة الدين. وكان في مصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب، شقيق صلاح الدين ووالي مصر، «فعمّر أسطولاً وسيّره وفيه جمع كثير من المسلمين»(١) لمطاردة الفرنج، وكان قائد الأسطول المصري، حسام الدين لؤلؤ، أما بحارته فكانوا من المغاربة. وأول ما قام به لؤلؤ من أعمال، هو فك الحصار عن حصن جزيرة جراي واسترداد ايلة نفسها فانقضّ على الفرنج فقتل بعضهم وأسر الباقي وفرّ منها ارناط فعلاً. «وسار من وقته بعد الظهر يقضي أثر الذين قصدوا عيذاب»(٢) وأوقع بأسطول القراصنة الفرنج قبالة الجوزاء، فدمّره وأسر قسماً كبيراً من رجاله، والقسم الباقي خرج إلى البر واعتصم ببعض شعابه، فنزل لؤلؤ «من مراكبه إليهم، وقاتلهم أشدّ قتال وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها وقاتلهم فرسانه ورجاله، فظفر بهم، وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى فأرسل جماعة منهم إلى مكة، لينحروا «بمنى» في موسم الحج التالي، عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله (ﷺ)».(٣) أما من تبقى منهم فتقرّر إرسالهم إلى القاهرة، حيث تمّ الإجهاز عليهم جميعاً. ونذر صلاح الدين أنه لن يغفر لارناط (شاتيون) محاولة انتهاك حرمة الأماكن المقدّسة للمسلمين.(٤)

٤٧ - حملة صلاح الدين على فلسطين وعلى حصن الكرك (١١٨٢ - ١١٨٤):

في السابع عشر من أيلول ١١٨٢، غادر صلاح الدين دمشق، على رأس جيش كبير من المسلمين للإغارة على فلسطين. وقد وافاه نور الدين محمد بن فرا ارسلان وغيره من الأمراء المسلمين. ثمّ اجتاز نهر الأردن

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢) ابن الأثير، مماثل، ص ١١٨.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٧.

(٣) ابن الأثير، مماثل، ص ١١٨.

(٤) لقد شهد ابن جبير، الرحالة العربي المشهور، أسرى الفرنج في القاهرة.

في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، عند الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا، ودخل بيسان، التي فرّ جميع سكانها، ولاذوا بأسوار طبرية طلباً للأمان. ولم يكد جاي لوزيجنان الوصي يسمع بأنباء قدوم صلاح الدين، حتى استدعى كلّ قوات المملكة، يقودها اثنان من كبار الفرنج الأثرياء القادمين برجالهما لزيارة البلاد المقدّسة، وهما، جودفري الثالث، دوق بربانت، ورالف الاكيتاني سيّد ماوليون. وكان بصحبة جاي، ريموند كونت طرابلس ومقدّم الاسبتارية، وارناط والأخوان ابلين ورينالد سيّد صيدا وولتر سيّد قيسارية. وقدم من لبنان للانضمام إليهم همفري الرابع سيد تبنين على رأس قوّة. غير أن المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل فقوا اونابوا (كما ورد في التوراة)، فلقي معظم رجاله مصرعهم.(١) وأنفذ صلاح الدين مجموعات من جيشه للاستيلاء على المعاقل الصغيرة في الجهات المجاورة، وتدميرها، بينما وجّه مجموعات أخرى لنهب دير اليونانيين على جبل الطور، غير أنها لم تستطع اقتحام الأسوار المنيعة للدير على قمّة التل. أما صلاح الدين فقد عسكر بجيشه الرئيسي قرب عين التبانية، أما الفرنج فقد احتشدوا في صفورية، قبالته «وحين رأوا كثرة رجاله لم يقدموا عليه، فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم، فأحاط بهم وعسكر الإسلام ترميهم بالسهام، وتناوشهم القتال».(٢) في بداية كانون الأول، بادر المسلمون بالهجوم على مقدّمة الجيش الفرنجي ولم ينقذها إلاّ قدوم الأخوين ابلين بقواتهما في الوقت المناسب. وعسكر الفرنج عند أغوار جالوت في مواجهة جيش صلاح الدين، الذي أمدّ جناحيه حتى كاد

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٨.
- وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦١.

(٢) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ١٢٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٨.

أن يطوّق الفرنج. وظلّت جيوش الفريقين في مراكزها، خمسة أيام دون أن تتحرّك، بعدها حاول صلاح الدين استدراج الفرنج «ليخرجوا ضدّه فيستدرجهم ليبلغ منهم غرضاً».(١)

لقد أضحى من العسير أن تصل المؤن إلى القوات الفرنجية. ولم ينقض يوم أو يومان حتى أخذ المرتزقة الإيطاليون يشكون الجوع، ولم ينقذ الجيش من الهلاك جوعاً إلاّ العثور على السمك في أغوار جالوت. لقد أراد معظم الجنود وعلى رأسهم الأمير ارناط مهاجمة قوات صلاح الدين، لكن جاي الوصي، أظهر تردّداً. وفي نهاية الأمر، كان رأي كونت طرابلس والأخوين ابلين، بعدم الهجوم على جيش صلاح الدين الذي يفوقهم عدداً والاكتفاء بخطة محكمة للدفاع. وكان رأيهم صائباً، إذ حاول صلاح الدين، مرات عديدة أن يغري الفرنج بالخروج لقتاله، لكنه فشل في ذلك، فرفع معسكره في الثامن من تشرين الأول ١١٨٣، وتحرّك بقواته راجعاً إلى ما وراء نهر الأردن.(٢)

بعد مضي شهر على غزوة فلسطين، استعدّ صلاح الدين للحرب من جديد بعدما جنّد قواته، فقد استدعى كتائبه ونظّم فيالقه ونقل آلاته الحربية ومناجيقه وعراداته، وجهّز بعناية جميع الأدوات العادية المستخدمة في عمليات الحصار. وبعدما أتمّ هذه الاستعدادات زحف نحو منطقة ما وراء الأردن قاصداً محاصرة حصن الكرك. وكان من أرفع المطامع التي كان صلاح الدين يصبوا إلى تحقيقها، أن يدمّر هذا الحصن وسيّده ارناط الجاحد. فطالما بقي هذا الحصن بيد ارناط، كان بوسعه أن يعترض الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية من الشام إلى مصر وبالعكس،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٢٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٩.
- وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦٢.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦٣ - ١٠٦٥.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٢٤.

ودلّت التجربة على أن ما من معاهدة كبحت جماح ارناط.(1)

ما ان علم ارناط عن طريق مراقبيه وكشافيه بنيَّة صلاح الدين محاصرة الكرك حتى خفّ إلى هناك مع قوّة من الفرسان بدت كبيرة بما منه الكفاية، لحماية الحصن والموقع المهم. وكانت له اهتمامات أخرى بالكرك، فقد عزم على أن يهيّىء كلّ ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبّهة للاحتفال بزواج الأميرة إيزابيلا على همفري سيّد تبنين من قلعته بالكرك. وفعلاً ابتدأت احتفالات الزواج في الحصن فعطّلتها فجأة ما ورد من أنباء مزعجة عن اقتراب صلاح الدين بجيشه من الكرك. ويقال إن صلاح الدين ظهر أمام الموقع الحصين إثر وصول ارناط إليه وبعد فترة قصيرة جداً من انتهاء احتفال الزواج، لا بل في ذلك اليوم نفسه بالفعل.(2)

وحدث في ٢٠ تشرين الثاني ١١٨٧، أن لحقت بصلاح الدين إمدادات من مصر، فعسكرت أمام أسوار الكرك. وساق الفلاحون من السريان المسيحيين، بالريف قطعانهم إلى داخل المدينة التماساً للأمن والطمأنينة. ولاذ عدد كبير منهم بفناء القلعة.(3)

حاصر صلاح الدين الكرك وضيّق على من به، وأمر بنصب «المنجنيقات والعرادات» التي راحت تقصف المدينة والقلعة بشكل دائم ومستمر، بقذائف الحجارة الضخمة ما سمح له بالاستيلاء على المدينة السفلى. وبقي الحصن وكان بينه وبين المدينة خندق كبير «عمقه نحو ٦٠ ذراعاً، فأمر صلاح الدين بإلقاء الحجار والأتربة فيه ليطمّه، ولم يقدر أحد على الدنوّ منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والمناجيق، فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكّن الرجال من الانتقال سيراً

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠٠.
- وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦٥.

(٢) رنسيمان، مماثل.
- وليم، مماثل، ص ١٠٦٥ - ١٠٦٦.

(٣) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦٧.

تحت السقائف، ليلقوا في الخندق ما يطمّه، ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً».(١)

والجدير ذكره أن صلاح الدين عندما شقّ لنفسه منفذاً إلى المدينة السفلى واحتلّها، لم يتمكّن ارناط أن يفلت إلى القلعة إلاّ بفضل بطولة أحد فرسانه، الذي ظلّ يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر المقام على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى والقلعة، حتى تمّ تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره.(٢)

امتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس البائسين من كلّ نوع، وكان ذلك عبئاً أكثر من كونه معونة للمدافعين المحاصرين. وكانت القلعة مجهّزة تماماً بالمؤن لكن إمدادات الأسلحة لم تكن كثيرة كما بدا ضرورياً للدفاع عن الموقع.

كان صلاح الدين يعمل على إنهاك الكرك المحاصر بالقصف العنيف والمستمر، فلم يجد الناس بداخل القلعة أي فرصة للراحة. وبعد استيلائه على المدينة السفلى، نصب فيها ثمانية مناجيق وثلاثة في الخارج في الموقع المسمّى الربض. واستمرّ الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلاً نهاراً. وقذفت أحجار ذات حجم كبير جداً «بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة للمقاومة»، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة انهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلّى رجال صلاح الدين بواسطة الحبال وقتلوا الحيوانات الموجودة داخل الخندق وحول القلعة واستخدموها لطعامهم. لقد استولى المسلمون على كلّ شيء في المدينة والأماكن المجاورة. وحاول الفرنج في القلعة أن يشيّدوا منجانيق خاص بهم إلاّ ان المسلمين، قصفوه فدمّروه.(٢)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢) وليم، مرجع سابق، ص ١٠٦٧ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧١٢.

استمرّت احتفالات الزواج تجري داخل القلعة، رغم القصف المستمر ويقال، والله أعلم، أن والدة العريس أعدّت صحوناً من الطعام الشهي، المتوافر بكثرة. وبعثت بها إلى صلاح الدين. وأرسل صلاح الدين، مقابل ذلك، يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان، ثمّ أصدر الأوامر بألاّ يتعرّض هذا البرج للقصف والتدمير من أدوات الحصار. وفيما عدا ذلك لم يخفّف جهوده، فما زالت مجانيقه التسعة تواصل قصفها، وطمّ رجاله الخندق بكامله على وجه التقريب.(١) والأيام ستشهد أن هذا العمل كان أحد أعمال صلاح الدين الحسنة.

في هذه الأثناء، هرعت رسل ارناط إلى القدس، تطلب المساعدة من بودوان الذي استدعى الجيش الملكي بكامله، وزحف باتجاه الكرك بنفسه، محمولاً على محفّة، كيما يكون مع رجاله، لأنه كان مريضاً.

ولدى وصوله إلى البحر الميت، عيّن كونت طرابلس قائداً للجيش وآمراً للقوات بأسرها. ولما بلغ الخبر من كشافته وعملائه عن مسير الفرنج باتجاهه، رفع صلاح الدين الحصار عن حصن الكرك في ٤ كانون الأول. ولم تلحق مجانيقه بأسوار الحصن إلاّ أضراراً ضئيلة، ثمّ قفل راجعاً إلى دمشق. دخل بودوان إلى الكرك في محفته في موكب الظاهر المنتصر. وأضحى ضيوف الزواج أحراراً للعودة إلى منازلهم.(٢) والجدير ذكره أن صلاح الدين، أثناء انسحابه إلى دمشق، نهب كلّ ما وُجد على طريقه. ولما وصل إلى نابلس أحرقها وخرّبها وقتل من فيها وأسر وسبى، ثمّ سار إلى سبسطية «وبها قبر زكريا عليه السلام، وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين، فاستنقذهم ورحل إلى جنين، فنهبها وخرّبها، وعاد إلى دمشق».(٣)

---

(١) رنسيمان، مماثل،

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧١٣.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٣) ابن الأثير، مماثل، ص ١٢٨.

في الصيف التالي، العام ١١٨٤، توجّه صلاح الدين مرة أخرى لمنازلة حصن الكرك، واشترك مع جيشه كتائب، أرسلها إليه الأمراء الأراتقة. كانت استحكامات الحصن، ضخمة ومن المناعة ما جعلها تستعصي مرة جديدة على صلاح الدين. فلم يتمكّن أن يغري المدافعين بالخروج لقتاله على المنحدرات في أسفل المدينة.[1] وللمرة الثانية انسحب صلاح الدين إلى دمشق، عندما وصلته الأخبار بأن الجيش الفرنجي أصبح على مقربة من قواته.

ترك السلطان بعد انسحابه سرية من جيشه للإغارة على منطقة الجليل ولتمضي في نهب البلاد الواقعة إلى الجنوب حتى نابلس.[1]

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧١٤.

الفصل السابع
- معركة حطين بداية النهاية لوجود الفرنج في الشرق
- سقوط مملكة القدس الفرنجية (١١٨٦-١١٨٩)

١ - توطئة

في العام ١١٨٥، غيّب الموت ملك القدس، بودوان الرابع، بعد مرض طويل وكان له من العمر أربعة وعشرين سنة، ويعتبر أتعس من حكم القدس من الملوك. أما كفايته أو قدرته فلم تكن موضع شك، كما أن بسالته كانت بالغة الروعة.

بعد وفاته وافق بارونات الفرنج، على اقتراحات ريموند، كونت طرابلس، بأن يلتمس من صلاح الدين عقد هدنة لمدّة أربع سنوات. ولم يكن صلاح الدين من جهته، بأقل رغبة في عقد مثل هذه الهدنة، بغية ضبط ما وقع من شجار بين أقاربه في مصر، وكان قد ترامى إلى سمعه أيضاً، أن عز الدين أمير الموصل يوشك على العصيان مرّة أخرى. تمّ توقيع المعاهدة بين صلاح الدين والفرنج، وتقرّر من جديد استئناف التجارة بين إمارات الفرنج وجاراتها، وما تدفّق من القمح من الشرق الإسلامي أنقذ المسيحيين من الموت جوعاً.(١)

في صيف ١١٨٥، سار صلاح الدين نحو الشمال للاستيلاء على ديار بكر، ولكي يريح رجاله في المرتفعات حيث الهواء الصحي العليل. فخرّ هو مريضاً هناك وتحامل

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧١٨ - ٧١٩.

Grousset, op, cit. p. 193. -

على نفسه، بالرغم من إشرافه على الموت، وتوجّه إلى قلعة صديقه كوكبوري في حرّان، وبصحبته أبرع أطباء الشرق، للقيام بمعالجته. ازدادت حالته سوءاً، وإذ اعتقد صلاح الدين أن نهايته قد اقتربت، وأدرك ان كلّ أقاربه يتآمرون للظفر بإرثه، طلب إلى أمرائه أن يقسموا الولاء لأبنائه، ثمّ حدث فجأة أن عادت عافيته إليه، ولم يحل كانون الثاني ١١٨٦، حتى تجاوز مرحلة الخطر. وفي شهر نيسان من السنة نفسها عاد إلى دمشق وأصبحت إمبراطوريته تمتدّ إلى أطراف بلاد فارس.[١] وفي هذه السنة أيضاً توفي ملك القدس بودوان الخامس عن تسع سنوات من العمر. ولم يطل الوقت حتى أصبحت سبيلاّ وغي لوزينيان ملكة وملك على القدس، فتمزّقت المملكة إلى أحزاب متعادية، وحلّت الفوضى، وكان من الخير أن تظلّ الهدنة المعقودة مع المسلمين قائمة. وكان الملك غي يودّ المحافظة على هذه الهدنة، غير انه كان يمضي في تفكيره منفرداً عن صديقه أمير الكرك ارناط - (رينو دي شاتيون).[٢]

٢ - أمير الكرك ارناط يخرق الهدنة من جديد (١١٨٧)

لقد أدرك البارونات الفرنج ما يمكن أن تؤدي إليه حملات صلاح الدين لاحقاً. ففي السنة ١١٨٣، قرّر البلاط الملكي في القدس، فرض ضريبة استثنائية عامة، وكان ينبغي إنفاق الأموال المحصّلة جميعها تقريباً على تعزيز الدفاع ضد المسلمين الذين اشتدّ نشاطهم. كان مقدار الضريبة يتوقّف على قيمة الأموال. وفي ١١٨٤ - ١١٨٥، ذهب بطريرك القدس والأستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين إلى أوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد، لقد سافروا لطلب المعونة ضد المسلمين،[٣] الذين بدأ ضغطهم المنتظم والدائب على ممتلكات الفرنج. إن غياب

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٢١.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٢٦ - ٧٢٧.

(٣) زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩٠.

التلاحم بين الأمراء والإقطاعيين الفرنج الغارقين كلياً في الهموم الدنيوية، وفي المخاصمات بسبب الأراضي والألقاب، وفي الحيل والمؤامرات السياسية. وقد أتاح لصلاح الدين في السنة ١١٨٧، أن يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس، عندما قدّم الأمير ارناط لصلاح الدين الذريعة المباشرة للقيام بهجومه الصاعق.

في أواخر السنة ١١٨٦، ولربما في أوائل ١١٨٧، حدث أن قافلة كبيرة من التجار، كانت آتية من مصر إلى بلاد الشام، في حراسة قوّة صغيرة من الجنود المصريين، لحمايتها من البدو المغيرين عليها في الصحراء، ولدى وصولها على مقربة من الكرك، شنّ ارناط، صاحب الكرك مكراً وغدراً وخلافاً لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس، غارة على القافلة، فقتل جنودها، وحمل إلى قلعته التجار وعائلاتهم وما في حوزتهم من أمتعة. وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كلّ ما سبق أن حازه. وقد ورد في أحد المصادر، أن أخت صلاح الدين كانت من بين أسرى القافلة. والواقع أنها قدمت من مكة في قافلة أخرى، سبقت هذه القافلة في القدوم إلى الشام.(1)

وارناط هذا كان مغامراً وقحاً، كسب شهرة مخزية بمآثره اللصوصية. وقد سبق له أن اجتاح قبرص البيزنطية في السنة ١١٥٥ وأعمل فيها النهب والسلب. ثمّ تزوّج زواج مصلحة من وريثة إمارة انطاكية، واكتسب بهذه الطريقة بعضاً من الممتلكات على نهر العاصي. وقد وقع ذات مرة في قبضة نور الدين زنكي وأمضى في الأسر ١٦ سنة. وبعد إخلاء سبيله، لم تخفّ البتة ميوله إلى المغامرة، فاستقرّ في حصن الكرك، شرقي البحر الميت، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار التي كانت تمرّ في الجوار، لأن

---

(١) زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩٠ - ١٩١.
- Grausset. op. cit., p. 194.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٢٧.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٢.

حصنه كان يقطع الطريق من سوريا إلى مصر إلى الحجاز.[(١)]

لم تلبث أنباء الاعتداء أن بلغت صلاح الدين، الذي أصيب بنكبة مزدوجة، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى ارناط - (رينو شاتيون) يطلب إليه إطلاق سراح جميع الأسرى، والتعويض عليهم عن خسائرهم. غير أن ارناط رفض استقبال رسل صلاح الدين، فتوجّهوا إلى القدس، ورفعوا شكواهم إلى الملك غي لوزينيان، الذي استمع إليهم واهتمّ بشكواهم، وأمر ارناط بأن يدفع التعويضات ويترك الأسرى. غير أن ارناط لم يحفل بأمر الملك، لما يعلمه بأن غي يدين إلى مساندة ارناط في اعتلاء العرش والاحتفاظ به، ولم يكن بوسع غي، ولم يشأ أيضاً، كما تقول المصادر، أن يعرض على ارناط ان يطيعه وإلاّ أذلّه، وإن يكن قد تواقح. لقد قبّح صلاح الدين فعل ارناط وغدره، وتوعّده «ونذر نذراً أن يقتله إن ظفر به».[(٢)]

٣ - معركة حطّين - بداية انحسار الفرنج عن الشرق (١١٨٧)

٣١ - توطئة:

ما حدث من نقض الهدنة، بهذه الصورة الوقحة، جعل الحرب أمراً لا مفرّ منه، وهي حرب لم تكن المملكة الفرنجية المنقسمة على نفسها مستعدّة لمواجهتها، فأسرع بوهمند أمير انطاكية إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين.[(٣)] وعقد كونت طرابلس هدنة لصالح كونتيته، وأمدّها حتى شملت إمارة زوجته بالجليل في فلسطين، على الرغم من أن الملك، الذي له السيادة على الجليل، قد يشتبك في حرب مع صلاح الدين. وظفر كونت طرابلس في الوقت

---

(١) زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩٠.
- ابن الأثير، مماثل، ص ١٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٢٨.

نفسه بعطف صلاح الدين ووعده بمساندته في تحقيق الغرض الذي ينشده، بأن يجعل نفسه ملكاً.(1) استدعى الملك غي أتباعه الموالين له، وتوجّه نحو الشمال إلى الناصرة، لإخضاع الجليل لسيادته، قبل ان يبدأ الهجوم الإسلامي.

في هذه السنة، كتب صلاح الدين إلى جميع الأمراء المسلمين وأهل البلاد الإسلامية، يستنفرهم للجهاد المقدّس ضد الكفار الفرنجة، وكتب إلى «الموصل وديار الجزيرة وأربيل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد ويحثّهم عليه، ويأمرهم بالتجهّز له بغاية الإمكان، ثمّ خرج من دمشق في عسكرها وحلقتها الخاصة...».(2)

كان معروفاً للقاصي والداني أن صلاح الدين أخذ يحشد جيشاً ضخماً في حوران عبر الحدود. وبينما أخذت الجيوش الإسلامية القادمة من سائر السلطنة تجتمع في أيار ١١٨٧، توجّه صلاح الدين، بعدما عيّن ولده الملك الأفضل علي قائداً عليهم، على الطريق المؤدّي إلى مكة. ليتولّى حراسة قافلة الحجاج، التي كان بين أفرادها أخته وابنها محمد بن لاجين، عائدين من المدينة المقدّسة، حتى يطمئن إلى أن ارناط لن يحاول مرة أخرى القيام بغارات قطاع الطرق. وفي تلك الأثناء، تتابعَ تدفّق القوات العسكرية من حلب والموصل وماردين، حتى أضحى أضخم جيش تولّى قيادته صلاح الدين.(3)

قبل ذلك بقليل أي في نيسان ١١٨٧، استقبل الكونت أمير طرابلس في طبرية، رسولاً من قبل الجيش الإسلامي في بانياس. ذلك أن الأفضل، وهو ابن صغير

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٨٢٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٣.
(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٠ - ٧٣١.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- Grausset, op. cit., p. 193 - 194.

لصلاح الدين، وقائد المعسكر في بانياس، تلقّى أمراً من والده بأن يرسل قوّة استطلاعية إلى فلسطين، فرأى أنه من الصواب أن يستأذن لرجاله، لاجتياز أراضي الكونت في الجليل. ونظراً لما ارتبط به الكونت من معاهدة خاصة مع صلاح الدين، لم يكن بوسعه أن يرفض هذا الطلب المثير للحرج والحيرة. وكلّ ما اشترطه الكونت، «أنه ينبغي على المقاتلين المسلمين أن يجتازوا الحدود بعد طلوع نهار يوم غد، وأن يعودوا قبل حلول الظلام، وينبغي ألاّ يلحقوا أضراراً بالمدن والقرى التي يجتازونها. وقد أخطر الكونت سكان مقاطعته بأن يبقوا بداخل الأسوار طوال اليوم الموعود، وألاّ يتطرّق إليهم الخوف.[1] وفي الأول من أيار، وفي الصباح الباكر، شاهد الكونت من قلعته الأمير مظفر الدين كوكبري بن زيد الدين صاحب حرّان والرها، وبصحبته قايماز النجمي ودلدوم الياقوتي، وهما من أكابر الأمراء وغيرهما، في سبعة آلاف من مماليكه يجتازون القلعة فرحين مبتهجين.

٣٢ - مذبحة عيون كريسون (١١٨٧):

بعدما اطمأنّ صلاح الدين على أن قافلة الحجاج وصلت سالمة، سار إلى حصن الكرك وأرسل سراياه من هناك إلى المقاطعة التابعة له وإلى قلعة الشوبك وغيرها، فنهبوا وخرّبوا وأحرقوا، والأمير ارناط قابع في حصنه «لا يستطيع الدفاع عن مقاطعته، وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفاً من العسكر الذي مع الافضل ابن صلاح الدين، فتمكّن من حصار القرى والبلدات فنهبها وحرقها وخربها».[2]

وصلت رسالة الكونت إلى مقدّمي الداوية والاسبتارية (الرهبان) في الفولة في مساء يوم ٣٠ نيسان، يعلمهم فيها بأن

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٠ - ٧٣١.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- Grausset, op. cit., p. 193 - 194.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٤.

المسلمين سيدخلون القطاع ولا خوف على أحد، بل يجب البقاء داخل الأسوار. احتجّ روجر مقدّم الاسبتارية على الرسالة، بينما جيرار، مقدّم الداوية، بادر إلى استدعاء عناصر الداوية من الجهات المجاورة للالتحاق به في الفولة. أما مرشال الداوية، جيمس مايللي مع تسعين فارساً، فقد كانوا في قرية قاقون على مسافة خمسة أميال من الفولة، فقدم وأمضى ليلته أمام القلعة. وفي صبيحة اليوم التالي، ركب الحشد إلى الناصرة، بينما لم يتوقّف جيرار عن السير إلاّ ليهتف بأهل المدينة أن المعركة وشيكة الوقوع. وينبغي عليهم أن يأتوا ليجمعوا الغنائم. وبينما كان الفرسان يجتازون التل الواقع وراء الناصرة، رأوا المسلمين يوردون خيولهم في عيون كريسّون التي تقع بين صفورية وكفركته إلى الشمال الشرقي من الناصرة، قرب حطين،[1] في الوادي الواقع أسفل التل وكان عددهم كبيراً جداً. فبادر الفرنج بالهجوم على المسلمين، فوقعت مذبحة لا معركة. فقد تمكّن رجال كوكبري بن زيد الدين من السيطرة التامة على الموقف، فقتل جيمس مايللي وروجر ولم يلبث أن لقي كلّ فرسان الداوية مصرعهم، ما عدا ثلاثة، كان أحدهم جيرار إذ ركضوا وهم جرحى، عائدين إلى الناصرة. أما الفرسان الفرنج من غير الداوية. فقد وقعوا في الأسر. وخرج بعض السكان النهمين من الناصرة إلى ساحة المعركة يلتمسون الغنيمة التي وعدهم بها جيرار، فجرى تطويقهم وسوقهم إلى الأسر. وعاد الفرسان، المسلمون، إلى نابلس، في الوقت الذي حدّده لهم الكونت ريموند، وقد رفعوا على أسنّة رماحهم رؤوس فرسان الداوية، ولم يلحقوا ضرراً بأي بناء في الإقليم.[2]

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٢..
- أنظر الخطيطة المشهدية - منطقة الجليل.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣١ - ٧٣٢.
- ابن الأثير، .مرجع سابق، ص ١٤٤.
- Grausset, op. cit., p. 195.
- Maalouf, op. cit., p 219.

٣٣ - الفرنج يستعدّون للقتال - التعبئة:

عندما حصلت مذبحة عيون كريسون، كان الملك غي لوزينيان، ينزل عبر الأردن، فدعا كبار أمرائه وأتباعهم إلى الالتقاء به مع جنودهم المشاة والخيالة في عكا. وإذ حرص الاستبارية والداوية، على الانتقام لما دار من مذبحة في كريسّون، فحشدوا كلّ ما بوسعهم أن يحشدوه من الفرسان، فلم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن القلاع والحصون الموكول أمر الدفاع عنها إليهم. وبذل الداوية مساعدة إضافية للملك بأن سلّموه نصيبهم من المال الذي أرسله حديثاً للفرسان الرهبان، هنري الثاني ملك إنجلترا، للتكفير عن مصرع توماس بيكيت. كما أن أمير انطاكية بعث بكتيبة تخضع لقيادة بودوان ابلين، وأرسل ابنه ريمون ليلتحق بالكونت ريمون أمير طرابلس، الذي كان عرّاباً له عند تنصيره.[١] فلم ينقض شهر حزيران ١١٨٧، حتى اجتمع بالمعسكر الفرنجي المقام أمام عكا ١٢٠٠ من الفرسان بكامل أسلحتهم، وما يزيد على هذا العدد من الخيّالة الوطنيين الخفيفين، المعروفين «بالتركبولية»، ونحو عشرة آلاف من المشاة. وقرّر الملك استدعاء البطريرك هرقل للقدوم ومعه «الصليب المقدّس»، غير أن البطريرك ادعى المرض والاعتلال، وعهد بالأثر المقدّس إلى مقدم كنيسة القيامة، ليسلّمه إلى أسقف عكا. وقد راجت الأقاويل أن البطريرك آثر أن يبقى مع عشيقته «باشيا».[٢] بعدها «ساروا من عكا إلى صفورية قرب طبريا، وهم يقدّمون رِجْلاً ويؤخّرون أخرى وقد ملئت قلوبهم رعباً».[٣]

---

(١) رنسينا، مرجع سابق، ص ٧٣٤.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٥.

٣٤ - سير اقتراب الجيشين - سقوط طبريا بأيدي صلاح الدين (تموز ١١٨٧):

لما وردت الأنباء إلى صلح الدين بهزيمة الاسبتارية والداوية الرهبان، وكانوا من أشهر وأشجع فرسان الفرنج، فك الحصار عن الكرك وذهب إلى ملاقات قواته القادمة من كافة البلاد الإسلامية. وفي يوم الجمعة، ٢٦ حزيران ١١٨٧، استعرض السلطان صلاح الدين، قواته في عشترا بجوران، فبلغ عديدهم اثني عشر ألف فارس من الأقاليم والجامكية ما عدا المتطوّعين الذين أرادوا المشاركة في الجهاد ضد الفرنج،(١) فتولّى بنفسه قيادة قلب الجيش، وجعل ابن أخيه، تقي الدين على المجنبة اليمنى، بينما الأمير كوكبري بن زيد الدين، صاحب حران والرها، على المجنبة اليسرى. وخرج الجيش إلى خسفين ومنها توجّه إلى الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا، إلى الأقحوانة، حيث عسكر هناك لمدّة خمسة أيام. وقامت فصائل الاستطلاع بجمع كلّ ما يتعلّق بالقوات الفرنجية من أخبار (الاستعلام التكتي). وفي أول تموز، اجتازت القوات الإسلامية نهر الأردن عند «الصنبرة» وانقسمت إلى لفيفين تكتيين. وفي فجر اليوم التالي انتقل اللفيف التكتي الأول، بقيادة صلاح الدين إلى كفرسبت أو كفركما وعسكر ليلاً في التلال الواقعة بقربها على مسافة خمسة أميال، إلى الغرب من بحيرة طبريا، قريباً من معسكر الجيش الفرنجي «فلم يرَ صلاح الدين، منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم... وجعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال...».(٢) أما اللفيف التكتي الثاني فقد هاجم طبريا ذاتها ونقّب بعض أبراجها «وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها إلى القلعة».(٢) فاجتمعوا بداخلها، وكان الكونت ريموند وأبناء زوجته، مع جيش الملك، غير أن زوجته

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٤.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٥.

الكونتيسة ايشيڤا (صاحبة طبريا) ظلّت مع الحامية القليلة العدد، بالقلعة (طبريا) تقاوم الهجوم، بعد أن أنفذت رسولاً إلى زوجها الكونت تعلمه بما حدث.(١)

ولـمّـا وردت الأنبـاء بأن صـلاح الـديـن اجناز نهر الأردن، عقد الملك غي مجلساً حربياً مع باروناته في عكا في الأول من تموز السنة ١١٨٧. وقد كان رأي الكونت ريموند «انه ينبغي أن تقوم الخطة الحربية على التزام الدفاع المطلق». لأن حرارة الصيف اللافحة ستعيق الهجوم وليست لصالح الفرنج وأن صلاح الدين سينسحب بعد فترة وجيزة لأن قواته الضخمة لن تبقى فترة طويلة في هذه المنطقة الجافة المرتفعة الحرارة. وفي الوقت نفسه تصل الإمدادات من انطاكية. وكان معظم الفرسان يميلون إلى اتباع هذه النصيحة ما عدا الأمير ارناط ومقدم الداوية جيرار اللذين اتهما الكونت بالخيانة وانه باع نفسه إلى المسلمين... والله أعلم...(٢)

بعد ظهر يوم ٢ تموز ١١٨٧، عسكرت قوات الفرنج في صفورية. والواقع أن صفورية تعتبر من أحسن المواقع الملائمة لأن يقوم بها معسكر، لما توافر بها من الماء والمراعي للخيول ولحيوانات الحمل والجر. ولو بقي الفرنج هناك لما خاطر صلاح الدين مطلقاً بمهاجمتهم. إذ كان الجيش الفرنجي يعادل بعديده تقريباً، عديد جيش صلاح الدين، علاوة عن أن موقعهم كان ملائماً لمعسكرهم.(٣) وفي مساء هذا

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٥.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٩٢.
- في هذا الطقس الحار، كانت الخيالة الخفيفة لصلاح الدين أقوى وأفعل وتتحرّك أكثر في أرض المعركة من الخيالة الفرنج الذين يتمنطقون بالحديد والزرد.
(٣) استناداً لما ورد في عدّة مصادر تاريخية عن عديد الجيشين - الإسلامي والفرنجي يمكننا الافتراض، وهو الأقرب إلى الحقيقة، نظراً لحجم أرض المعركة، ان الجيش النظامي لصلاح الدين بلغ حوالي ١٢ ألف رجل، غير أنه ازداد عدداً بما انحاز إليه من المتوطعة ومن كتائب حلفائه، فأضحى عدده يقدّر بحوالي ١٨ ألف رجل. أما الجيش الفرنجي فقدّر عدده بـ١٥ ألف رحل. على أن الفرسان الفرنج كانوا أفعل من الفرسان المسلمين في تجهيزهم واعدادهم، بينما كانت الخيالة الحفيفة عند صلاح الدين، فيما يبدو، أكثر أعداداً وتجهيزاً من التركبولية عند الفرنج، كما ان مشاتهم كانت أفضل من مشاة الفرنج.

اليوم، وفور وصول رسول الكونتيسة صاحبة طبريا (وزوجة الكونت ريموند)، عقد الملك للمرة الثانية مجلساً في خيمته، وكرّر الكونت رأيه بالتزام الدفاع ضد قوات صلاح الدين وعدم التخلّي عن صفورية، هذا الموقع الحالي القوي، والمخاطرة بالسير إلى جانب التل الأجرد في قيظ شهر تموز، وقال للملك إنه يعرف المنطقة جيداً. وإنه لا يوجد أي مصدر ماء على طريقه، وإن خيوله وحيواناته ستموت من العطش قبل الالتقاء بالقوات المسلمة، غير أنه يؤثّر أن تضيع طبريا، بكلّ ما تحويه، على أن تضيع المملكة.[١] وانفضّ المجلس بعد أن تقرّر البقاء في صفورية. وأثناء الليل، اقنع مقدم الداوية، الملك بأن الكونت خائن ولا يجب الأخذ بآرائه وراح يحرّضه بأن الفرصة تهيّأت لهم للانتقام من المسلمين. اقتنع غي فارسل المنادين، يطوفون بالخيام ويعلنون أن الجيش سوف يتحرّك عند طلوع الفجر إلى طبرية المحاصرة.[٢]

٣٥ - السير نحو العدو والتماس:

أ - أرض المعركة:

المعروف أن أقصر طريق وأسلكها يؤدي من صفورية إلى طبريا (١٧ ميل)، يتجه قليلاً نحو الشمال والشرق، عبر تلال الجليل، ثمّ يهبط إلى بحيرة طبريا، على مسافة ميل شمالي المدينة. أما الطريق الآخر، فإنه يسير إلى الجسر المقام عند «الصنبرة»، حيث يتفرّع منه طريق يتجه نحو الشمال في محاذاة البحيرة.

ب - السير نحو سهل حطّين:

يقع معسكر صلاح الدين في كفرسبت، على الجانب الآخر من طريق الصنبرة، الذي سلكه السلطان بعد عبوره النهر. علم صلاح الدين، بواسطة عملائه، أن الجيش الفرنجي يتحرّك من صفورية، على امتداد الطريق الشمالي باتجاه طبرية، عندئذ قاد لفيفه التكتي الأول نحو خمسة أميال عبر التلال، حتى بلغ حطين، حيث أخذ الطريق

---

(١) Grousset, op. cit. p. 196.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٧.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٥ - ١٤٦.

بالانحدار نحو البحيرة، وكان قبل انطلاقه، أعطى أمره إلى اللفيف التكتي الثاني، الذي كان يحاصر طبريا، بالالتحاق به فوراً، بعد الإبقاء على قوّة صغيرة لحصار القلعة. وكانت حطّين قرية، غزرت بها المراعي، وتوافرت فيها المياه. وقد انتشرت قوات صلاح الدين في هذا السهل الخصب المغطّى بالأشجار المثمرة. وراءه تمتدّ المياه العذبة لبحيرة طبريا التي يصبّ بها نهر الأردن، بينما إلى البعيد، نحو الشمال الشرقي، تبدو تلال الجولان. وبالقرب من المعسكر الإسلامي، يرتفع كثيب من الأرض تعتليه تلّتان يطلق عليهما إسم «قرون حطّين»، تيمّناً بالقرية التي تقع على كتفهما.(١)

في صباح يوم الجمعة ٣ تموز السنة ١١٨٧، غادر الجيش الفرنجي الحدائق الخضراء في صفورية، وكان الطقس حاراً للغاية وجافاً وركد الهواء. وكانت معنويات الجنود هابطة، وشقّ طريقه فوق التلال في منطقة مليئة بالحصى، جرداء وقاحلة. على عكس قوات صلاح الدين التي كانت تستفيد من رطوبة البحيرة المجاورة لمعسكرهم.(٢) في مثل هذه الأحوال، كانت نتيجة المعركة محسومة مسبقاً، وقد قرأها صلاح الدين وكذلك الكونت ريموند الثالث الخبير بمنطقته. لذلك كانت خطة صلاح الدين التكتية منع الفرنج من الوصول إلى شواطىء البحيرة وإبقاءهم في السعير أو في الأتون الحار.(٣)

تولّى الكونت ريموند، وفقاً للعرف الإقطاعي، وباعتباره سيّد إقطاع طبريه، قيادة مقدّمة الجيش الفرنجي؛ بينما تولّى قلب الجيش الملك غي نفسه، وتولّى الأمير ارناط وفرسانه والفرسان الرهبان المؤخرة. لم تتوفّر المياه، والآبار جافة على امتداد

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٧.
- Maalouf, op. cit. p. 222 - 223.
(٢) Grousset, op. cit., p. 197.
(٣) Grousset, op. cit. p. 197.

مسلك التقدّم،[1] فاشتدّت معاناة الرجال والخيول للظمأ، وترتّب على شدّة عنائها وعذابها، أن ابطأت في سيرها. ودأب رماة المسلمين على إرهاق الجيش الفرنجي بالهجوم على المقدّمة والمجنبة ورمي قلب الجيش بالسهام، ثمّ يسرعوا إلى الابتعاد، قبل أن يبادر الفرنج بهجوم معاكس. وقد وقعت عدّة إصابات بين قتيل وجريح من الرجال والخيول.[2]

بعد ظهر ذلك اليوم. وصل الجيش الفرنجي إلى الهضبة التي تشرف على حطين مباشرة، وكانت تقع أممهم تلّة صخرية تعلوها قمّتان على ارتفاع نحو مائة قدم، ومن ورائه هبطت الأرض في انحدار شديد إلى القرية وإلى البحيرة... انها «قرون حطين».

قرّر الملك التوقّف في هذا المكان وتمضية الليل فيه، نظراً للإرهاق الذي حلّ في الرجال والخيول. وبناء على نصيحة الكونت، أقام الملك عسكره في قرية لوبيا وراء الرابية مباشرة، تجاه المنحدر حيث تقع بئر للمياه، غير أن اختيار الموضع كان سيئاً نظراً لجفاف البئر، لذلك راح الكونت يصيح «يا الله انتهت الحرب، لقد هلكنا، وزالت المملكة».[3]

٣٦ - المعركة (٤ تموز ١١٨٧):

لم يكتم صلاح الدين فرحه وسروره، إذ حانت له آخر الأمر الفرصة التي ينشدها.

أمضى الفرنج ليلتهم في بؤس وعطش قويين يستمعون إلى ما كان يتردّد في خيام المسلمين، من الأدعية والأناشيد الدينية.

---

(١) Grousset, op. cit. p. 197.

(٢) Maalouf, op, cit. p. 222.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٨.

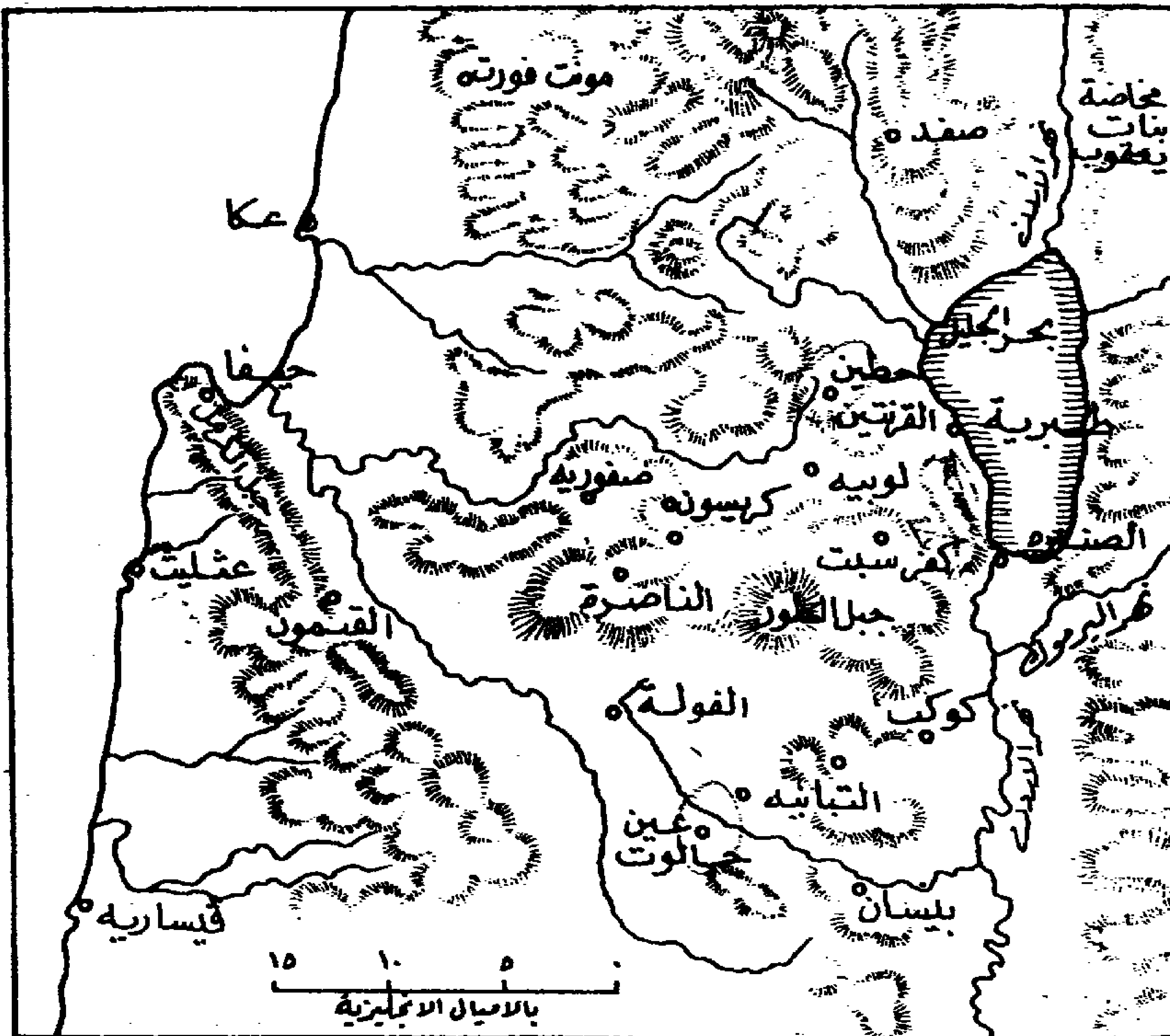
- إذا سار الجيش سيراً عادياً يمكن أن يصل إلى طبريا في مدّة ٤ أو ٥ ساعات.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٨.

- Grousset, op. cit. p. 198.

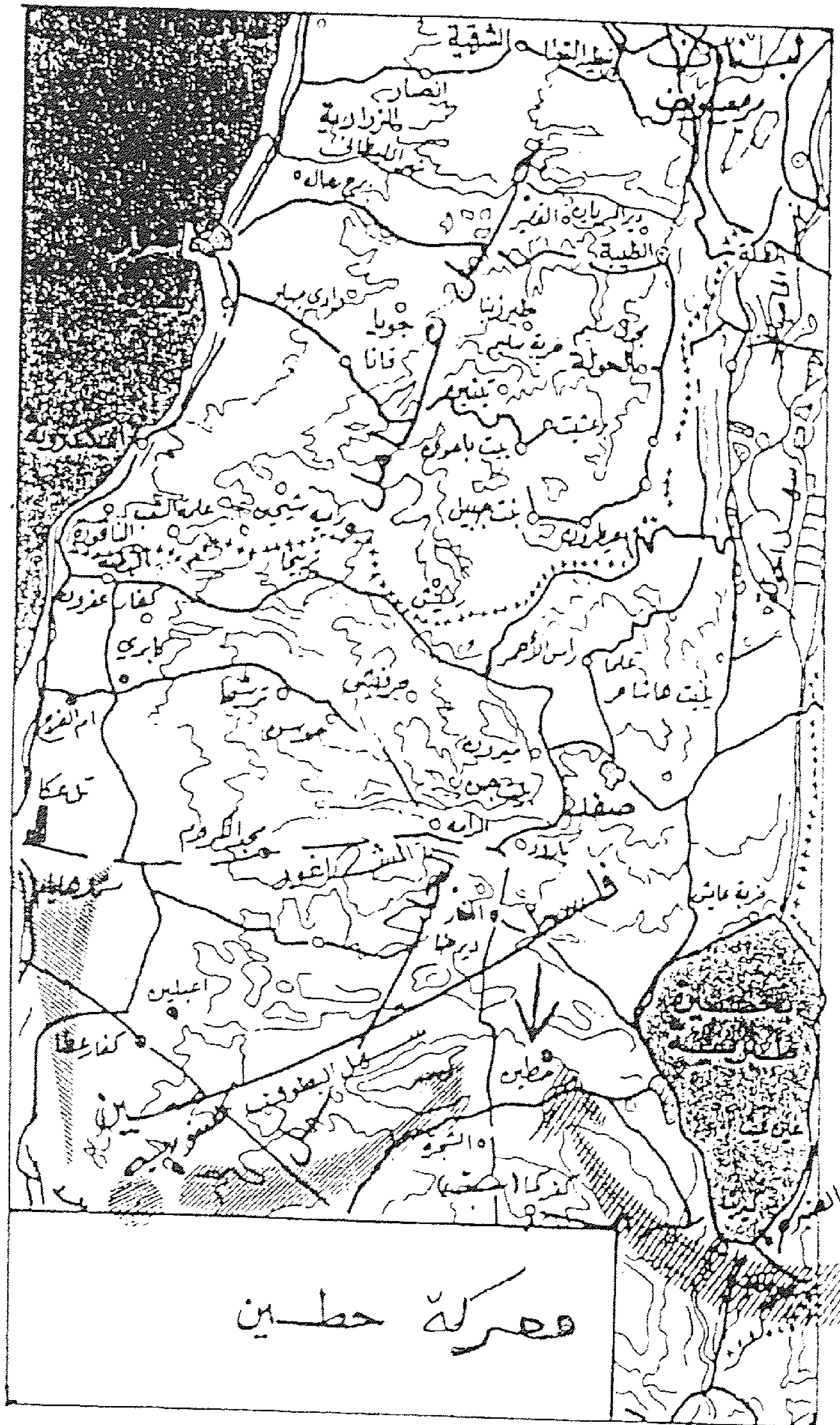
- Maalouf, op. cit. p. 222.

معركة حطّين



الجليل

معركة حطّين



وانطلق من معسكر الفرنج جماعة من الجنود لجلب المياه من البحيرة، غير أن محاولتهم باءت بالفشل ولقوا مصرعهم على أيدي دوريات صلاح الدين. وفي جنح الظلام، حرّك صلاح الدين قواته، وما ان بزغ فجر يوم السبت ٤ تموز، حتى تمّ تطويق الجيش الفرنجي. ويقول أحد المؤرّخين، انه «ليس بوسع أي رجل أن يفلت من الشبكة المنصوبة».(١)

استفاد المسلمون من الريح التي هبّت صباح ذلك النهار، من الشرق (ريح الخمسين)، فأقدموا على إشعال النار في الأعشاب والشجيرات الجافة - اليابسة، التي تغطي التل، فغشى المعسكر الفرنجي الدخان المتصاعد إلى أعلى والذي زاد من عطش وظمأ المقاتلين والخيول. بدأ المسلمون الهجوم عقب طلوع النهار، ولم يخطر بخلد المشاه الفرنج إلاّ فكرة واحدة، تدور حول الماء إذ حاولت جماعة كبيرة منهم أن تشقّ طريقها على المنحدر المؤدّي إلى البحيرة، غير أنه جرى ردهم إلى التل، وقد لقي عدد كبير منهم مصرعه على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر،(١) فاختلط المشاة بالخيالة الذين تمكّنوا لمرّتين متتاليتين من ردّ خيالة المسلمين ومشاتهم والوصول إلى قرب مركز قيادة صلاح الدين نفسه. ولكن في نهاية الأمر انتصر العدد على الشجاعة والبأس. فالفرسان الذين اتخذوا مراكزهم على التل، استماتوا في القتال، في شجاعة وبسالة نادرتين، إذ ردّوا حملات المسلمين، الواحدة بعد الأخرى، وكبّدوهم خسائر فادحة، غير أن أعدادهم أخذت تتضاءل وبدأت قواهم في الانهيار، بعد أن أضعفها الظمأ الشديد. وقبل فوات الأوان، وبناء على أمر الملك، قاد الكونت ريموند فرسانه، محاولاً اقتحام خطوط قوات صلاح الدين، فحمل بكلّ فرسانه على القوات التي كان يقودها تقي الدين، ابن أخ

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٣٩.

- Grousset, op. cit, p. 198.
- Maalouf, op. cit. p. 223.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٧.

صلاح الدين، فأفسح له تقي الدين الصفوف حتى إذا نفذ منها بفرسانه، سدّ تقي الدين هذه الثغرة، فلم يعد بإمكان الكونت العودة إلى ساحة القتال، فتابع سيره، مع بعض البارونات وفرسانهم، إلى الشاطىء والباقي إما قتل أو أسر. ومن الشاطىء انتقل الكونت إلى طرابلس. ويقال إن القادة المسلمين هم الذين سمحوا للكونت بالفرار من المعركة، بناء على أمر من صلاح الدين نفسه[1] والله أعلم؟؟. ولم يلبث الأمير باليان ابلين ورينولد سيّد صيدا أن شقّا لهما بعد فترة قصيرة من فرار الكونت، طريقاً إلى خارج المعركة، فكانا آخري من هرب.[2]

لم يعد للفرنج بارقة أمل، مع ذلك ظلّوا يقاتلون، أثناء انسحابهم إلى قمّتي قرون حطين، وتقرّر نقل خيمة الملك الحمراء، ونصبها بأعلى القمة، والتفّ الفرسان حول مليكهم. وشهد الأفضل، من أبناء صلاح الدين الصغار وكان عمره ١٧ سنة فقط، أول معركة في حياته، بينما كان يقف إلى جانب والده. وبعد انقضاء سنوات عديدة، أشاد الأفضل بشجاعة الفرنج.[3] وبعد عدّة محاولات، قام بها فرسان صلاح الدين، للوصول إلى خيمة الملك وردّهم على أعقابهم من قبل الفرسان الفرنج الذين كانوا يقتربون جداً من خيمة صلاح الدين، «فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم. إلاّ أن الفرنج لا يحملون حملة، فيرجعون إلاّ وقد قتل منهم... ولم يتمكّنوا من نصب خيمة إلاّ خيمة ملكهم لا غير. وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمّونه صليب الصلبوت... فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم... فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين...».[4]

---

(١) Maalpuf, op. cit., p. 223.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٠.

(٣) Maalouf, op. cit., p. 223.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٧.

قال الأفضل واصفاً المعركة النهائية على الشكل التالي: «فيما انسحب الملك إلى قمّة التل، قام فرسانه بهجوم رائع، وردّوا المسلمين على والدي، وقد شهدت اضطرابه، إذ تغيّر لونه وصار يمسك بلحيته، ثمّ قال بصوت جاهوري: «الشيطان لا يجب أن ينتصر»، وعندئذٍ انقضّ رجالنا على العدو، الذي ارتدّ إلى التل، وحينما رأيت الفرنج يهربون، صرخت فرحاً وسروراً «لقد هزمناهم»، غير أنهم حملوا مرة أخرى، وردّوا رجالنا، مرة أخرى، إلى حيث يقف والدي، وحثّ والدي الرجال للمرّة الثانية، على أن ينطلقوا لقتالهم، فدفعوا العدو إلى أعلى التل، فصحت مرّة أخرى «لقد هزمناهم»، غير أن والدي التفت إليّ وقال، «لم نهزمهم طالما ظلّت خيمة الملك قائمة على التل». وفي تلك اللحظة، هوت الخيمة... وعندئذٍ ترجّل والدي عن فرسه وسجد على الأرض، وقد امتلأت عيناه بالدموع فرحاً جذلاً، وأخذ يشكر الله ويحمده».(١)

وكان سبب سقوط خيمة الملك، أن الفرسان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً وتعباً «فنزلوا عن خيولهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك أرضاً وأسروهم عن بكرة أبيهم».(١)

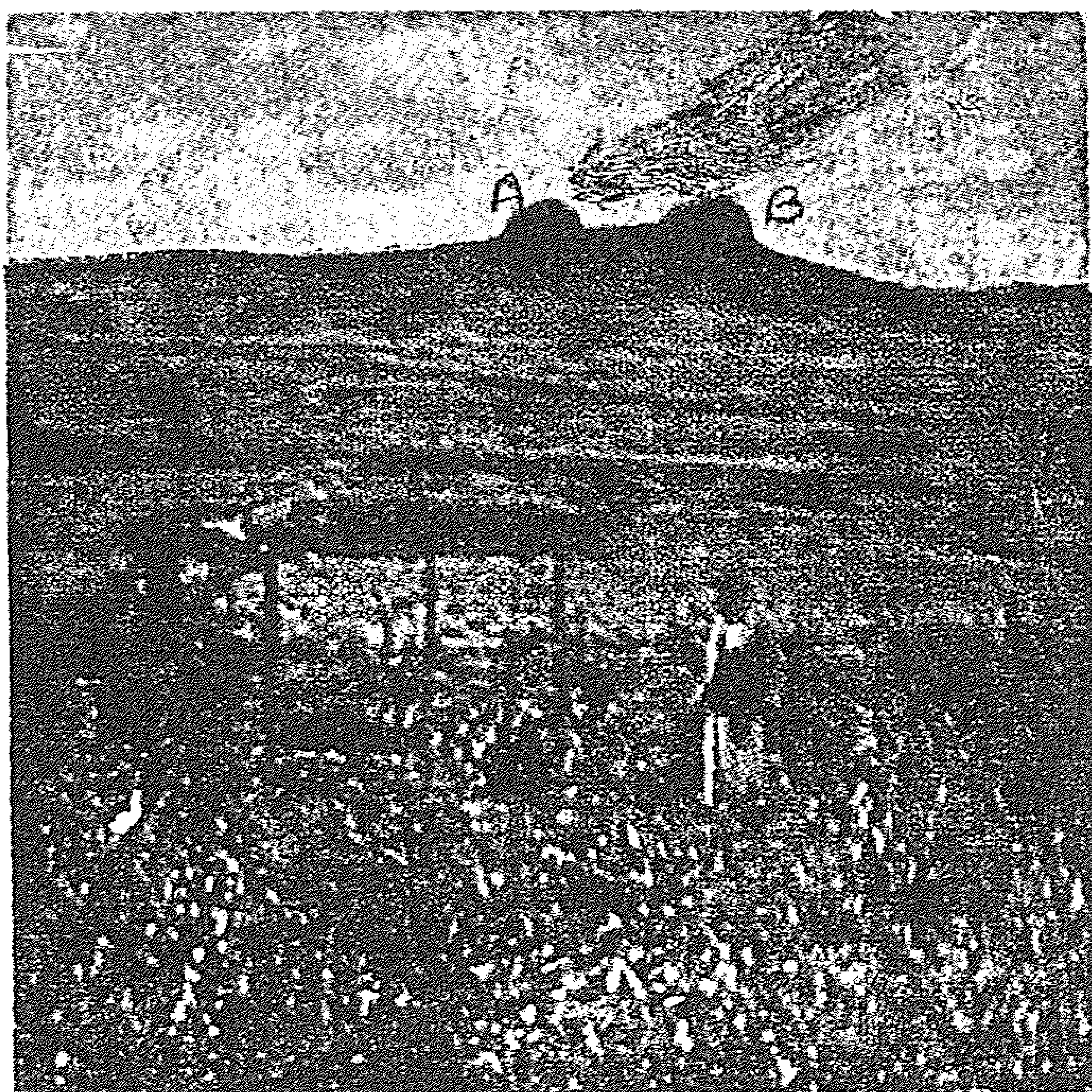
عندما رأى صلاح الدين بأم عينيه خيمة الملك قد تهاوت على الأرض، صرخ فرحاً وامتطى فرسه واتجه نحو خيمته لاستقبال الأسرى الكثر.

٣٧ - نتائج يوم حطين:

دامت المعركة في قرون حطين نحو سبع ساعات متتالية فقط. وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة في ساحة الوغى، ووقع في أسر صلاح الدين الملك غي لوزينيان وشقيقه اموري، قائد الجيش الفرنسي، ورينو شاتيون (ارناط) وابن زوجته همفري صاحب تبنين، والأستاذ الأكبر لجمعية الهيكليين جيرار ريدفور وكثيرون

(١) Maalouf, op. cit., p. 224.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٨.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٠ - ٧٤١.

سهل حطين



سهل حطين وتبدو قرونه A وB

من البارونات، غليوم مونفيرات وغيره. ولم ينج سوى بضع مئات من الأشخاص فرّوا إلى صور واحتموا وراء أسوارها.(١)

في هذه المعركة لقي أسقف عكا مصرعه، واستولى المسلمون على صليب الصلبوت، الذي كان يحمله أثناء المعركة. وجرى نقل قادة الفرنج إلى خيمة صلاح الدين. ويصف الكاتب عماد الدين الاصفهاني، مستشار السلطان، والذي رأى المشهد داخل خيمة صلاح الدين:

استقبل السلطان في خيمته القادة الأسرى، فحيّاهم في لطف وبشاشة وأجلس الملك الفرنجي غي لوزينيان إلى جانبه، ولما دخل الأمير ارناط، أجلسه بالقرب من مليكه وراح يذكّره بأعماله المشينة من نهب وسلب وخيانته وغدره، وعدم التزامه بقواعد الدين، فضلاً عن نهمه وشراهته، وعدم احترامه للاتفاقات والمواثيق. فردّ عليه ارناط بواسطة المترجم «جميع ملوك الأرض تصرّفوا على هذا الشكل، وأنا لم أفعل شيئاً زيادة على ما كانوا فعلوه». في هذه الأثناء، لاحظ صلاح الدين ما حلّ بالملك من الظمأ، فناوله كأساً امتلأ بالجلاّب، الذي أثلجه بقطعات من الثلج الوارد من جبل حرمون في لبنان، فشرب منه غي، ثمّ سلّمه إلى ارناط الذي كان يجلس إلى جانبه. ووفقاً للضيافة العربية، فإن بذل الطعام أو الشراب إلى الأسير، معناه الإبقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين بأن قال للمترجم: «قل للملك انه هو الذي أعطى ذلك الرجل الشراب وليس أنا»، ثمّ سلّ سيفه واقترب من ارناط وضربه به بين الرقبة وعظم الكتف. ولما وقع أرضاً، تقدّم حرس السلطان، وأطاحوا رأسه، ثمّ جرّوا جثّته من الرجلين أمام الملك غي الذي راح يرتعد من الخوف، ظاناً أن دوره سيأتي بعده. غير أن صلاح الدين طمأنه قائلاً: «الملك لا يقتل الملك» وان هذا الرجل قد ارتكب

(١) زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩١ - ١٩٢.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤١.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٨.

من الخيانة والغدر ما تجاوز كلّ حدّ وأنه لم يوافق على اعتناق الإسلام كي نعفي عنه، إنه عدو الإسلام».(١)

حفظ السلطان صلاح الدين حياة أغلبية الأسرى بمن فيهم الملك والأستاذ الأكبر (بأمل فدية كبيرة)، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين أعدموا بأمر منه.(٢) فقد عهد إلى جماعة من المتصوفة والزهّاد، الذين كانوا في جيشه، بالإجهاز عليهم.(٣) ولمّا تمّ ذلك، تحرّك صلاح الدين بجيشه من حطين نحو قلعة طبرية. وجرى حمل الأسرى إلى دمشق، حيث تهيّأت للبارونات أسباب الراحة في معتقلهم، بينما تقرّر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق، وبلغ من كثرة الأسرى في هذا السوق، أن هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير (إنها عملية عرض وطلب)، وأضحى بوسع المسلم ان يشتري أسرة سليمة بأكملها مؤلّفة من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتين، بثمانين ديناراً، بل ان أحد المسلمين اعتبر ما أجراه، من مبادلة «نعليه»، بأسير، صفقة رابحة.(٤)

لقد جرت في قرون حطين إبادة أضخم جيش لم تحشد المملكة الفرنجية مثله من قبل، واستولى صلاح الدين على صليب الصلبوت شعار الفرنجة، يحملونه في ساحات الوغى كي ينتصروا. لقد انتصر صلاح الدين وأصبح سيّد العالم الإسلامي بأكمله.

يختلف المؤرّخون في قدر عدد قتلى الفرنج وأسراهم في هذا اليوم حيث ذكر بعضهم «ان عدد القتلى كان اثنين وعشرين ألفاً وذكر آخرون انه كان خمسين ألفاً. كما ذُكر أن المسلمين قتلوا ثلاثين ألفاً وأسروا

---

(١) Maalouf, op., cit., p 225.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٢.

- زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩٢.

(٢) زابوروف، مرجع سابق، ص ١٩٢.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٢.

(٤) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٣.

مثلها. والله أعلم؟؟. لكن أدقّ وصف يمكن اعتماده في هذا المجال هو قول المؤرّخ ابن الأثير:(١)

«وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحداً...».

والحق أن معركة حطين بالنسبة إلى الفرنجة، كانت أضخم من كارثة عسكرية، لأنه لم ينتج عنها أسر الملك وضياع هيبة مملكتهم وسلطتها الفعلية في فلسطين وحسب، وإنما نتج عنها نقص واضح في الفرسان المحاربين - (عصب المعركة) - بعد أن سقط أعظم فرسانهم بين قتيل وأسير. وهكذا غدت فلسطين عقب معركة حطين في متناول قبضة صلاح الدين، فشرع يفتح البلاد والمدن والثغور الفرنجية واحداً بعد الآخر، حتى توّج جهاده، الذي دعا إليه، بالاستيلاء على القدس السنة ١١٨٧.

٤ - سقوط مملكة القدس الفرنجية

٤١ - سقوط المدن والقلاع المهمة قبل سقوط القدس:

لم يبق أمام صلاح الدين، بعد أن دمّر أعداءه، سوى أن يحتل حصون وقلاع الفرنجة في فلسطين ولبنان، خاصة وان جيشهم قد انتهى من الناحية العسكرية... لم ينتظر صلاح الدين نهاية يوم حطين المشهود، ليجمع قادته ويهنّئهم على هذا الانتصار الكبير الذي أعاد شرف الأمة، لأنه قرّر اغتنام هذه الفرصة للاستيلاء على الأراضي التي كان الفرنج قد سلبوها عنوة.(٢)

ففي صباح اليوم التالي ليوم حطين، وكان يوم الأحد في ٥ تموز، عاد إلى طبريا وهاجم قلعتها، فأرسلت كونتيسة طرابلس إلى صلاح الدين تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها، لأنها علمت انه

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٨.
(٢) Maalouf, op., cit., p. 225.

لن تصل إليها أية مساعدة أو مساندة، فوافق السلطان فاستسلمت وعاملها كما يليق بها من الحفاوة والتشريف، وأذن لها ولماشيتها وللمدافعين عن القلعة بالتوجّه بكلّ حرية إلى طرابلس.(١) ولما فرغ من طبريا، تحرّك الجيش المنتصر إلى عكا يوم الثلاثاء في ٧ تموز فوصلها نهار الاربعاء في الثامن منه، فأرسل حاكمها جوسلين، أحد سكان المدينة، ويدعى بطرس برايس، فالتقى بصلاح الدين عند وصوله إلى الأسوار، وعرض عليه تسليم المدينة، إذا كفل السلطان، للسكان حياتهم وأمتعتهم، وافق صلاح الدين ودخلها سلماً وحاول إقناع التجار الإيطاليين بالبقاء فيها. غير انهم خافوا ما سوف يحدث مستقبلاً فغادروها بكلّ أموالهم المنقولة إلى صور. بعدها وضع السلطان يده على المستودعات الضخمة المليئة بالسلع التجارية، من الحرير والمعادن والجواهر والأسلحة فوزعها على عسكره ورفاقه، وعيّن ابنه الأفضل حاكماً على المدينة.(٢)

ارتأى صلاح الدين أن يبقى في عكا عدّة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها. وارتأى أيضاً أنه من السخف الزحف على رأس جيشه الكبير لاحتلال بعض الحصون، لذلك وجّه عدداً من السرايا من جيشه لتتلقّى اذعان المدن والقلاع في شمالي فلسطين وجنوبي لبنان، فملك رجالها، الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها. وضرب الحصار على تبنين فقاومت فأخذوها عنوة في ٢٩ تموز، وأثناء الحصار هذا، سيطرت القوات على مناطق

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤٩.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٣.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٣.
- Maalouf, op. cig. p. 226.
- زبوروف، مرجع سابق، ص ١٩٢.

جبل عامل في لبنان، ما عدا قلعة الشقيف القريبة من النبطية.[1] وصمدت حامية باليان الفرنجي في نابلس بضعة أيام، ولم تذعن إلاّ بعد ان حصلت على شروط مشرفة، ولم تحدث إلاّ مقاومة ضئيلة في غير هذين الموضعين: تبنين ونابلس. وقدم العادل شقيق صلاح الدين من مصر، فألقى الحصار على يافا، ولمّا لم تذعن، استولى عليها عنوة وأسر كلّ من بها من السكان، واتخذ معظمهم طريقه إلى أسواق الرقيق ودور الحريم في حلب. والجدير ذكره أن مؤرّخنا ابن الأثير اشترى هو شخصياً، من سوق حلب جارية صغيرة، فقدت زوجها وأطفالها الستة.[1]

ولما تمّ فتح شمالي فلسطين، تحرّك صلاح الدين إلى الشاطىء اللبناني، إذ هرب إلى صور، صاحب نابلس باليان، وبصحبته معظم من بقي على قيد الحياة في معركة حطين. واشتهرت صور بمناعة أسوارها وضخامة حاميتها، ولمّا فشل أول هجوم وجهه صلاح الدين إليها، تجاوزها إلى غيرها من المدن. فسقطت الصرفند وصيدا سلماً في ٢٩ تموز بعد أن سلّمها الأمير الفرنجي رينو وانتقل إلى قلعة الشقيف. وتابع السلطان اندفاعه شمالاً فاحتلّ بيروت في ٦ آب ١١٨٧ بالقوّة وكذلك استسلمت له جبيل في ١٢ آب بعد أن سلّمها أميرها هيو. وفقاً لما اشترط عليه صلاح الدين عند إطلاق سراحه وعيّن صلاح الدين على بيروت أسامة بن المنقذ حاكماً عليها.[2] واحتلّ صلاح الدين منطقة عكار. ولم ينقض شهر آب سنة ١١٨٧، حتى لم يبق للفرنج جنوبي طرابلس، سوى صور وعسقلان وغزة وبضع قلاع معزولة، ثمّ المدينة المقدّسة بيت المقدس.[3]

في أيلول ١١٨٧، ظهر صلاح الدين أمام عسقلان، وبصحبته الأسيرين، الملك غي لوزينيان ومقدم الداوية جيرار. وجرى

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٥، لاسيما المرجع (٢).

(٢) مكي، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥١ - ١٥٢.

إخطار الملك بأنه لن يُترك حراً إلاّ إذا استسلمت عسقلان. ولما وصلت قوات صلاح الدين أمام أسوار المدينة، خاطب الملك وجيرار السكان، بصوت مرتفع للكف عن القتال، غير أن أهل المدينة لم يردّوا عليهما إلاّ بتوجيه الشتائم لهما.(١) استبسلت عسقلان في الدفاع عن نفسها، وكلّف حصارها مصرع اثنين من أمراء صلاح الدين. وفي ٤ أيلول استسلمت المدينة. وتقرّر السماح لسكانها ان يغادروها، على ألاّ يحملوا معهم سوى أمتعتهم، وتولّى عسكر صلاح الدين حراستهم إلى الاسكندرية في مصر، حتى تمّ ترحيلهم إلى أوروبا. (٢) أما في غزّة، وكانت مركزاً للداوية، فقد أطاعت حاميتها المقدم جيرار واستسلمت لصلاح الدين الذي أطلق سراح جيرار مقابل ذلك. غير أن الملك غي ظلّ بضعة شهور أخرى في سجنه، في نابلس، ثمّ في اللاذقية وتقرّر السماح للملكة سبيلا أن تأتي من بيت المقدس للحاق به. وحدث ما توقّعه صلاح الدين فعلاً، إذ إن إطلاق سراحهما في تموز ١١٨٨، أضاف متاعب أخرى إلى ما سببه له الفرنج من ضيق. والبعض من المؤرّخين يقول إن زوجته الملكة لحقت بالملك ليس في عسقلان بل في انطرطوس عندما حرّره صلاح الدين من الأسر.(٣)

٤٢ - سقوط القدس (٢ تشرين الأول ١١٨٧):

في السنة ٥٧٩هـ احتلّ صلاح الدين حلب، وقد مدحه محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق بقصيدة منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صَفَر
فبشرٌ بفتوح القدس في رجَبِ

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٣.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٦.
(٢) ورد عند ابن الأثير، «ان صلاح الدين رحّلهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان، ص ١٥٤.
(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٧ لاسيما الملاحظة الواردة في المرجع (٢).

أ - استعدادات الفرنج للدفاع عن القدس ١١٨٧:

بينما كان صلاح الدين يحاصر عسقلان وغزة، أرسل قوة عسكرية من جيشه إلى منطقة القدس حيث استولت على عدد كبير من النواحي، من بينها بيت لحم. بعدها لم يبق في تفكير السلطان سوى رغبة واحدة: تتويج حملته المظفّرة ومجرى حياته بفتح المدينة المقدّسة - القدس الشريف. هل سيتمكّن، كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب، من الدخول إلى هذا المكان المبجّل، دون تدمير وإهراق دماء؟؟(١) لذلك بعث إلى أهالي القدس، رسولاً، من لدنه، يدعوهم للتفاوض بشأن مستقبَل المدينة. فيوم دخول قواته عسقلان: استقبل صلاح الدين وفداً من أعيان بيت المقدس، لمناقشة الشروط التي بمقتضاها تستسلم له القدس، غير أنه لم يحدث شيء من النقاش. لقد كان ما عرضه صلاح الدين الظافر - المنتصر، منطقياً للغاية: ليسلّموا المدينة دون قتال. ومن يرغب من السكان ترك القدس، يمكنه اصطحاب كافة أمتعته وأملاكه المنقولة. وستحترم جميع أمكنة العبادة المسيحية. ومستقبلاً، يمكن للحجاج المجيء إلى القدس دون أن يزعجهم أحد من المسلمين.(٢)

لم يدخل الوفد الفرنجي في مناقشة هذه الشروط، إذ رفض رجاله بكبرياء، أن يسلّموا المدينة التي مات فيها المسيح من أجلهم وسوف يدافعون عنها حتى النهاية. عاد الوفد إلى القدس وأقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف. بعدها أمر السلطان كافة قواته المنتشرة في الزوايا الأربع من بلاد الشام، للتجمّع حول المدينة المقدّسة، فوافاه جميع الأمراء مع رجالهم:(٣) «فأيّ مسلم لا يرغب أن يقول لربّه يوم القيامة: إني والله قاتلت في سبيل القدس الشريف، أو الأحسن: لقد استشهدت في سبيل

(١) MAALOUF, OP. CIT. P. 227.

(٢) Maalouf, op. cit., p 227.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٨.

القدس». وقيل إن أحد المنجّمين تنبّأ لصلاح الدين بأنه سيخسر إحدى عينيه يوماً، إذا دخل المدينة المقدّسة، فأجابه: «انني مستعد أن أخسر عيني الاثنتين وأن أستولي عليها».(١) وفي أثناء ذلك أرسل صلاح الدين إلى مصر «اخرج الأسطول الذي به جمع من المقاتلة وفي مقدّمهم حسام الدين لؤلؤ. فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلّما رأوا مركباً غنموه وشانياً أخذوه».(٢) فحين وصل الأسطول، وكان صلاح الدين قد انتهى من قضية عسقلان وغزة، توجّه بقواته إلى بيت المقدس وهو يعلم علم اليقين أن أحداً من الفرنج لا يمكنه تقديم المساعدة إليها من الخارج. وكان باليان ايبلين، سيّد رام الله والذي كان أحد اللاجئين إلى صور، أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الأمان للدخول إلى القدس، لإخراج زوجته الملكة ماريا، التي كانت قد لجأت مع أطفالها إلى المدينة، بعد أن غادرت نابلس، والعودة إلى صور. وافق صلاح الدين مشترطاً ألا يبقى في القدس إلاّ ليلة واحدة وألاّ يحمل السلاح ضد المسلمين. فلما قدّم باليان، وجد البطريرك «المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم» وموظّفي الداوية والاسبتارية، يحاولون تركيز وتجهيز مخطّط دفاعي عن المدينة. وكان باليان «مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك»، وقد طلبوا منه أن يتولى قيادتهم ولن يسمحوا له بالخروج فكتب إلى صلاح الدين يشرح له إقدامه على انتهاك اليمين التي بذلها. على أن السلطان اشتهر دائماً بالدماثة والمروءة مع عدوّه الذي يحترمه. فلم يكتفِ بالعفو عن باليان، بل أرسل حرساً ليرافق الملكة ماريا وأطفالها وحاشيتها وكلّ أمتعتها، إلى مدينة صور. وقيل، والله أعلم؟ إن صلاح الدين بكى حينما شاهد هؤلاء الأطفال، ورثة المجد الغابر، يجتازون معسكره في طريقهم إلى المنفى.(١)

---

(١) Maalouf. op. cit., p. 227 - 228.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٤.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٤٨ - ٧٤٩.

- Maalouf, op. cit. 228.

كانت مدينة القدس مكتظّة بالسكان والأهالي الذين لجأوا إليها بعد يوم حطين، من المناطق المجاورة. ولا يصلح منهم لممارسة القتال سوى فئة قليلة العدد. فالأطفال والنساء كثر، ولم يكن بالمدينة سوى قبضة من الفرسان وبعض مئات من البرجوازيين الذين كانت تنقصهم الخبرة العسكرية. هؤلاء هم سيدافعون عن القدس وأسوار القدس وحياة الناس في داخلها. فلم يسع باليان إلاّ أن ينصّب فارساً كلّ صبي تجاوز الخامسة عشرة من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة، كما أنه نصّب ٣٠ رجلاً من البرجوازية فرساناً - فللضرورة أحكامها.(١) إن أكثرية الفرسان الفرنج كانوا، اما قتلوا أو أسروا. ثمّ وجّه جماعات من الرجال لتأتي بكلّ ما تعثر عليه من الطعام، قبل أن يسدّ عليهم المسلمون المسالك. وتسلّم أيضاً الخزامة الملكية، واستولى على الأموال المرسلة إلى الاسبتارية، من هنري الثاني ملك انكلترا، بل انه نزع الفضة من سقف كنيسة القيامة. ووزّع السلاح على كلّ من استطاع ان يحمله... إنه تنازع الشرف والبقاء.(٢) فضلاً عن ذلك، كان المسيحيون الشرقيون، الأرثوذكس واليعاقبة، العائشون في القدس، يحبّذون صلاح الدين وبالأخص رجال الدين منهم الذين كانوا مرذولين من الاكليروس اللاتيني. وكان السلطان قد وثق في عالم مسيحي ارثوذكسي، من القدس، يدعى يوسف باطيط، فاتخذه مستشاراً في كلّ معاملاته مع الأمراء الفرنج، وبفضله استطاع الاتصال بالجماعات الارثوذكسية في داخل المدينة، فوعدوا بفتح أبواب القدس لقوات صلاح الدين.(٣)

---

(١) رنسيمان، مماثل، ص ٧٤٩.

Grousset, op. cit., p. 200 - 201. -

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٧٤٩.

Maalouf, op. cit., p 228. -

(٣) رنسيمان، مماثل، ص ٧٥٠ - ٧٥١.

Maalouf, op. cit., p 228. -

ب - سقوط القدس (٢ تشرين الثاني ١١٨٧):

في العشرين من أيلول السنة ١١٨٧ فجراً، وصلت قوات صلاح الدين أمام القدس، وركّزت مناجيقها الاثنتي عشرة الثقيلة وعراداتها التي كانت بحوزتها، وشرعت في مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية منها، فدافع الفرنج بكلّ قوّة وفروسية. وكان خيّالة الفرنج يخرجون كلّ يوم إلى ظاهر المدينة يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كلّ يوم فقتل إلى رحمة الله تعالى، «وكان محبوباً من الخاصة والعامة، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد»، فأزالوا الفرنج عن مراكزهم، فانكفأوا إلى داخل المدينة، ووصل المسلمون إلى الخندق، فجاوزوه والتصقوا إلى السور.[١] غير أن الشمس تسلّطت على عيون المقاتلين، كما أن استحكامات القدس كانت متينة للغاية. أمام هذا الواقع نقل السلطان معسكره بعد خمسة أيام، واعتقد المدافعون، أن صلاح الدين رفع الحصار، غير أنه في صباح ٢٦، اتخذ جيشه مراكزه على جبل الزيتون، وأخذ النقّابون في حراسة فرسانه، ومساندة القذائف الحجرية الضخمة لمناجيقه وعراداته، ينقّبون السور الواقع قرب باب العامود، على مسافة ليست ببعيدة من البقعة، التي اقتحم منها كونت اللورين غودفري المدينة قبل ٨٨ سنة (١٠٩٩).[٢] وفي ٢٩ أيلول، أحدث المسلمون ثغرة كبيرة في السور، فشحنها المدافعون الفرنج بكلّ ما استطاعوا حشده

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٥.
- رنسيمان، مماثل، ص ٧٥١.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٧٥٠.
- Maalouf, op. cit., p 229.
- Grousset, op. cit., p. 201.

من الرجال، وحاربوا بضراوة وبأس، وقاموا بهجومات معاكسة عدّة مرات، غير أنهم لم يكونوا من الكثرة ما يجعلهم يصمدون طويلاً إزاء حشود المسلمين الكبيرة. وقد قرّر الفرسان والبرجوازيون اليائسون، مهاجمة رجال صلاح الدين وفتح ممر للانسياب منه إلى الخارج أو الموت والسلاح في أيديهم، غير أن البطريرك لم يوافق على هذه الفكرة، لأنهم سوف يتركون وراءهم نساءهم وأطفالهم، الذين لا مفرّ من استرقاقهم، وقد أيّده في رأيه باليان، لما أدركه من حماقة في إزهاق الأرواح؛ فاتفق الرأي على طلب الأمان وتسليم القدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا «جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان من السلطان الذي امتنع عن إجابتهم». فعادوا خائبين.(١)

أضحت القدس تحت رحمة صلاح الدين، وصار بوسعه أن يقتحمها متى شاء، وقد كان له بداخلها عدد كبير من الأصدقاء ذوي النفوذ والسلطان.

في ٢٠ تشرين الأول توجّه باليان بنفسه إلى معسكر صلاح الدين، ليطلب شروط الصلح. ولدى وصوله إلى خيمة السلطان، أعلن صلاح الدين انه سبق أن أقسم بأنه سوف ينال القدس بحدّ السيف، ولن يحلّه من هذه اليمين، سوى استسلام المدينة بدون قيد أو شرط. وبينما كانا يتحدّثان، اندلع القتال، وأشار صلاح الدين أن لواءه قد ارتفع على سور المدينة، لكن المدافعين تمكّنوا من ردّهم على أعقابهم.(٢)

وأنذر باليان صلاح الدين بأنه إذا لم يمنح الفرنج المدافعين شروطاً كريمة، فإنهم في غمرة اليأس، وقبل ان يقتلوا، سوف يدمّرون كلّ ما يقع تحت أيديهم بالمدينة بما في ذلك المنشئات المقدّسة عند المسلمين (المسجد الأقصى)، وسوف

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٧٥٠.

Maalouf, op. cit., p. 229. -

Grousset, op. cit., p. 201. -

يذبحون كلّ ما بحوزتهم من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، «ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلاّ قتلناه، ثمّ خرجنا إليكم كلّنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذٍ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت اعزّاء أو نظفر كراماً».(١) فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على اجابتهم إلى الأمان. وقَبِلَ صلاح الدين أن يضع شروط الصلح، فعرض بأن: «بوسع كلّ فرنجي ان يفتدي نفسه، على أساس ١٠ دنانير للرجل و٥ دنانير للمرأة، ودينار للطفل. عندها أشار باليان أنه يوجد في المدينة حوالي ٢٠ ألف من الفقراء المعدمين، أفلا يجوز للسلطات الفرنجية أن تدفع عنهم مبلغاً إجمالياً لافتدائهم، فرضي صلاح الدين بأن يقبل ١٠٠ ألف دينار. وقد تبيّن أن هذا المبلغ غير متوفّر، فتقرّر إطلاق سراح ١٨ ألف مقابل دفع ٣٠ ألف دينار. وبناء على أمر باليان ألقت القوات الفرنجية السلاح. وفي يوم الجمعة، ٢ تشرين الأول ١١٨٧، دخل صلاح الدين الأيوبي القدس، ويوافق هذا التاريخ ٢٧ رجب من السنة ٥٨٣هـ الذي يجري فيه الاحتفال بعيد الاسراء، حين أسرى النبي محمد ﷺ إلى بيت المقدس.(٢)

ج - تنفيذ الشروط:

أعطى صلاح الدين أوامره لرجال الشرطة، فراحوا يطوفون الشوارع والمنازل، يمنعون كلّ اعتداء على الفرنج ومسيحيي الشرق، فلم يتعرّض أي منزل من المنازل للنهب أو السرقة، ولم يحلّ بأحد من الفرنج مكروه. وأخذ بليان كلّ ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال

(١) ابن الأثير، عاثل، ص ١٥٦.
- Grousset, op. cit., p 202.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٢.
- Grousset. op. cit., p. 202.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.
- Maalouf, op. cit., p 230.

الافتداء، وقدرها ٣٠ ألف دينار، ولم يعطِ الاسبتارية والداوية أي شيء من أموالهم إلاّ بصعوبة. وكذلك البطريرك الذي دفع عن نفسه ١٠ دنانير فقط وجرّ وراءه كمية كبيرة من الذهب والطنافس والأواني المصنوعة من المعادن الثمينة.(١) ولم يلبث أن تدفّق من أبواب المدينة مجموعتان من الفرنج تألّفت الأولى من اولئك الذين افتدوا أنفسهم، أو تمّ افتداؤهم بفضل جهود باليان، أما المجموعة الثانية فشملت أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم، ولذا توجّهوا إلى الأسر. ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له. فوهبهم له السلطان، فأطلق العادل على الفور سراحهم.(٢) بعدها وهب صلاح الدين إلى البطريرك ٧٠٠ أسير وإلى باليان ٥٠٠. ثمّ أعلن انه سيطلق كلّ شيخ وكلّ امرأة عجوز وأنه سيطلق سراح كلّ من بالأسر من أزواج واباء النساء الفرنج. وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلّ بحسب حالته.(١)

كان يوم دخول صلاح الدين إلى القدس يوماً مشهوداً، فرفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها، ورتب صلاح الدين على أبواب المدينة في كلّ باب «أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقرّ عليهم، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرّقت أيدي سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعمّ الناس فإنه كان فيه على الضبط ٦٠ ألف رجل بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والأطفال».(٣) وقد شاع من تهريب فرنج متنكّرين، على أيدي المسلمين، بعد أن سلبوهم كلّ ما امتلكوا.

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٣.

- Maalouf, op. cit., p 230.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٦.

واعترف أمراء مسلمون آخرون بأنهم عرفوا بعض الأرقاء الفارين، وتقاضوا منهم سراً فديات كبيرة، مقابل ألا يعترضوا سبيلهم. على أنه كلّما اكتشف صلاح الدين هذه الإجراءات، أنزل العقاب الصارم.(١)

فلما ملك صلاح الدين المدينة وفارقها الفرنج، أمر السلطان إعادة الأبنية إلى حالها القديم. إن صلاح الدين، كما يقال، لم يفتح القدس ليجمع الأموال والذهب أو ليثأر، لقد أراد، كما قال هو بنفسه، ان يتمّم واجبه تجاه ربّه وعقيدته الإسلامية. ففي التاسع من تشرين الثاني، أي بعد أسبوع من انتصاره، أمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار وبرشّ ماء الورد عليهما، وكان نهار الجمعة رابع شعبان، فصلّى المسلمون في الأقصى ومعهم صلاح الدين، وصلّى في قبّة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزنكي قاضي دمشق. ثمّ رتّب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر باحضار المنبر الذي كان نور الدين زنكي قد أمر بصنعه في حلب. وكان بين صنع المنبر وحمله إلى القدس ما يزيد على عشرين سنة. ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة، «تقدّم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه.(٢) فأحضروا من الرخام الذي يوجد، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصور. ثمّ نقل إليها المصاحف الحسنة والربعات الجيّدة ورتّب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة! فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً».(٢)

د - مصير اللاجئين الفرنج:

تحرّك اللاجئون بطابور طويل، وساروا ببطء إلى الساحل، ولم يتعرّضوا للاعتداء من قبل المسلمين. وارتحلوا في ثلاث قوافل، تولّى الداوية قيادة القافلة الأولى، وقاد الاسبتارية القافلة الثانية، بينما قاد

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٨.

باليان والبطريرك القافلة الثالثة.وكانت صور قد ضاقت بمن قدم إليها من اللاجئين من جهات أخرى، فلم تستقبل سوى الرجال المحاربين. بعد ذلك اتجه الناس نحو الشمال على طول الشاطىء اللبناني، ولما اقتربوا من مدينة البترون، سلبهم ريموند، سيِّد نيڤن، قدراً كبيراً من سلعهم، فتوجّهوا إلى طرابلس، غير أن المدينة كانت قد امتلأت بمن قدم قبلهم من اللاجئين، وكانت التغذية ابتدأت بالنفاد، فأوصدت الأبواب في وجههم.[1]

فتابع هؤلاء سيرهم باتجاه الشمال حتى وصلوا إلى انطاكية، فسمحت سلطاتها، عن غير طيب خاطر بالدخول إلى المدينة. أما اللاجئون من عسقلان، فكانوا أحسن حظاً، ذلك أنه حينما رفض قادة السفن الإيطالية التجارية ان يحملوهم على سفنهم، إلى الموانىء الأوروبية إلاّ بعد أن يدفعوا أجوراً باهظة، رفضت السلطات المصرية السماح لهذه السفن بالإقلاع، إلاّ إذا قبلت بنقلهم على متنها بدون أن يدفعوا أجوراً.[2]

أما المسيحيون المشرقيون، الارثوذكس واليعاقبة، فقد ظلّوا مقيمين في القدس والتزموا بدفع الجزية فضلاً عن الفدية المقرّرة لكلّ واحد منهم. وقد أعفى صلاح الدين الفقراء منهم من هذه الواجبات. وابتاع أثرياؤهم قدراً كبيراً من الأملاك التي أضحت خالية بعد رحيل الفرنج، واشترى ما تبقّى منها المسلمون واليهود الذين أعادهم صلاح الدين من دمشق إلى القدس. ثمّ تلقّى السلطان سفارة من القسطنطينية لتهنئته ولتطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدّسة المسيحية إلى الكنيسة الارثوذكسية، واستجاب صلاح الدين لهذا الطلب. والواقع أن كنيسة القيامة، لم تغلق أبوابها إلاّ ٣ أيام، ثم تقرّر السماح للحجاج الفرنج بدخولها مقابل رسم يؤدّونه.[3]

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٥.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٥.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٦.

٤٣ - محاصرة صور والانكفاء عنها (تشرين الثاني ١١٨٧):

بعد معركة حطين، لجأ بارونات فلسطين إلى مدينة صور، التي كانت تعتبر أمنع مدينة على الساحل، تصلها إلى البر شبه جزيرة رملية صغيرة، قام عليها سور ضخم «وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير، وقد صار المركيش (المركيز كونرادمونتغرات) صاحبها، والحاكم فيها، وقد ساسهم أحسن سياسة، وبالغ في تحصين البلد».[١] فلو أن صلاح الدين اشتدّ في مهاجمة صور، بعد أن سقطت عكا في يده، لما حال هذا السور دونه، غير انه تمهّل زمناً طويلاً، إذ إن رينالد سيّد صيدا الذي كان وقتذاك يتولّى أمر المدينة، كان يتفاوض في تسليمها، بل ان صلاح الدين أرسل لواءين له، لرفعهما على القلعة، بينما دخلت الميناء، في ١٤ تموز سنة ١١٨٧، بعد عشرة أيام مضت على معركة حطين. وكان على ظهر السفينة كنراد ابن ماركيز مونتيغرات الموقوف في دمشق، وكان يقيم في القسطنطينية، قد اتجه إلى فلسطين للحج ولم يكن يعلم ما حلّ من كوارث في حطين وغيرها إلاّ عندما اقترب من شاطىء عكا وعلم بكلّ ما حصل، فتقدّم إلى صور بسرعة فلقي الترحيب، على أنه منقذ المدينة، فتولّى تنظيم الدفاع عنها، بعدها رفض ما عرضه صلاح الدين، من شروط الصلح، وجرى إلقاء لوائيه في خندق القلعة. وقد كان الفرنج في صور، يتأمّلون بقدوم مساعدة من الغرب الأوروبي الذي سمع نبأ سقوط القدس. فلما ظهر صلاح الدين بعد أيام أمام أسوار المدينة كانت استحكامات المدينة من القوّة، ما تمنعه من مهاجمتها، فجاء بماركيز مونتيغرات من دمشق، واستعرضه أمام الأسوار، وهدّد بإعدامه ما لم تستسلم المدينة له. فلم يتأثّر ابنه كونراد بهذا العرض.[٢]

عندما وصل صلاح الدين إلى صور، نزل على نهر قريب منها بحيث يمكن مراقبتها،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٦٣.

فاجتمع إليه الناس وتلاحقوا وسار باتجاه صور ونزل على تل بالقرب من الأسوار بحيث يراقب القتال. وقد قسّم قواته عدّة أقسام للقيام بخدمة القتال وكان أولاده وإخوته يتناولون الحراسة والقتال، مثل ولديه الأفضل والظاهر غازي وأخيه العادل ابن أيوب، وابن أخيه تقي الدين وكذلك سائر الأمراء. وكان الفرنج يركبون «الشواني والحراقات» في البحر ويرمون السهام باتجاه المسلمين ويقاتلونهم، فكانت سهامهم تنفذ من جانب إلى الآخر، فكثر عدد الجرحى والقتلى بين المسلمين الذين لم يتمكّنوا من الاقتراب من الأسوار.(١) عند ذلك استدعى عشرة مراكب مصرية من عكا، «برجالها ومقاتليها وعدتها»، فتمكّنت من منع مراكب الفرنج من الخروج إلى قتال المسلمين الذين تمكّنوا من الاقتراب من صور براً وبحراً «وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار لما لم يكن في الحساب، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل ميناء صور ليمنعوا الخروج منه والدخول إليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان في مقدّمهم عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته»، وقد تمكّن الفرنج منهم فجأة فقتلوا عدداً كبيراً وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور، والمسلمون في البر ينظرون إليهم. ولم يطل الوقت حتى خرج الفرنج من المدينة وقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم.(١) رفع صلاح الدين الحصار عن صور وتوجّه لمنازلة عسقلان. ولمّا ظهر مرّة أخرى أمام صور، في تشرين الثاني ١١٨٧، تبيّن له ما حدث من ازدياد قوّة استحكاماتها، ووصول إمدادات بحرية، وعسكرية، كما أن رقعة الأرض كانت ضيّقة منعته من استخدام مجانيقه بفعالية.(٢)

عقد صلاح الدين مجلساً حربياً واستمع إلى قواده وأمرائه الذين أشاروا إلى أن الجنود في حاجة ماسة إلى الراحة، إذ كان الشتاء كثير الأمطار وشديد البرد، وحلّت

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥٩ - ١٦٠.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٦٤.

الأمراض في المعسكر. وفي بداية العام ١١٨٨ فرّق صلاح الدين نصف جيشه، ثمّ انسحب للاستيلاء على القلاع الداخلية، الأمر الذي أنقذ مدينة صور.(١)

لقد أمر صلاح الدين عسكره بالعودة في الربيع القادم. فعاد الجميع إلى بلدانهم، وبقي عسكر حلقته الخاص مقيماً بعكا، «فنزل صلاح الدين بقلعتها وردّ أمر البلد إلى عز الدين جورديك، وهو من أكابر المماليك النورية، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة».(٢)

٤٤ - إخضاع الحصون الداخلية (١١٨٨):

كان على صلاح الدين، إخضاع بعض الحصون والقلاع التي كانت ما تزال في يد الفرنج. فالسيّدة استيفاني، سيّدة اقطاع ما وراء الأردن، كانت من الأسرى، فطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها، همفري سيّد تبنين، فوافق على الطلب مشترطاً أن يستسلم له حصناها الكبيران - الشوبك والكرك.. لم تتمكّن هذه السيّدة من الإيفاء بما قبلت به ووعدت، لأن الحاميتين رفضتا طلبها بالاستسلام، فعادت إلى صلاح الدين وأعادت ابنها إلى الأسر، لكن صلاح الدين، إكباراً منه لهذه السيّدة النبيلة، أقدم على إطلاق همفري بعد بضعة شهور.

في هذه الأثناء، نازل العادل والجيش المصري حصن الكرك وألقوا الحصار عليه لمدّة سنة وأزيد، وظلّ المدافعون عن الحصن شهوراً معرّضين للهلاك ولم تذعن القلعة إلاّ بعد أن أكل المدافعون عنها آخر حصان تبقّى لديهم، وكان ذلك في نهاية ١١٨٨. أما حصن الشوبك الذي لم يتعرّض للضغط الشديد فإن مقاومته استمرّت بضعة شهور أخرى.(٣)

في أقصى الشمال أذعنت قلعة صفد التابعة للداوية، وذلك في ٦ أيلول ١١٨٨،

---

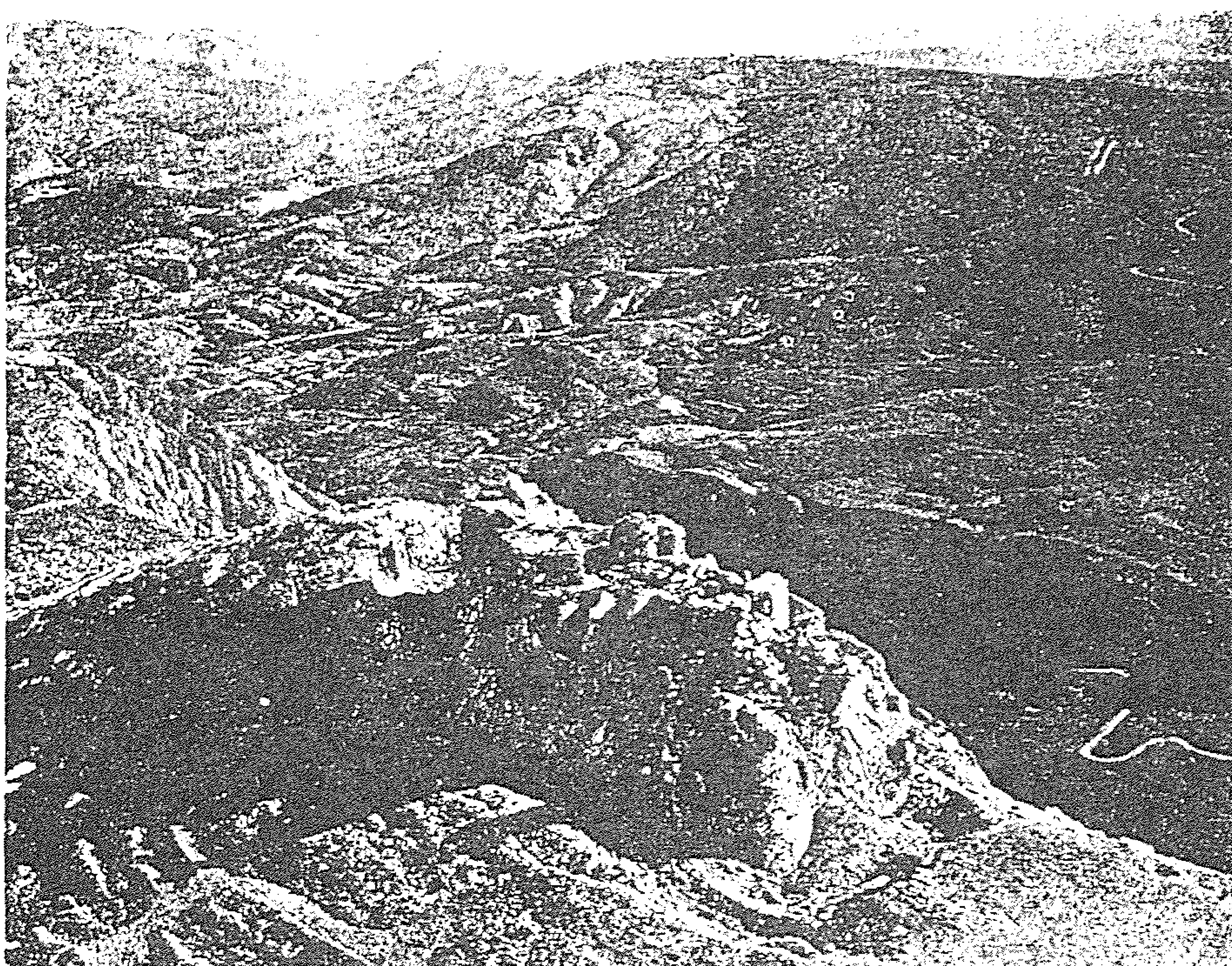
(١) رنسيمان، مماثل، ص ٧٦٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٦ - ٧٥٧.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٧٥.

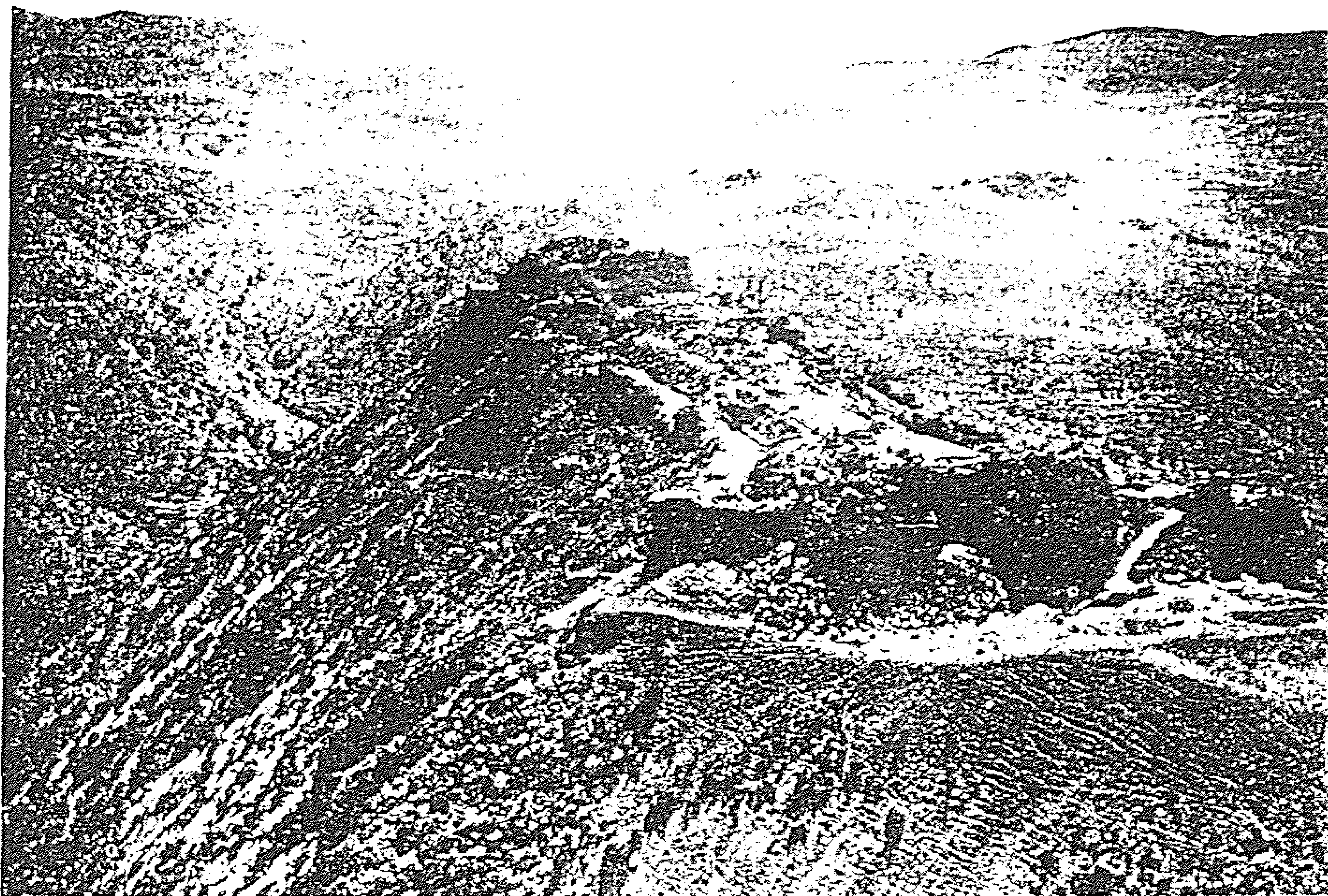
قلعة الشقيف اليوم



قلعة حصن الأكراد



قلعة الصبيبة اليوم



بعد أن قصفتها المناجيق والعرادات بشكل مريع ومستمر لمدّة شهر من الزمن. وبعد ٣ أسابيع من هذا الإذعان، استسلم الاسبتارية في قلعتهم كوكب، التي تقع على مرتفع يطل على وادي نهر الأردن، وكذلك قلعة هونين. أما قلعة الشقيف قرب النبطية، فقد التجأ إليها رينالد سيّد صيدا الذي اجتمع بصلاح الدين الأيوبي، وأعلن عن رغبته في تسليم قلعته، والالتجاء إلى دمشق، إذ أمهله السلطان ثلاثة أشهر لتسوية أموره، بل انه لوّح باعتناقه الإسلام.(١)

اقتنع صلاح الدين بصدق نيّته، غير أن رينالد تمكّن في خلال أيام الهدنة من تقوية دفاعاته في القلعة، وعمّق فيها الخندق الخارجي الملاصق لأسوارها. بينما توجّه صلاح الدين إلى بلاد طرابلس وانطاكية.

خلال يوم حطين تمكّن ريموند كونت طرابلس من الفرار من أرض المعركة والتوجّه إلى إمارته طرابلس حوالى نهاية العام ١١٨٧، إذ لم يلبث بعد فراره أن وقع مريضاً بالالتهاب الرئوي، وبما أنه لم ينجب ذرية ترثه، فقد أوصى بعد وفاته بإمارته إلى ابنه بالمعمودية، ريموند ابن بوهيمند أمير انطاكية.(٢)

وفي الأول من تموز ١١٨٨، اجتاح صلاح الدين البقيعة بعدما وصلته تعزيزات من أصحاب الأطراف، عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور، وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها. فسار حتى نزل قرب حصن الأكراد من الجانب الشرقي، فأقام يومين ثمّ توجّه إلى بلاد الفرنج في إمارة طرابلس، بعدما ترك أثقال العسكر في موضعها قرب حصن الأكراد فأغار على صافيتا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل إلى قرب طرابلس المدينة، «وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها، ثمّ عاد إلى معسكره سالماً، وقد غنم العسكر من

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٥٨.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٧٥٩.

الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حدّ له، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر».[1]

لقد امتنعت عنه طرابلس، لأن أسطولاً صقلياً كان قد وصل إليها. بعدما هاجم انطرطوس، غير أن قلعة الداوية بها امتنعت عليه. ثمّ ضيّق الخناق على أسوار حصن المرقب، حيث حاول الاسبتارية اعتراض طريقه، وأذعنت له جبلة يوم الجمعة ١٥ تموز ١١٨٨.[2] ثمّ استولى على اللاذقية ونهبها وخرّبها، وتحوّل صلاح الدين عن اللاذقية إلى داخل البلاد، إلى صهيون، وهذه القلعة الكبيرة التي كانت بحوزة الاسبتارية، كانت من المناعة، ما يحول دون اقتحامها، غير أنها سقطت عنوة يوم الجمعة في ٢٩ تموز ١١٨٨، بعد قتال عنيف لمدّة ستة أيام. وفي ١٢ آب من السنة نفسها، استسلمت قلعة بكّاس الشغر، برغم ما كان يحميها من خنادق متعدّدة وعميقة. ثمّ سقطت قلعة سرمين في ١٩ آب ١١٨٨. وفي ٢٣ منه استسلمت قلعة برزيه آخر قلعة في أقصى الجنوب من نهر العاصي المقابلة لحصن افامية.[3]

والجدير ذكره أن زوجة قائد حامية برزية، كانت شقيقة أميرة انطاكية، والتي كانت عميلة سرية لصلاح الدين، فتقرّر إطلاق سراح القائد وزوجته هذه. من برزية توجّه صلاح الدين بقواته نحو قلعة درب ساك على العاصي بالقرب من انطاكية، وكانت للداوية. «فنصب المناجيق وتابع الرمي بالحجارة فهدمت من سورها شيئاً يسيراً، فلم يبال من فيها، فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها، وكشفوا الرجال عن سورها وتقدّم النقابون فنقبوا منها برجاً وعلّقوه فسقط، واتسع المكان الذي يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك، ثمّ باكروا الزحف من الغد، وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب انطاكية يستنجدونه، فصبروا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٦٩.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٦٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١.

وأظهروا الجلد... ثمّ طلبوا الأمان، فأمنهم شرط أن لا يخرج أحد إلاّ بثيابه التي عليه، بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها... ثمّ سيّرهم إلى انطاكية».[1]

في ١٦ أيلول سقط حصن دوبباك في جبال الامانوس واستسلمت في ٢٦ أيلول قلعة بغراس، التي كانت تتحكّم في الطريق المؤدّي من انطاكية إلى كيليكيا.[2] على أن الارهاق والتعب حلاّ بجيش صلاح الدين، وأعرب جنود سنجار عن رغبتهم في العودة إلى ديارهم. ولما التمس بوهمند أمير انطاكية من صلاح الدين عقد هدنة، يعترف فيها بكلّ الفتوح الإسلامية، استجاب السلطان.

لم يبق للفرنج في الشمال إلاّ انطاكية وطرابلس فضلاً عن ميناء السويدية وحصني المرقب والكرك (حصن الأكراد) وانطرطوس.[3] ومع هذا فقد حمّل المؤرّخون صلاح الدين مسؤولية الإبقاء على صور التي أضحت معقل اللاجئين وكانت النواة الأساسية لإعادة إنشاء مملكة الفرنج من جديد وعاصمتها عكا وأن تعيش لمدّة قرن آخر من الزمان، بسبب انهيار الدولة الأيوبية وتهديد المغول والخوارزمية لأطراف الدولة وتوالي الامداد من الغرب.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٧٤.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٦١.

(٣) رنسيمان، مماثل، ص ٧٦٢.

الفصل الثامن

- معارك صلاح الدين الأيوبي ضد الفرنجة حتى العام ١١٩٣، عام وفاته.
- المنازعات بين الأمراء الأيوبيين وسقوط دولتهم (١١٨٧-١٢٥٠)

١ - أخطاء صلاح الدين

في غمرة انتصاراته المدوية، ارتكب صلاح الدين خطأً كبيراً، حينما تراجع أمام استحكامات مدينة صور. فلو أنه زحف على صور بعد استيلائه على عكا في تموز ١١٨٧، لامتلكها وقضى على نواة مملكة فرنجية جديدة، عاصمتها عكا. غير أنه اعتقد أن إذعان صور واستسلامها سبق أن تمّ تدبيره، فتمهّل بضعة أيام. فلما وصل صلاح الدين إلى صور كان بها الكونت كونراد مونتيغرات الذي رفض فكرة الاستسلام على الإطلاق. وكان السلطان يومذاك يفتقر إلى المعدات الحربية الكافية التي تسمح له بفرض الحصار المنتظم والمنظّم على مدينة صور، فانصرف بجيشه للقيام بعمليات الاستيلاء على الحصون والقلاع الأسهل والأيسر. ولم يقم صلاح الدين بالهجوم الثاني على صور إلاّ بعدما تمّ له السيطرة التامة على مدينة القدس، في تشرين الأول ١١٨٧، فاستخدم في هجومه جيشاً كبيراً وكلّ ما لديه من أدوات الحصار والمناجيق والعرادات. غير أن كونراد كان قد عزّز ورمّم وحصّن أسوار المدينة بشكل متين وقوي. أمام هذا الواقع، رفع صلاح الدين الحصار، للمرة الثانية، عن صور وأمر بتسريح معظم عناصر قواته، بعد أن ثبت عجز أدوات الحصار التي كانت بين يديه، وحاق بأسطوله الدمار في معركة دارت عند مدخل المرفأ. وقدّمت المساعدات إلى الفرنج من وراء البحار. ففي أواخر خريف ١١٨٨، أرسل

ملك صقلية أسطولاً قوي التسليح، يقوده أمير البحر مرجريتوس بأمرته مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً.[1] الأمر الذي أجبر صلاح الدين على رفع الحصار عن قلعة حصن الأكراد والامتناع عن مهاجمة طرابلس. ويقال إن صلاح الدين كان يسرّه أن يدخل في مفاوضات سلام لذلك اجتمع في اللاذقية مع أمير البحر مرجريتوس ومع «الفارس الأخضر» الاسباني الشجاع، في صيف ١١٨٨، قرب طرابلس، وكان صلاح الدين يأمل في أن يقنع هذا الفارس بتدبير أمر الهدنة وأن يدخل في خدمة المسلمين. غير أن الفارس الأخضر أبلغه أن الفرنج يريدون استعادة بلادهم (مملكة القدس) بأكملها وأن النجدة في طريقها إليهم من أوروبا، وطلب من السلطان التخلّي فوراً عن فلسطين، وعندئذ سيلقى الفرنج أخلص حلفاء له.[2]

على الرغم من أنه لم ينعقد الصلح، فإن صلاح الدين أظهر نواياه الودّية، بأن أطلق سراح جماعة من الأسرى الفرنج البارزين. وفي تموز ١١٨٨، أطلق سراح الملك غي لوزينيان، بعد أن أقسم هذا الأخير أمامه، بأنه سوف يبحر عائداً إلى بلاده وأنه لن يشهر السلاح على المسلمين مرة أخرى.

وقع التنافس بين الملك غي لوزينيان وكنراد على صور وعثر الملك على رجل دين أجاز له التملل من اليمين التي حلفها لصلاح الدين، إذ أخذها منه تحت الضغط والشدّة، وهي يمين باطلة مسيحياً.[3] وفي نيسان ١١٨٩ قدم الملك غي للمرّة الثانية إلى صور، وطلب أن يتولّى الحكومة، فلم يوافق كونراد على الطلب فعسكر غي مع مناصريه أمام أسوارها. وفي هذه الأثناء وصلت من الغرب إمدادات بالغة الأهمية، وظفر غي بمساعدة العسكر الصقلي. ووقع في أوائل الصيف اشتباك خفيف بين الفرنج والمسلمين، غير ان صلاح الدين لا زال يؤثر الراحة لجيشه، كما أن الفرنج توقّعوا قدوم قوات جديدة من أوروبا. وفي

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٠.

نهاية شهر آب ١١٨٩، رفع الملك معسكره من أمام أسوار صور وابتدأ في المسير نحو الجنوب، على الطريق الساحلي وفي نيّته مهاجمة عكا، وقد أقلعت سفن جمهوريتي بيزا وصقلية لمصاحبته ومساندته عند الحاجة أثناء تقدّمه.

٢ - حصار عكا - المناوشات (١١٨٩ - ١١٩١)

لمّا بلغ صلاح الدين نبأ حملة غي لوزينيان على عكا، وكان آنذاك يحاصر قلعة الشقيف قرب النبطية، اعتقد أول الأمر أن الملك لم يقصد سوى أن يصرف الجيش الإسلامي عن القلعة، غير أن جواسيسه أبلغوه أن عكا هي الهدف الحقيقي للوزينيان. عندئذٍ جمع مجلس حربه وكان رأيه أن يهاجم الفرنج عند تسلّقهم درج صور أو عند وصولهم رأس الناقورة، غير أن مجلسه لم يوافق وكان رأيه ان يتركوهم حتى يبلغوا عكا، «يدركوهم بعد حصرهم بين حامية المدينة والجيش الإسلامي». فوافق السلطان على هذه الفكرة.[1]

في ٢٨ آب ١١٨٩، وصل الملك الفرنجي إلى ظاهر عكا وأقام معسكره على تلّ الفخار، على بعد ميل إلى الشرق، قرب نهر بيلوس. بعد ٣ أيام هاجم الفرنج المدينة، لكنهم لم يتمكّنوا من أخذها عنوة، فأقاموا ينتظرون الإمدادات. وكان صلاح الدين قد درج على التردّد عليها وتفقّدها في الشهور الأخيرة، واهتمّ بإصلاح ما أنزله بها جنوده من ضرر حينما استولى عليها السنة ١١٨٧، فأضحت حصناً منيعاً، ترابط به حامية قوية، وتتوافر به المؤن، وغدا من القدرة ما يحمله على المقاومة زمناً طويلاً.[2] في أيلول أخذت الامدادات تصل إلى الفرنج، (سفن إيطالية، والمانية وغيرها)، الأمر الذي أزعج صلاح الدين، فشرع في حشد قوات جيشه وقدم من قلعة الشقيف بقسم منها، بعد أن ترك فصائل قليلة لتستكمل إخضاع القلعة.

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٥.

وفي ١٥ أيلول هاجم معسكر الملك لكنه فشل، بينما استطاع ابن أخيه تقي الدين عمر، أن يخترق خطوط الفرنج وأن يصل إلى الباب الشمالي للمدينة. أقام صلاح الدين معسكره على مسافة صغيرة إلى الشرق، من معسكر لوزينيان. وفي ٤ تشرين الأول، قام الصليبيون بهجوم كبير على خطوط صلاح الدين، كانت معركة حامية الوطيس، إذ لجأ تقي الدين، الذي قاد الميمنة إلى استدراج الداوية المواجهين له، غير أن صلاح الدين نفسه خدعته هذه المناورة فأضعف قلب الجيش بغية إنجاد تقي الدين. فلاذ جنود الميمنة والقلب بالفرار، وتكبّدوا خسائر فادحة، ووصل الكثير من خيالته طبريا، حتى ان كونت بريين توغّل في سيره حتى خيمة صلاح الدين،[١] غير أن ميسرة الجيش الاسلامي ظلّت سليمة متماسكة، ولما اخترق الفرنج صفوف هذه الميسرة لمطاردة الفارين، حمل صلاح الدين عليهم وردّهم على معسكرهم. وفي نفس الوقت تعرّض معسكرهم لهجوم من قبل الحامية الإسلامية بعكا. ولقي عدد كبير من الفرنج بينهم كونت بريين، مصرعهم في ساحة المعركة. ووقع مقدّم الداوية بالأسر ثانية فقتله صلاح الدين. كان النصر للمسلمين، غير أنه لم يكن نصراً كاملاً. ومع الأيام وصلت إمدادات بالرجال والعتاد إلى صلاح الدين وأصبح جيشه من الضخامة ما يكفي لفرض الحصار على الفرنج، إذ لقى الحصار على الصليبيين الذين كانوا يحاصرون عكا من جهة البر. وفي ٣١ تشرين الأول السنة ١١٨٩، استطاعت خمسون سفينة إسلامية أن تشقّ طريقاً لها بين أسطول الفرنج وأن تجلب إلى عكا المؤن والذخائر. وفي ٢٦ كانون الأول نجح أسطول مصري في إعادة الاتصال بالميناء.[٢]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٨٤ - ١٨٥.
- رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٧.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٥٩.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٨٥.

ظلّ الجيشان الفرنجي والإسلامي، يواجه أحدهما الآخر طوال فصل الشتاء، دون أن يجسر أي منهما أن يشتبك في قتال خطير. وقعت بعض المناوشات والمبارزات.

في هذه الأثناء وصل إلى المعسكر الفرنجي الكثير من المؤن والمواد كان قد جلبها منه كونراد، فشيّد الفرنج أبراجاً خشبية للحصار. فحاولوا في ٥ أيار سنة ١١٩٠ أن يجرّبوها في مهاجمة المدينة. ولم تلبث المجاعة والمرض أن ظهرا في المعسكر الفرنجي وكذلك عند المسلمين. وانحاز إلى جيش صلاح الدين طوال فصل الربيع امداد إسلامية. وفي ١٩ أيار أخذ يوجّه هجومه إلى المعسكر ولم يرتد عنه إلاّ بعد قتال استمرّ ثمانية أيام. ودارت المعركة الشاملة في ٢٥ تموز، حين قام الجنود الفرنج، على كره من قادتهم، بهجوم جريء على معسكر تقي الدين على الميمنة، فحلّت بهم هزيمة ساحقة وقتل عدد كبير منهم.(١)

ظلّ القتال سجالاً طوال الصيف، وصار كلّ فريق ينتظر قدوم الامداد التي تكفل له القيام بالهجوم، على أن سقوط قلعة الشقيف أمّن لجيش صلاح الدين الرجال. أما بالنسبة للفرنج فكلّ محاولة قاموا بها لارتقاء أسوار عكا، باءت بالفشل بالرغم من السلالم والكباش التي تعمل لهدم الأسوار. وفي تشرين الأول ١١٩٠، قام الفرنج بإخراج صلاح الدين من تل كيسان الذي يقع على مسافة خمسة أميال من عكا، غير أنه استقرّ في تل الخروبة القريب جداً ويعتبر أكثر مناعة منه. وهيأ هذا الإجراء للفرنج ان يشقّوا طريقهم إلى حيفا، في حملة من أجل المؤن.(١)

في السنة ١١٩١، حلّت المجاعة بالمعسكر الفرنجي، بينما وصلت إلى صلاح الدين من الشمال إمدادات كبيرة، فازداد تضييق الحصار على المعسكر الفرنجي، ولم تعد المؤونة تصل بطريق البر، وقد مات جوعاً ومرضاً الكثير من قادة الفرنج. وحدث من حين إلى آخر أن جرت

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٦١.

محاولات لارتقاء أسوار عكا، ولاسيما يوم ٣١ كانون الأول ١١٩٠ حين تمّ انهيار جانب من سور المدينة من جهة البر. وهرب عدد كبير من العساكر الفرنج وانحازوا إلى المسلمين وبفضل ما بذلوه من مساعدة، وبفضل تفوّق نظام الجاسوسية عند صلاح الدين، استطاع أن يرسل قوّة اقتحمت الخطوط الفرنجية في ١٣ شباط ١١٩١، لتخفيف وطأة الحصار عن المدافعين عن المدينة الذين أرهقهم التعب. غير أن صلاح الدين تردّد في أن يوجّه هجوماً حاسماً على المعسكر المسيحي، إذ إن عدداً كبيراً من عسكره حلّ به الإرهاق والتعب، ولما وصلت الإمدادات، صرّف بعض قواته للتمتع بالراحة.(١)

في آذار، اشتدّ اليأس عند الفرنجة من الحصول على شيء من المؤن، على أنه حدث أن رست تجاه الساحل سفينة امتلأت قمحاً استطاعت أن تنزل إلى البر حمولتها، ولمّا تحسّن الطقس تلتها سفن أخرى ولقيت هذه السفن حفاوة كبيرة، لأنها لم تجلب معها مؤناً غذائية فقط، بل حملت أيضاً أنباء بأن ملكي انكلترا وفرنسا، ريشار قلب الأسد وفيليب اوغست هما في طريقهما إلى الشرق الفرنجي.(٢)

في ٢٥ حزيران ١١٩١، تلقّى صلاح الدين امداداً جديداً من الشمال فقدم إليه جيش سنجار، ثمّ تلاه وصول جيش آخر من مصر، وجنود أمير الموصل. وفي أوائل تموز وصلت قوات من حماه وشيزر بقيادة أميرها، على أن صلاح الدين لم يستطع طرد الفرنجة من معسكرهم، برغم ازدياد عديد وعتاد قواته. وكان الفرنج خلال فصل الشتاء قد حصّنوا مراكزهم وأحاطوا أنفسهم باستحكامات من الطين وأسوار تحميها الخنادق التي أصبح من السهل الدفاع عنها.(٣) وظلّ ترتيب المعركة طوال شهر حزيران وأوائل تموز على ما كان عليه، إذ

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٩٨.

واصلت «مقاليع» الفرنج قصف أسوار عكا بالحجارة، حتى انها أحدثت ثغرة صغيرة فاندفع الفرنج للعبور منها إلى الداخل، عندها أبلغ صلاح الدين بالواقع عن طريق الإشارات، علّه يبادر إلى شنّ هجوم على الفرنج وبذا يبتعد المعتدون عن الأسوار، ووقعت بعض المعارك البحرية من حين إلى آخر. لكن عندما وصل الأسطولان الفرنسي والانكليزي إلى السواحل، انتزعا السيطرة البحرية من أيدي المسلمين، فأخذت المؤن والأقوات والذخائر الحربية في النقصان داخل عكا وتردّدت الشائعات داخلها عن النية في الاستسلام.(١)

بعد فشل تقي الدين في محاولة شق طريقه إلى داخل عكا، استطاع الفرنسيون الجدد، في ٣ حزيران أن يحدثوا ثغرة كبيرة في الأسوار غير أنهم أجبروا على التراجع. وحدث بعد ٨ أيام أن اغتنم الانكليز ورجال بيزا الفرصة التي انصرف فيها سائر المحاربين الفرنج إلى تناول طعام العشاء، فجرّبوا أن يقتحموا الأسوار، فنجحوا أولاً غير أن محاولتهم باءت بالفشل الذريع.(١) وحدث وقتئذٍ أن حامية عكا اتخذت فعلاً قراراً بالتخلي عن القتال. فأنفذت رسلاً إلى الفرنج في ٤ حزيران ١١٩١ للتفاوض وعرض الشروط، غير أن ريشار قلب الأسد رفض ما عرضوه من مقترحات، وصادف أن ريشار أرسل مبعوثين في ذلك اليوم لزيارة صلاح الدين، وليطلبوا منه أن يسمح لهم بابتياع فاكهة وثلجاً، وليلوحوا بأن الفرنج مستعدّون لأن يتناقشوا في أمور الصلح. وعدَ صلاح الدين حاميته في عكا بأنه سيقوم بالهجوم الكبير في الخامس من تموز على المعسكر الفرنجي. وفي ٧ منه حمل إليه أحد العوامين آخر استغاثة من المدينة. في ١١ تموز وقعت آخر معركة بين الخصمين، وفي ١٢ منه عرض المدافعون الاستسلام. وتقرّر قبول شروطهم. إذ ينبغي أن تستسلم عكا بكلّ ما تشتمل عليه وبسفنها ومستودعاتها الحربية، وتقرّر إطلاق

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

سراح ألف وخمسماية أسير فرنجي مع مائة من ذوي الرتب، بعد ذكر أسمائهم وينبغي رد صليب الصلبوت للفرنج. فإذا تمّ كلّ ذلك، جرى الإبقاء على حياة المدافعين.

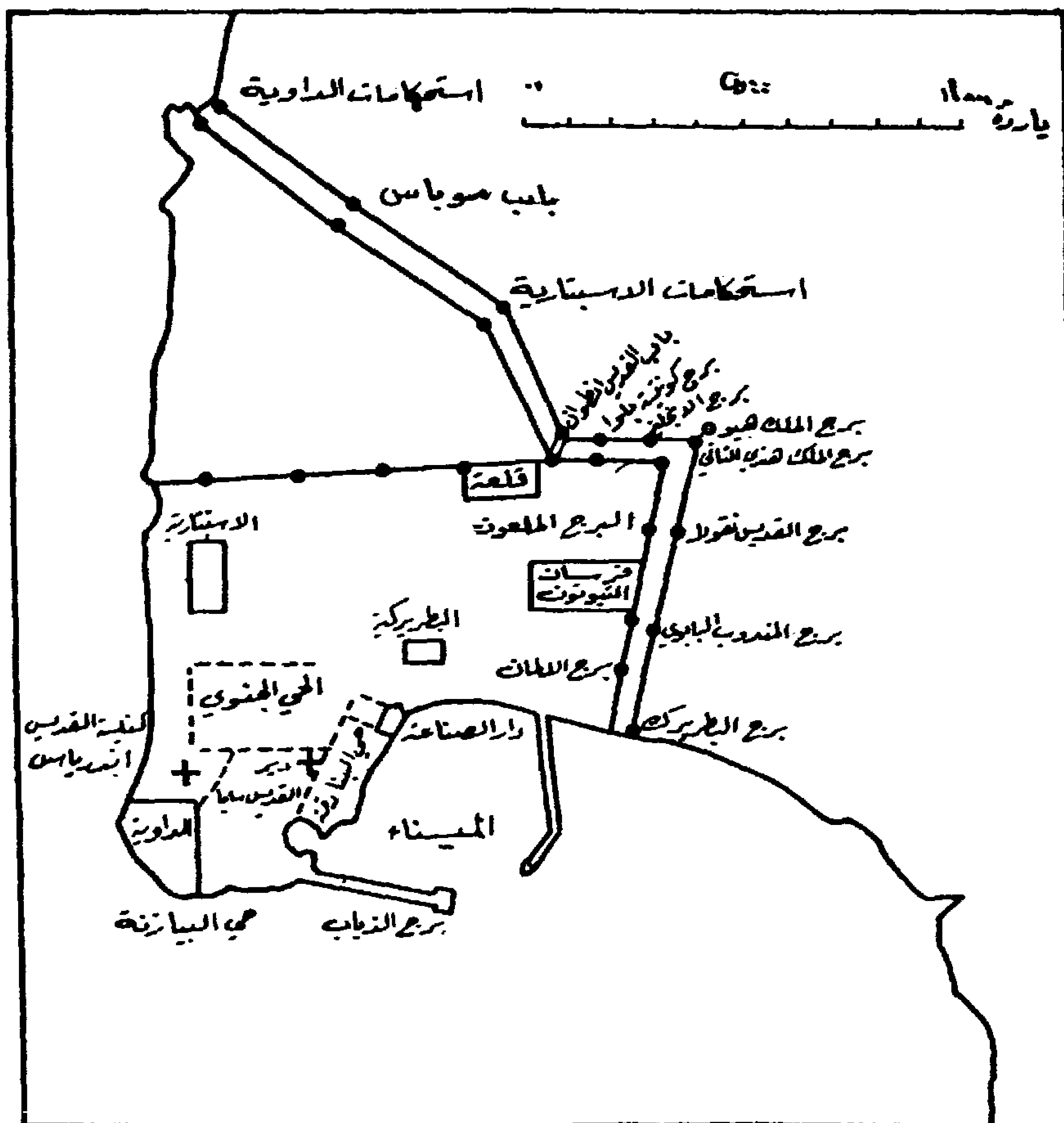
غادر أحد العوّامين ميناء عكا ليخطر صلاح الدين بما تمّ الاتفاق عليه، فجزع هذا الأخير من ذلك. وبينما كان يجلس أمام خيمته يعدّ إجابة لمنع الحامية من الخضوع لهذه الشروط، شهد ألوية الفرنج ترفرف على أبراج عكا. لقد فات الأوان، لكنه التزم الشروط لما اتصف به من الشرف والأخلاق. ثمّ أمر بنقل معسكره إلى شفرعم على الطريق نحو صفورية، بعيداً عن عكا.(١)

لم يكد يتم قبول شروط التسليم، حتى خرج المسلمون من عكا، وتحرّك الفرنج إلى داخلها وعلى رأسهم كونراد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين وافق على الالتزام بالمعاهدة التي سبق أن عقدها قادته في عكا. وبينما نهض الفرنج لإعادة بناء أسوار عكا وتدعيمها، شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والأموال المطلوبة منه. ثمّ في ٢ آب قدم لزيارته قادة إفرنج من قبل ريشار قلب الأسد، يحملون موافقة ملكهم على اقتراح صلاح الدين الذي يقضي بأن يؤدي المال المطلوب وأن يعيد الأسرى، في أقساط ثلاثة لمدّة ٣ أشهر شهر على أن يطلق ريشار سراح الأسرى المسلمين بعد دفع القسط الأول. وشاهد الزائرون صليب الصلبوت الذي احتفظ به صلاح الدين، فعظّموه ومجّدوه.(٢)

وفي ١١ آب ١١٩١، جرى إرسال القسط الأول من الرجال والأموال إلى المعسكر الفرنجي، وعاد رسل ريشار ليخطروه أن المبالغ تمّت تأديتها على الوجه الصحيح، ما عدا الأسرى المعينيين من جانبهم، ولهذا السبب لم يسلّموا أسرى صلاح الدين . فطلب إليهم صلاح الدين إما أن

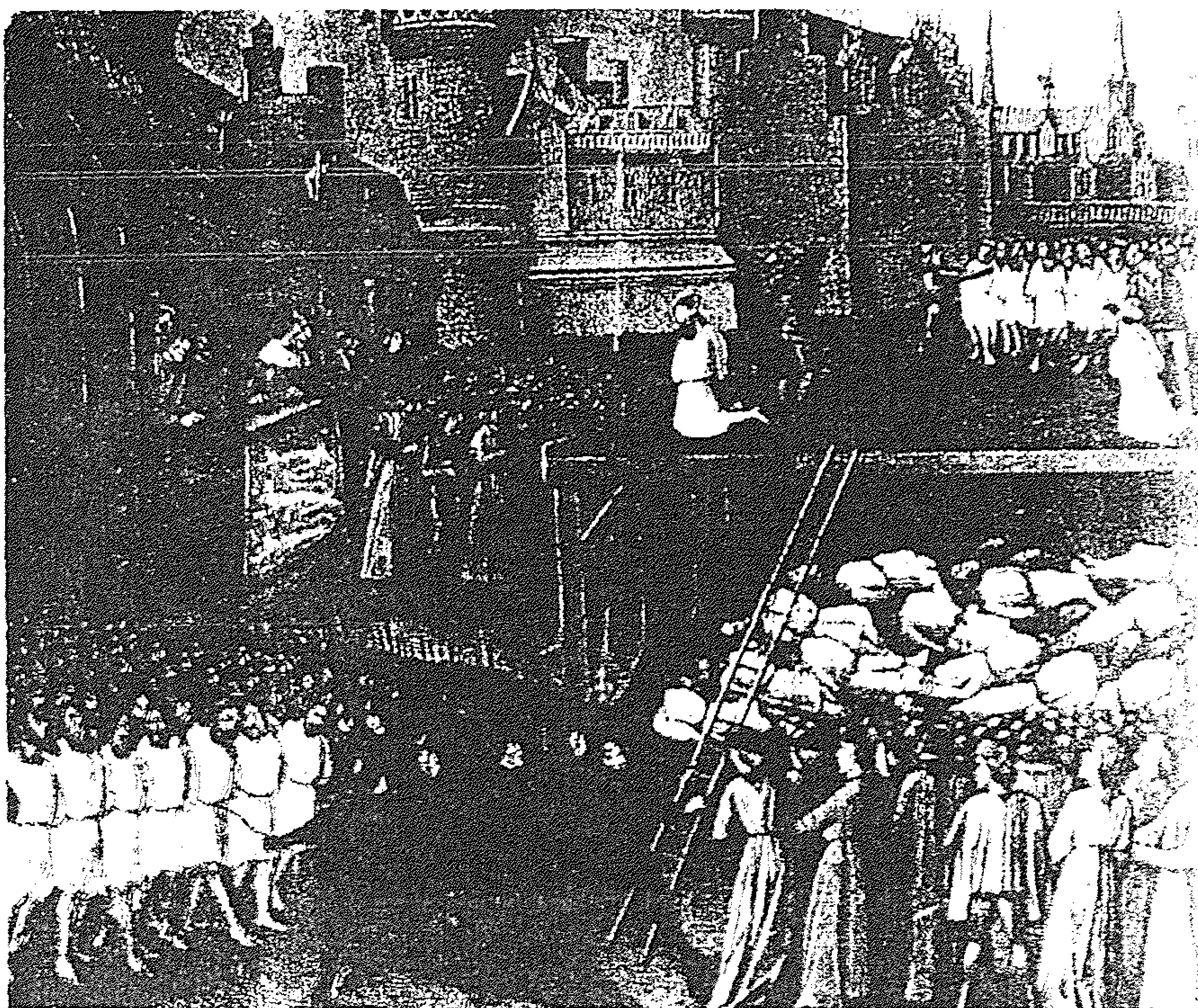
(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٠١.
- ابن الأثير، مماثل، ص ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣.
(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٠٥.
- ابن الأثير، مماثل، ص ٢٠٧.

عكا سنة ١٢٩١



استحكامات الداوية
باب موباس
استحكامات الاسبتارية
قلعة
الاسبتارية
البرج الملعون
برج القديس نقولا
فرسان التيوتون
البطريركية
برج المندوب البابوي
برج الالمان
الحي الجنوي
برج البطريرك
دار الصناعة
كنيسة القديس اندرياس
دير القديس سابا
الداوية
الميناء
حي البيازنة
برج الذباب
برج الملك هيو
برج الملك هنري الثاني

مشهد من تاريخ الحملة الصليبية الثالثة. قتل الرهائن المسلمين بالجملة في عكا سنة ١١٩١ بأمر من الملك الانجليزي ريشار قلب الأسد. منمنمة من دليل لأجل الحجاج (القرن الخامس عشر)



يقبلوا القسط مع رهائن عن السادة الذين لم يسلّموا بعد، فيرسلون إليه رجاله، واما أن يقبلوا القسط، ويجعلوا رهائن عنده حتى يضمن إطلاق سراح رجاله. ورفض الرسل كلا الاقتراحين، إنما طلبوا القسط ولم يعرضوا سوى بذل الوعد حول تسليم الأسرى المسلمين. وإذ لم يثق صلاح الدين في وعدهم، رفض أن يعطيهم شيئاً ما لم يطلق سراح عساكره.(١)

قرّر ريشار أن يغادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له، فانشرح صدره لما تهيّأ له من العذر للتخلّص منهم. فأعلن في برود شديد، يوم ٢٠ آب، أي بعد أسبوع من عودة الرسل إليه، أن صلاح الدين نقض عهده، وأمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا. واستبدّ حماس عسكر الفرنج فقضوا على زوجات وأطفال هؤلاء الأسرى أيضاً «ولم يُبقوا على حياة أحد، سوى بعض الأعيان، وبعض الرجال الأشداء جسدياً للإفادة منهم في أعمال السخرة. وقد شاهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم... لكنهم لم يتمكّنوا من الوصول إليهم بالرغم من أنهم ظلّوا يقاتلون حتى حلول الظلام».(٢)

ولما انتهت المذبحة، غادر الانكليز بقعة القتل، وأضحى بوسع المسلمين أن يتقدّموا للتعرّف على أصدقائهم وأقربائهم الذين استشهدوا.(٢)

أما صلاح الدين فما زال معسكراً في شفرعم، التي تتحكّم بطريقي طبريا دمشق والناصرة بيت المقدس. غير أن ريشار سار إلى الجنوب. وعندئذٍ اقتفى السلطان أثره بأن اتخذ طريقاً موازياً لطريق ريشار. ثمّ عسكر على تلّ القيمون على منحدرات جبل الكرمل. ومن هذا المكان انطلق صلاح الدين لاستطلاع المنطقة التي تقع جنوب الكرمل قرب البحر، كي يحدّد بنفسه أرض المعركة المقبلة.

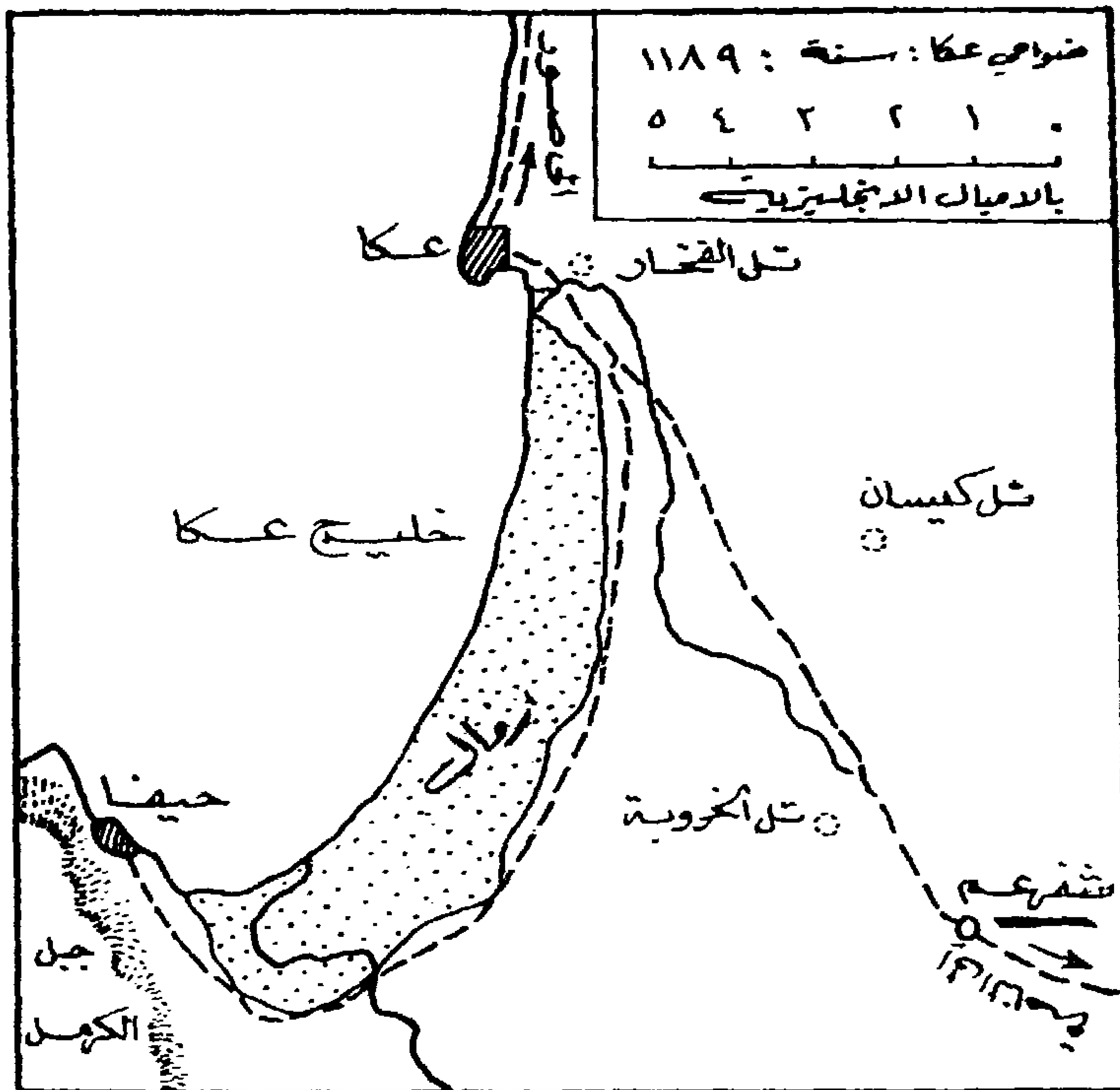
---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٠٦.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

عكا وضواحيها



عكا وضواحيها

اجتاز الفرنج حيفا التي سبق لصلاح الدين ان دمّر أسوارها ومراكزها الدفاعية، قبل سقوط عكا بأيدي الفرنج، والتزموا البطء في سيرهم حتى يظلّ الأسطول على اتصال بهم. وكان الفرسان المسلمون ينقضّون، من حين إلى آخر عليهم، فيقطعوا الطريق على الجنود الذين تاهوا عن جيشهم، فيأسروهم ويحملوهم إلى صلاح الدين فيأمر بقتلهم جميعاً انتقاماً لمذبحة عكا. وصل ريشار مع قواته إلى داخل قيسارية فعسكر هناك. وفي ٣٠ آب أصبح الالتحام بين الجيشين وشيك الوقوع.(١)

٣ – معركة ارسوف (١١٩١)

اختار صلاح الدين المكان الذي نشبت فيه المعركة، وكان يقع شمالي ارسوف، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لمناورة الخيالة. غير أن هذا المكان كانت تخفيه الغابات التي امتدّت حتى ميلين من البحر. في ٥ أيلول طلب ريشار إجراء مفاوضات، فالتقى بالعادل شقيق السلطان، وبلّغه أن على صلاح الدين التنازل عن فلسطين، فبادر العادل على الفور إلى قطع المفاوضات.

في صباح السبت ٧ أيلول، تبيّن للملك ان المسلمين يصرّون على أن تنشب المعركة، فرتّب تشكيلات قواته استعداداً للقتال.

بدأ المسلمون هجومهم في ضحى ذلك النهار وأخذ الفرسان الخفاف والبدو المشاة ينقضّون على الفرنج في مواجهات متلاحقة، يرمونهم بالسهام، فأنزلوا الخلل والاضطراب في صف المشاة الأول، غير أن عناصر الخيّالة الثقيلة لم تتأثّر. بعد ذلك انفرجت صفوف المسلمين وانطلق فجأة الفرسان الترك بهجومهم الصاعق على الاسبتارية والفلمنكيين، آملاً في ردّ الجناح الأيسر للفرنج، على أن الفرسان الفرنج صمدوا للهجوم، ونجح الرماة في

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

إعادة تنظيم صفوفهم بعد كلّ موجة من هجمات خيالة ومشاة المسلمين. طلب القادة الفرنج من ريشار أن يطلق الهجوم العام، لكنه أوصى بالصبر، غير ان بعض القادة أخذوا المبادرة وانطلقوا باتجاه المسلمين فلحق بهم الفرسان ووقع شيء من الاضطراب في أول الأمر، لأن الرماة لم يكونوا مستعدّين، وقد اعترضوا الطريق، ثمّ ركب الملك ريشار ودخل المعركة بغية أن يعيد شيئاً من النظام إلى جيشه، وأن يتولّى القيادة بنفسه. فتداعت صفوف المسلمين ولاذوا بالفرار. على أن صلاح الدين جمع شملهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره، وللقيام بهجوم معاكس، لكن المحاولة باءت بالفشل. ولم يأت المساء حتى سيطر الجيش الفرنجي على ساحة القتال، واستأنف سيره نحو الجنوب[1] بعدما قتلوا مملوك اسمه اياز الطويل، «وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة والإقدام، ولم يكن في زمانه مثله».[1]

كانت معركة ارسوف انتصاراً معنوياً كبيراً للفرنج، إذ إن خسائرهم كانت من القلة ما يدعو إلى إثارة الدهشة، ولم تكن خسائر المسلمين فادحة أيضاً. لقد كانت أول معركة مكشوفة مع المسلمين بعد حطين[2] ودلّت على أن صلاح الدين يصح أن يتعرّض للهزيمة. وبالمقابل بلغت شهرة ريشار الذروة. أما صلاح الدين فإنه تعرّض لمهانة شخصية ومذلّة عند الناس. وكلّما تقدّم صلاح الدين في العمر، فقد شيئاً من نشاطه وسيطرته على الرجال، شأنه في ذلك شأن نور الدين زنكي. كما أن صحّته قد ساءت، إذ كانت نوبات حمّى الملاريا تعاوده من حين إلى آخر. فلم يعد له القدرة ان يفرض قراراته على الأمراء المتنازعين الذين يعتبرون أتباعاً له، وما زال عدد كبير منهم يعتبرونه حديث النعمة

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١١٠ - ١١١.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ١١٢.

مغتصباً، حتى إذا بدا لهم أن نجمه أخذ يهوي، بادروا إلى التمرّد والعصيان.[1]

قاد صلاح الدين جيشه، بعدما أعاد تنظيمه وترتيبه، إلى الرملة على الطريق إلى القدس، وقد ترقّب حركة جديدة من ملك الفرنج.[2] وقد أشار عليه أمراؤه بتخريب عسقلان... «لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا»، فلما رأى صلاح الدين ذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها، وألقيت حجارتها في البحر، «وهلك فيها من الأموال والذخائر... ما لا يمكن حصره».[3] ولما علم الفرنج بتخريبها، أقاموا حيث هم ولم يسيروا إليها. لقد كان صلاح الدين يخاف أن يتحرّك الفرنج إلى عسقلان ويقيموا فيها قاعدة لجيشهم، تقطع طريق المواصلات والاتصالات بينه وبين مصر، التي كانت تعتبر المصدر الرئيسي لقوّته الضاربة. عسكر المسلمون على مسافة من عسقلان ولم تقع إلاّ بضعة إشتباكات بين الفرسان في سهل اللّد، على أطراف المعسكر. والتمس عدد كبير من جنود الفرنج طريقهم عائدين إلى عكا، مما اضطرّ ريشار إلى التوجّه إلى هناك ليجمعهم ويرجعهم إلى المعسكر.

ما كاد ريشار يعود إلى يافا حتى أرسل إلى اللد التي اتخذها العادل مقراً لقيادته، همفري سيّد تبنين، للتشاور على عقد هدنة جديدة بين الخصمين، غير أنه لم يتقرّر شيء. ويعتبر العادل دبلوماسياً لبقاً ماهراً، وقد كبح جماح تطلّع صلاح الدين إلى عقد تسوية.[4]

في تشرين الأول ١١٩١، أرسل كونراد، رسلاً من صور، يفاوضون صلاح الدين على عقد هدنة وكذلك أرسل ريشار، سيّد تبنين للغرض نفسه. عقد السلطان مجلساً ليقرّر الجانب الفرنجي الذي يمضي معه في المحادثات. وقد قرّ الرأي على الملك

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) ابن الأثير، مماثل، ص ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير، مماثل، ص ٢٠٩.

(٤) انسيمان، مرجع سابق، ص ١١٥.

ريشار، لا حباً له، بل لأنه سوف يغادر فلسطين على حين أن كونراد الذي كان الجميع يهابه ويتخوّف منه، كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين. والواقع ان العادل حرَص على أن يطول أمد المفاوضات حتى حلول الشتاء.(١)

٤ – معركة يافا – المعاهدة – (١١٩٢)

في صباح ٢٧ تموز ١١٩٢، خرج صلاح الدين بجيشه من القدس ووصل إلى يافا في المساء، وشرع على الفور في مهاجمة المدينة. واستطاع النقابون أن يحدثوا ثغرة في الأسوار، بعد أن تعرّضت للقصف بالحجارة لمدّة ٣ أيام، فتدفّق المسلمون إلى داخل المدينة.(٢) واستبسل المدافعون عنها في القتال، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً، واضطرّ رجال الحامية إلى الاستسلام بعد الاتفاق على الإبقاء على حياتهم، لكن الفوضى دبّت أطنابها في عساكر صلاح الدين، فاندفع الأكراد والترك يجوبون الشوارع ينهبون ويقتلون من يصادفونهم من سكان المدينة الذين حاولوا الدفاع عن دورهم وحياتهم. فنصح صلاح الدين رجال الحامية أن يلزموا القلعة ريثما يعيد الأمن إلى نصابه.(٣)

نهض ريشار لنجدة يافا يسانده بحراً عسكرا بيزا وجنوى، بينما أرسل جيشه براً على طول الساحل، وقد تمهّل في سيره على الطريق إلى قيسارية. وإذ نجح صلاح الدين في ٣١ تموز ١١٩٢، في أن يعيد الهدوء إلى عسكره ما يكفي لأن ينجلي من القلعة عن طريق يافا، ٤٩ فاراً مع رجال الحامية، بزوجاتهم وأطفالهم وأمتعتهم. وكان في هذه الأثناء، أسطول ريشار (٥٠

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١١٧.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢١٨.
(٢) انسيمان، مماثل، ص ١٣٤.
(٣) انسيمان، مماثل، ص ١٣٤.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢١٧.

سفينة) يبحر على مرأى من المسلمين. فبادر رجال الحامية الفرنج، على الفور، إلى استئناف المعركة، واستماتوا في الهجوم على المسلمين الذين دبّت الفوضى في صفوفهم، فكادوا يخرجونهم من المدينة. عند ذلك علم ريشار أن القلعة لم تسقط، فرسا بسفنه إلى الشاطىء القريب جداً من القلعة، لكنه تأخّر في الوصول إلى البر. ولما استبدّ اليأس برجال الحامية، اتصلوا بصلاح الدين للتفاوض معه، وكان رسلهم فعلاً يتحدّثون إلى السلطان في خيمته، حينما بدأ ريشار هجومه.[1] وإذ تفرّق عدد كبير من المسلمين في شوارع يافا أخذوا على حين غرّة. لقد كان هجوم ريشار عنيفاً وشديداً، مما حمل المسلمين على الفرار إلى يازور التي تقع على مسافة خمسة أميال في الداخل. ولم تنتظم صفوفهم رغم محاولات صلاح الدين المتكرّرة. واستعاد ريشار، يافا، بقوّة لم تتجاوز ثمانين فارساً وأربعماية من الرماة ونحو ألفين من البحارة الايطاليين.[1]

وفي صبيحة اليوم التالي، أرسل صلاح الدين حاجبه أبو بكر العادلي ليستأنف محادثات الصلح مع ريشار. كان انتصاراً رائعاً، أحرزه الملك ريشار بفضل ما أعدّه من خطط حربية، فضلاً عن بسالته الشخصية غير أنه لم يتبعه أي انتصار آخر. ففي خلال يومين عاد صلاح الدين إلى الرملة، بجيش جديد، حشده من الجموع التي قدمت من مصر وشمال الشام. أما الملك فقد لزم خيمته متعباً وقد اشتدّ المرض نتيجة لإصابته بالحمى. وتطلّع ريشار للصلح، فأعاد صلاح الدين ما سبق أن تقدّم به من عرض وأصرّ على تسلّم عسقلان. وكان من العسير على الملك الانكليزي أن يتحمّل ذلك. فكتب إلى العادل أن يتوسّط لدى صلاح الدين الذي بقي مصراً على رأيه، وأرسل إلى الملك المريض الخوخ والفاكهة المختلفة فضلاً عن الثلج من جبل حرمون لتبريد مشروباته. غير أن ريشار لم يقبل التنازل عن عسقلان. وفي يوم الجمعة ٢٨ آب سنة ١١٩٢، حمل

---

(١) رنسيمان، مماثل، ص ١٣٥.
- ابن الأثير، مماثل، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

إليه رسول العادل العرض النهائي من قبل صلاح الدين. وبعد خمسة أيام وقّع ريشار معاهدة الصلح لمدّة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وأثبت رسل صلاح الدين أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة. ثمّ أمسك رسل صلاح الدين بيد الملك وأقسموا بالنيابة عن السلطان، إنما ريشار رفض القسم بكونه ملكاً وأقسم عنه بالنيابة هنري كونت شامبانيا، وباليان ابلين، ومقدّما الاسبتارية والداوية، وفي اليوم التالي مهر صلاح الدين المعاهدة بتوقيعه بحضور رسل ريشار وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة.[1] أما السلطان فقد سار إلى القدس وأمر بإحكام «سوره، عمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين... وعزم على الحج والإحرام منه فلم يمكنه ذلك، فسار عنه نحو دمشق واستناب عنه بالقدس الأمير جورديك».[2]

ثمّ مرّ على الثغور الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت، بعدها رحل إلى دمشق وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، «وفرح الناس به فرحاً عظيماً لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الشام».[3]

جعلت المعاهدة للفرنج، المدن الساحلية حتى يافا جنوباً. وأضحى للحجاج المسيحيين الحرية في زيارة الأماكن المقدّسة. وللمسلمين والمسيحيين الحق في أن يجتاز كلّ فريق منهم بلاد الفريق الآخر. أما عسقلان فكان لا بدّ من تدميرها. لقد اشتملت المعاهدة على النصوص التالية:[4]

١ - الصلح لثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢ - تكون المنطقة من صور إلى يافا مملكة فرنجية ساحلية.

٣ - يضمن صلاح الدين حرية الحج ويؤمّن سلامتهم، بدون دفع ضرائب.

---

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٣٩ - ١٤٠.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير، مماثل.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٤) مكي، مرجع سابق، ص ١٨٣.

٤ - تكون اللّد والرملة مناصفة بين الفرنج والـمسـلـمـيـن، وتـكـون عسـقـلان للمسلمين.

٥ - حرية التنقّل والإقامة بين المناطق الفرنجية والمناطق الإسلامية.

وإليك قارئي الكريم هذه الرسالة التي تخيّلها أحد الكتاب العرب والتي إن دلّت على شيء، فهي تدلّ على الصفات التي كان يتمتع بها صلاح الدين الأيوبي وعلى رأي ريشار ملك الانكليز بالسلطان الكردي:

رسالة من ريشار قلب الأسد إلى صلاح الدين الأيوبي. كما يتخيّلها مؤلّف «على خطى العرب والإسلام»

قبرص، تشرين الأول ١١٩٢

صاحب السمو، العزيز يوسف،

لا أدري إن كان الحمام الزّاجل سيؤمّن لك هذه الرسالة. ومع ذلك فأنا لا أستطيع العدول عن قراري بالكتابة لك. ربما لأراجع نفسي وما وصلت إليه في نهاية حياتي المضطربة، المحفوفة بالمخاطر، المكلّلة بالنصر حيناً، المأسوية في كثير من الأحيان، المتأثّرة بلقائك كما لم تتأثّر يوماً بأي لقاء.

عندما تهيّأت للكتابة لك، حضرني سؤال مفكّر عاقل من أبناء ديننا، سؤال بسيط في صيغته، لكنه مثير للقلق: «ما العمل لتكن مشيئة الله؟» عندما أتذكّر أحداث مواجهتنا الرهيبة على أرض تعتبرها أنت ومن حولك مقدّسة مثلما أعتبرها أنا وشعبي وحلفائي مقدّسة؛ عندما أفكّر بإصرارنا، إصرار كلّ منا، على الاندفاع إلى خضمّ الموت لتحقيق ما نعتقد أنه نصر لله، فإنّ الشك يساورني، لا لأن إيماني بسيّدنا يسوع المسيح يتذبذب. ولكن معرفتي بك ودراستي لسلوكك وخططك منذ معركة عكا، شوّشت رؤية العالم التي ذهبت بها لأخوض الحرب في سبيل الصليب المقدّس.

عندما توجّهت للقائك في الحملة الصليبية الثالثة، كنت فاراً من إحباطات وخيانات وهزائم عظيمة كابدتها على أرض أوروبا. سمعت نداء المسيح يبعدني عن أوهام السلطة الدنيوية ليقودني نحو ساحات المعركة. وانتشيت من انتصاراتي ضد جيوشك في عكا ويافا، حتى أنني أصبحت ذاك المحارب الذي لا يعرف

مهادنة أو مساومة، المنذور كلياً للحرب، الشهير بقلب الأسد. لكن بينما كنت أعدّ المناورات والحيل الحربية وأحضّر هذه الحملة أو تلك لأنزع منك هذه المدينة أو هذه الطريق، كان الملوك والأمراء الآخرون الآتون معي لإنقاذ القبر المقدّس يتآمرون: هذا ليصبح مليكاً على مدينة حرّرتها بيدي، وذلك ليعود إلى أوروبا ويخلّصني مملكتي.

عندئذ، بدأت أفكّر بهذه الحرب بشكل مغاير. الحق أني لم أكن متأثّراً حتى ذلك الحين بانشغال بعض الفرسان ومسؤولي الكنيسة بجمع الغنائم والثروات التي جلبتها انتصاراتي. لكن أن يترك لي بعض الملوك، لي وحدي، مسؤولية المهمة الإلهية، لأطعن في ظهري، وليعززوا هم سلطتهم ويحصلون على حسابي على مساحات جديدة هذا ما نبّهني لتوهّمي بشأن إيمان المقرّبين مني والعدو الذي هو أنت. عدو علّموني دوماً احتقاره ومقاتلته وكأنه الوحش المطلق الملعون أبداً من الله (...) حملت معي وأنا عائد إلى بلادي الاحترام الكبير الذي أكنّه لك أبداً لبسالتك ونخوتك وتلك الفضيلة التي تنقصنا بشدّة ألا وهي رؤية مثيل لنا في الآخر الذي لا يشاركنا ديننا، مثيل قد يصبح يوماً قريباً.

السلام عليك!

ريشار(١)

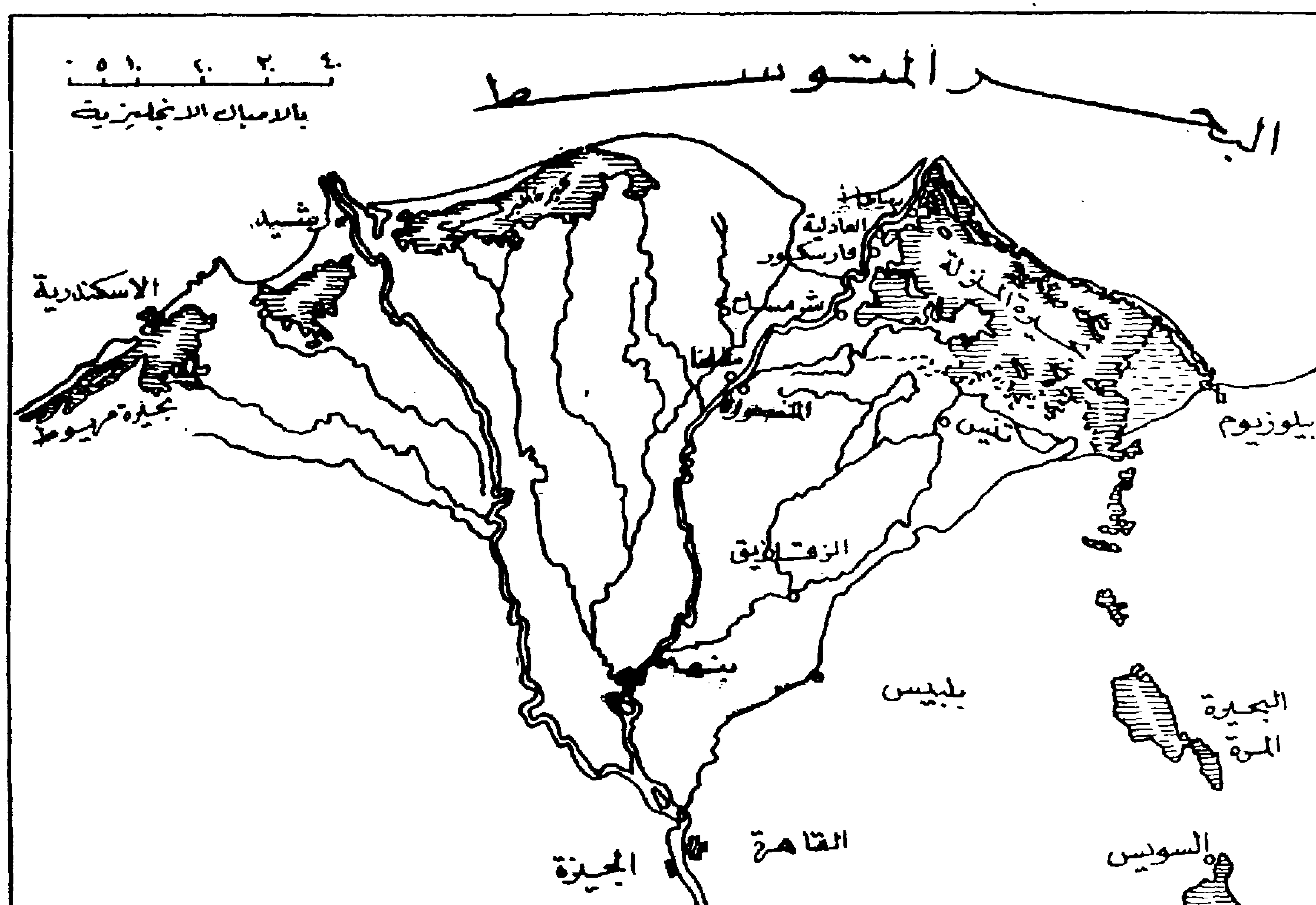
٥ – وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي وتوزّع سلطنته (١١٩٣)

بعد انتهاء الحملة الصليبية الثالثة، لم يعمّر صلاح الدين طويلاً، إذ توفي في ٣ آذار السنة ١١٩٣ وله من العمر ٥٨ سنة.(٢) فقد كان أرهق نفسه بالحروب منذ معركة حطين السنة ١١٨٧، كما تعرّض للأمراض بسبب إقامته في الخيام، وفي مناطق موبوءة. فانه أضحى منهوك القوى، مريضاً،

(١) جريدة البلد – بيروت – لبنان – التاريخ ٢٠٠٥/١٢/٦.

(٢) المؤرّخ رنسيمان، يقول ان عمره كان لا يتجاوز الرابعة والخمسين سنة، ص ١٤٦.
– مكي، مرجع سابق، ص ١٨٥.

دلتا النيل زمن الحملة الصليبية الخامسة وحملة لويس التاسع



مكث في القدس حتى سمع بإقلاع ريشار من عكا إلى أوروبا. فانصرف آنذاك إلى تنظيم الإدارة المدنية لإقليم فلسطين. وكان يأمل في أن تتهيأ له الفرصة لزيارة مصر، ولتحقيق طموحه الديني بأن يسعى إلى مكة للحج. غير أن الواجب اقتضى قدومه إلى دمشق، التي بلغها في ٤ تشرين الثاني ١١٩٣ بعد أن ظلّ أسابيع يطوف بالبلاد التي استولى عليها، وبعد أن التقى ببوهمند في بيروت، فأبرم معه صلحاً نهائياً. وكان ينتظره بدمشق عمل متراكم، ظلّ يتكدّس أثناء السنوات الأربع التي أمضاها مع الجيش. وراح يستمع إلى مناظرات علماء الفلسفة ويخرج بين الفينة والفينة إلى الصيد. وأثناء الشتاء أخذت صحّته في الانهيار. فكان يشكو من الإرهاق وفقدان الذاكرة، فانعزل في منزله وأضحى من النادر أن يستقبل الزائرين. وفي ١٩ شباط أخذ يشكو من الحمى والألم والأوجاع.

وفي الأول من آذار، غاب عن وعيه، فأسرع ابنه الأفضل يطلب ولاء الأمراء، ولم يبق جالساً عند فراشه إلاّ قاضي دمشق وجماعة من الخدّام المخلصين. وفي يوم الأربعاء ٣ آذار، وبينما كان القاضي المذكور يتلو القرآن الكريم، حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: «ولا إله إلاّ هو، عليه توكّلت». فتح صلاح الدين عينيه وتبسّم وتهلّل وجهه ومضى إلى ربّه.(١)

كان لصلاح الدين ١٧ ولداً وإبنة واحدة صغيرة عدا إخوته، فتوزّعت السلطنة على أولاده واخوته. وبذلك تفكّكت السلطنة وعادت مصر منفصلة عن سوريا. كما أن المدن الشامية أصبحت ممالك أيوبية صغيرة. كمملكة دمشق ومملكة بعلبك ومملكة حمص ومملكة حماه ومملكة حلب... وسادت الاختلافات بين هذه الممالك منذ وفاة السلطان وحتى سنة ١٢٠٠ حين تمكّن الملك العادل سيف

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
- مكي، مرجع سابق، ص ١٨٦.

الدين من توحيد مصر وسوريا مجدداً للوقوف في وجه الأخطار الفرنجية.

وقد استغلّ الفرنج تفسّخ الأيوبيين فتوسّعوا في بعض المناطق واستعادوا مدينة بيروت. ولم تدم الاتفاقية سوى ٥ سنوات فقط، أي حتى سنة ١١٩٧، وبعدها دخلت بلاد الشام في دوامة من الفوضى والحروب بين الفرنج والمسلمين وبين الفرنج فيما بينهم، وبين المسلمين فيما بينهم.(١)

٦ - الفرنج يستعيدون ما فقدوه بعد حطين

كانت خصومات خلفاء صلاح الدين، في سبيل الوصول إلى قمّة السلطة، أفقدت هذه السلطة قيمتها ومدّت في أجل الفرنجة. ففي وسط هذه الفوضى الأيوبية، يبرز أخوه الأصغر الملك العادل سيف الدين كوريث جدير بالحكم. فإنه استولى على مصر وعلى أكثر المناطق السورية وهو الذي عرض عليه ريشار قلب الأسد، ملك الانكليز، أن يزوّجه أخته وأن يهبها عكا والقدس. بعد العادل نشأت دويلات أيوبية متعدّدة في مصر وبلاد الشام والعراق وحماه وحمص واليمن. وكان طبيعياً أن تقع الحروب بين هذه الدويلات، الأمر الذي نتج عنه أن استعاد الفرنج مقاطعة بعد أخرى، فقد استعادوا بيروت سنة ١١٩٧ وجبيل ١١٩٨ وتبنين وبيت المقدس ١٢٢٩ ويافا والناصرة ١٢٠٤ وصيدا وصفد ١٢٤٠ وطبريه ١٢٤٤.(٢) أما قلعة الشقيف وصيدا وصفد فقد وهبها الملك الصالح إسماعيل، سلطان دمشق للفرنجة على أن يحموه من شر نسيبه الملك الصالح أيوب سلطان مصر الذي عزله واستولى على الشام.

---

(١) مكي، مرجع سابق، ص ١٨٦.

- رنسيمان، مرجع سابق، ص ١٥٠ - ١٥١.

- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) مكي، مرجع سابق، ص ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١.

٧ - أوضاع الأيوبيين والفرنجة حتى السنة ١٢٥٨

لقد فقد الأيوبيون الوحدة السياسية والتماسك ضد عدوّهم المشترك وفقدوا روح الجهاد الذي ألهب مؤسّس الدولة الأيوبية، صلاح الدين يوسف بن أيوب.

كان الشيء الملفت للنظر آنذاك، أن الأيوبيين كانوا يدمّرون المدن والقرى والقلاع في بلاد الشام، التي لا يتمكّنون من المحافظة عليها، فكانت المدن تعمّر حين تكون بيد الفرنج وتدمّر حين تكون بيد الأيوبيين. فقد دمّروا بيروت وصيدا وقلعة تبنين عدا عن قرى صور وغيرها. لذلك أصبح الساحل اللبناني من صور إلى طرابلس في صراع دائم أدّى إلى تدنّي الاقتصاد، فالأكثرية من الأهالي لم تعد تشعر بالحماية الأيوبية. وكثيراً ما كان الأيوبيون يسلّمون المدن والقلاع إلى أعدائهم الفرنج دون قتال، بينما جمعوا قواهم لمحاربة بعضهم البعض. وقد وصل الأمر بالصالح إسماعيل أنه حاصر قلعة الشقيف في جنوبي لبنان لأن حاميتها الأيوبية رفضت تسليمها للفرنج، فاحتلّها وسلّمها لهؤلاء وعاقب أفراد الحامية وقائدها.

لقد كانت أوضاع أهالي بلاد الشام في الجانب الفرنجي سيّئة فقد عمّت الفوضى الاجتماعية في قراهم ومدنهم واستفحلت خاصة بعد عودة الملك الفرنسي لويس التاسع من الشرق إلى بلاده، فقد نشبت الحروب الأهلية بين الأمراء الفرنجة بسبب المطامع بين الجاليات التجارية الإيطالية التي تحوّلت إلى دويلات مستقلّة وتتبع المدن الأم التي انبثقت عنها مثل بيزا وجنوى والبندقية. ووصلت هذه المنازعات إلى ذروتها في العام ١٢٥٨. كما ان فرنج جبيل هاجموا فرنج طرابلس في الفترة ذاتها.(١)

(١) مكي، مرجع سابق، ص ٩٧ - ١٩٨.

الفصل التاسع

بروز الدولة المملوكية وسقوط دولة الفرنج في الشرق (١٢٥٠-١٢٩١)

١ - توطئة

قسّم صلاح الدين الأيوبي دولته قبل وفاته بين وارثيه: أولاده وأخيه. فكان لقب «السلطنة» ودمشق وجنوبي سوريا للملك «الأفضل». وكانت مصر للملك «العزيز» وكانت حلب وشمالي سوريا للملك «الظاهر». أما الملك العادل، أخو صلاح الدين، فقد ورث أراضي الجزيرة الفراتية. على أن قسمة كهذه لا يمكن أن يدوم فيها الاستقرار، فما لبث الخلاف أن دبّ قرنه بين أولاده، مما جعل عمّهم الملك العادل يستغلّ خلافهم ويستولي على ممتلكاتهم. بعدها قسّم أراضي دولته بين أبنائه، وهو على قيد الحياة، فعهد بمصر إلى «الكامل» وبدمشق إلى «المعظم» والجزيرة الفراتية إلى أبنائه: «الأوحد» «فالفائز» «فالأشرف» على التوالي فكانوا ينوبون عنه في حكمها. وبعد وفاته راحوا يحاربون بعضهم بعضاً، وقد أفاد الفرنج من هذا الخلاف. وفي ظلام هذا الخلاف لمع «الصالح أيوب» حفيد «العادل»، الذي أعاد توحيد دولة صلاح الدين تحت سلطانه.

٢ - الدولة المملوكية[١]

تميّز منتصف القرن الثالث عشر (١٢٥٠) بحادثين اثنين على غاية من الخطورة: قيام دولة المماليك الذين خلفوا

(١) Maalouf. op. cit., p 272.

- ضومط، انطوان، د.، المماليك العثمانيون وعهد السلطان سليم الأول، لبنان، مكتبة حبيب، ط ١٠، ١٩٩٥.

صلاح الدين واستولوا على المملكة التي أنشأها، وغزوة المغول التي عرّضت المنطقة بأجمعها إلى فترة خراب وفوضى.

بعد وفاة صلاح الدين تشرذمت دولته، كما ذكرنا، إلى ممالك يحكمها أفراد من بيت الأيوبي الذين تصارعوا فيما بينهم على رئاسة الدولة، وبما أن أحداً منهم ما كان يملك القوة العسكرية لتحقيق غرضه، راح أولئك الملوك يشدّون أزرهم بجيش من المماليك. فكان كلّ واحد منهم يشتري أعداداً من الأرقاء البيض ويعمل على تربيتهم كي يكون ولاؤهم له وحده. وبين ١٢٣٩ و١٢٤٩ اشترى السلطان نجم الدين أيوب سلطان مصر، أعداداً كبيرة جداً من الأرقاء وسهر على تربيتهم تربية إسلامية محضة كما درّبهم على فنون الفروسية والقتال وأغدق عليهم الأموال والهدايا، فكان من الطبيعي جداً أن يكونوا قوّاد الجيوش، وعرفوا، هؤلاء، بالمماليك البحرية نسبة إلى المكان الذي تربّوا فيه في جزيرة الروضة المصرية المطلّة على نهر النيل أو كما يسمّونه المصريون ببحر النيل. كان هؤلاء المماليك ينتمون إلى الأتراك أو المغول أو الشركس وكانوا يُبتاعون في سوق النخاسة في البلاد الروسية أو القوقازية. تزوّج السلطان نجم الدين جارية تركية تسمّى «شجر الدر»، كان قد أهداها له «المستعصم» آخر الخلفاء العباسيين وكانت جميلة للغاية، واسعة الحيلة شديدة الدهاء، وقد تعلّق بها السلطان وميّزها عن كلّ الجواري والنساء في قصره وأنجبت له ولده خليل فصارت تعرف باسم «أم خليل» وقد شاركت زوجها بالجوانب السياسية العامة فكسبت خبرة إدارية أهّلتها لاحقاً لتأسيس دولة المماليك. توفي السلطان نجم الدين أيوب وجيشه في ساحة الوغى مع الصليبيين، فكتمت شجر الدر خبر وفاته كي لا تدبّ الفوضى في عناصره (١١٤٩). وهكذا استمرّ الجيش في المعركة حتى انتصر وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع (القديس لويس).[1] أرسلت شجر الدر تستدعي «توران شاه» ابن زوجها

(١) Maalouf, op. cit., p. 237.

ليعتلي العرش الشاغر. عاد توران شاه بأقصى سرعة من حصن كيفا في ديار بكر (جنوبي تركيا) إلى القاهرة واستلم الحكم، لكنه كان أحمقاً، سريع الغضب قاسي اللهجة عديم اللياقة ويستطيب إذلال الناس وكان لسانه يسبق تفكيره، فكثر أعداؤه خاصة بعدما تعرّض بالسوء للمماليك الذين ربّاهم والده والذين تفانوا في خدمته، إذ شرع يعزل بعضاً منهم ويستعيض عنهم بآخرين صغار السن من حديثي الخدمة في الجيش وهذا يتناقض مع التراتبية العسكرية ويخلق الحقد والحسد بين عناصره. لم يراع توران شاه حرمة شجر الدر التي سلّمته العرش، بل عمل على إذلالها وتخوينها فطالب بما تملك من جواهر وأموال وهدّدها مراراً، فخافت على نفسها من غدره فاتفقت مع المماليك على قتله مهما كلّف الأمر، وقد نفّذت ما خططت له، إذ في السنة ١٢٥٠ وأثناء اجتماعه بالمماليك، استلّ أحدهم سيفه وضربه فتلقّاه بيده مما أدّى إلى قطع بعض أصابعه فهاله الأمر وفرّ مسرعاً إلى داخل برج خشبي كان صنع خصيصاً لمراقبة تحرّك الأعداء قرب شاطىء البحر المتوسّط.(١) بعدها اجتمع المماليك على جناح السرعة بآلتهم العسكرية الكاملة ودخلوا البرج الخشبي وأوقدوا النار حول البرج فخاف ودبّ الذعر فيه فأخذ يصيح بأنه تخلّى عن العرش ويريد العودة إلى حصن كيفا، لكن أفراد المماليك قطّعوه تقطيعاً بسيوفهم ورموه على الشاطىء لمدّة ٣ أيام دون ان يجرؤ أحد على غسله وتكفينه ودفنه إلى أن شفع به رسول الخليفة العباسي المستعصم، فدفنه بعد أن تليت على جثمانه الصلوات.

٢١ - شجر الدر تعتلي العرش الأيوبي:(١)

بعد موت السلطان توران شاه، شغر العرش الأيوبي في مصر وأضحى المماليك بلا قيادة رئيسية وافتقروا إلى الأموال

---

(١) Maalouf, op. cit., p. 237.

(٢) Maalouf, idem, p. 271.

- ضوميط، مرجع سابق، ص ٢٤.

لمواجهة الملوك الأيوبيين في بلاد الشام الأمر الذي أجبرهم على مفاوضة الملك الفرنسي لويس التاسع والموجود بعهدتهم، على دفع فدية مقدارها مليون دينار وهو مبلغ ضخم، لإطلاق سراحه وقد دفعه فأطلقوا سراحه وضمنوا وصوله سالماً إلى عكا المركز الرئيسي للصليبيين في المشرق. ولم يطل الوقت حتى قرَّ رأي المماليك على إسناد العرش الأيوبي إلى شجر الدر لأكثر من سبب: فهي مملوكية وأعتقت وأيوبية كونها أرملة أحد السلاطين الأيوبيين عدا عن أنها حسنة السيرة تتمتع بعقل راجح وجودة تدبير.

التفّ حولها المماليك البحريين وجعلوا «عز الدين أيبك التركماني» أحد كبار أمرائهم اتابكاً لها، أي قائداً للجيش ومساعداً في تسيير أمور الحكم. ودعا لها الخطباء على المنابر في مصر بعد الدعاء للخليفة العباسي، وكانت أول امرأة يسند إليها العرش في دولة إسلامية. لم يرضَ الخليفة بهذا الواقع فأرسل إلى كبار العلماء في مصر وإلى المماليك كتاباً يقول لهم فيه: «إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً...» فإسناد العرش إلى امرأة في دولة إسلامية لم يكن حتى ذلك التاريخ مألوفاً. وبناء عليه لم يرسل إليها خلعة المباركة. لقد اعتبر أمراء بني أيوب في بلاد الشام أن العرش في مصر هو من حقهم وحدهم فاستعدوا لقتال المماليك هناك لاسترداد سلطانهم المغتصب.

٢٢ - الأتابك عز الدين ايبك يستلم الحكم:(١)

لقاء هذه العراقيل المستجدّة تزوّجت شجر الدر الاتابك عز الدين أيبك التركماني لتقطع الطريق على مثيري الفتن ثمّ تنازلت له عن العرش الأيوبي بعد مضي ٣ أشهر على زواجها. طبعاً لم تنطلِ هذه الحيلة على الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام وظلّوا يطالبون بالعرش الذي اغتصبه هذا الاتابك. تفاقم الأمر فأقدم عز الدين إلى

(١) ضوميط، مماثل، ص ٢٦.

استقدام أحد الأطفال الأيوبيين ويدعى «الاشرف موسى» وعمره ٦ سنوات وجعله شريكاً له في الحكم، لكن هذه التمثيلية لم تنطل أيضاً على الأمراء فقرّوا، بقيادة الناصر يوسف الأيوبي، أمير بلاد الشام على مهاجمة مصر وإعادة الأمور إلى نصابها وقد فعلوا لكنهم منيوا بهزيمة نكراء قرب العبّاسة وفرّ قائدهم مع فلول جيشه عائدين إلى الشام. بعد ذلك قتل عز الدين أيبك أحد أمراء المماليك، فارس الدين اقطاي الذي نازعه الحكم واحتزّ رأسه ورمى به من أعلى سور القلعة إلى الناس المجتمعين. دبّ الذعر بين أنصاره الذين فرّوا إلى بلاد الشام وعلى رأسهم اثنين من أبرز أمرائهم هما: بيبرس البندقواري وسيف الدين قلاوون. شعر عز الدين بقوّته، فتفرّد بالحكم، ولم يعد يسأل عن رغبات زوجته شجر الدر، بل قرر أن يطلّقها وأن يتزوّج من ابنة بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، فاحتجب عنها وقلّل من شأنها فخافت منه أن يقتلها فقرّرت هي بدورها أن تقتله وتقضي عليه، فاستغلّت دهاءها وذكاءها وجمالها الطاغي، فطلبت من أحد الحكماء أن يغتال زوجها مقابل أن يحصل على منصب الوزير، لكنه تمنّع ونهاها عن ذلك. لم يطل الوقت حتى استدعت مملوكاً يدعى «محسن الجوهري» وأغرته بمفاتنها ووعدته ومنّته بما يرغب إن هو قتل السلطان. ولمّا أعيتها سبل تنفيذ مآربها، استدعت جماعة من خدّامها وأغرتهم بالمال لقتله. وفي أحد الأيام، دخل السلطان إلى الحمّام للاغتسال، وما ان خلع ثيابه حتى وثب عليه أحد الخدم وبادره بلكمة قوية أوقعته أرضاً، فتقدّمت شجر الدر منه وانهالت عليه ضرباً «بالقبقاب» وهو يستغيث ويتضرّع إليها كي تبقي على حياته، لكنها تابعت بضربه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

بعد موته دبّت الفوضى وانقسم المماليك إلى قسمين: الأول يريد الثأر وعلى رأسه مماليك المعزّ أيبك وقد أحاطوا بالقلعة، مقر شجر الدر، والقسم الثاني استعمل الحكمة والتروي كي لا تقع فتنة بين المماليك جميعاً ويخسروا الحكم الذي يطالب به الايوبيون في بلاد الشام. وقد قرّ الرأي على أن يتولّى العرش ابن عزالدين وكان عمره لا يتجاوز الخمسة عشر سنة.

كان عز الدين أيبك، خلال سني حكمه السبع، قد اشترى أرقاء مماليك جدداً وربّاهم وضمّهم إلى مماليك الصالح أيوب الصفار، فعرفوا جميعاً بمماليك ايبك. وهؤلاء المماليك لم يغفروا لشجر الدر فعلتها وحاولوا مراراً الدخول إلى القلعة حيث كانت تعيش، للاقتصاص منها والقبض عليها لكن المماليك البحرية منعوا من تنفيذ هذا الشيء، وفي نهاية الأمر اجتمع هؤلاء بها وأمّنوها وأقسموا أمامها بأنهم لن يتعرّضوا لها بسوء. وقد طالبوا وقبلوا بالاقتصاص من المماليك والخدم الذين شاركوا باغتيال أيبك وقد قبضوا عليهم وقتلوهم صلباً. أما زوجة أيبك الثانية وابنها فلم يغفرا لشجر الدر، فقد حرّضا بعض المماليك التابعين لايبك للثأر منها فقتلوها بالطريقة عينها التي قضى بها ايبك وصار من المألوف منذ ذلك الوقت أن يتولّى الحكم واحد من أمراء المماليك بعد أن يتم انتخابه من بينهم. بعد موت شجر الدر، شغر عرش الدولة واختلف الأمراء المماليك فيما بينهم على من يتولّى الحكم، وكحلّ لمشكله آنية، رفعوا على العرش كما قلنا علي بن ايبك وكان عمره ١٥ سنة وجعلوا أحدهم سيف الدين قطز وصياً عليه تحت اسم أتابك العسكر. أثناء ذلك قرّر المماليك الذين فرّوا إلى الشام بمهاجمة مصر واستلام الحكم وكان على رأسهم الظاهر بيبرس وقلاوون.

٢٣ - الاجتياح المغولي (١٢٥٨):[(١)]

قال شمس الدين الكوفي الهاشمي الواعظ:

يا نكبة ما نجا حتى صرفها أحد
في الورى فاستوى المملوك والملك
تمكّنت بعد عزٍّ في احبتنا
أيدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا
ربع الهداية أضحى بعد عهدهم
معطلاً ودم الاسلام منسفك[(٢)]

(١) ضوميط، مرجع سابق، ص ٣١.
(٢) الأمين، حسن، الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، بيروت، دار النهار للنشر، ط ٢، ص ١٤٠.

وفي سنة ١٢٥٨ خيّم الرعب على المشرق حيث اجتاح المغول بقيادة هولاكو كافة البلدان من حدود الصين مروراً بأفغانستان وآسيا الوسطى وبلاد فارس حتى العراق حيث دخلوا بغداد وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم وأباحوا المدينة لجنودهم مدّة ٣٤ يوماً. فقتل العدد الكبير من الناس وسلبت أموال الأهالي واغتصبت النساء وأضرمت الحرائق في الأبنية وعمّ الدمار والخراب في البلاد. أمام هذا الواقع قرّر قطز استلام الحكم لأن الوقت غير مناسب لبقاء طفل على العرش يمضي معظم وقته في «اللعب وركوب الحمير...» لأن قرارات مصيرية يجب أن تتخذ. بويع بالسلطة بعد خلع علياً بن ايبك.

ظهر المغول فجأة في منطقة حلب أمام أسوار قلعتها فاجتاحوها وقتلوا، كما قيل آنذاك، حوالي ٥٠ ألف نسمة من أهلها ونالت حماه نصيبها أيضاً.(١) وأمام تخاذل الأمراء الأيوبيون في سوريا عن التصدّي لهؤلاء الطغاة حتى ان البعض منهم اقترح تسليم بلاد الشام سلماً(٢) للزاحفين وقد زيّن الناصر يوسف الأيوبي، ملك دمشق، لهولاكو غزو مصر الأمر الذي لم يرض المماليك الذين هربوا سابقاً من مصر إلى بلاد الشام فاتّصل هؤلاء سراً بالسلطان قطز. بواسطة زعيمهم بيبرس البندقداري مقترحين إقامة حلف عسكري مشترك لصد الزحف المغولي. رحّب قطز بالفكرة وقبل بها ووزّع على زعمائهم إقطاعات تتناسب مع مراكزهم.

٢٤ - التفاهم الفرنجي المملوكي للانتصار على المغول:(٣)

بعد احتلال حلب وحمص وحماه، هرب الملك الناصر يوسف الأيوبي من دمشق فسقطت المدينة في أيدي المغول الذين احتلّوا بعلبك وخرّبوها واندفعوا جنوباً فوصلت مقدّمتهم إلى غزة تمهيداً للهجوم على مصر. إنما رفض الصليبيون في صيدا،

(١) المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٣) مكي، مرجع سابق، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

بزعامة جوليان، التفاهم والتعاون مع المغول واندفعوا يهاجمونهم في مرجعيون وبانياس، فارتدّ المغول إلى صيدا، فدمّروا أسوارها وقتلوا أهلها وأحرقوا دورها وهرب جوليان من صيدا في سفينة جنوية إلى عرض البحر. أما صليبيو عكار وبيروت وجبيل وفرسان الداوية فقد هاجموا المغول في منطقة الجليل، لكنهم هزموا وخسروا بهجماتهم. أمام هذا الواقع تحالف فرنجة فلسطين ولبنان مع مماليك مصر على محاربة المغول، وسمحوا لهم بالمرور في فلسطين، فعبروا بقيادة قطز وبيبرس سواحل عكا وتلقّوا الهدايا من الفرنجة والدعاء بالنصر المبين مع العلم أن قطز كان قد قطع رؤوس رسل هولاكو وعلّقها على باب زويلة في القاهرة.[1] هؤلاء الرسل الذين حملوا إليه كتاباً شديد اللهجة يطلبون إليه الاستسلام قائلين: «... نحن لا نرحم من بكى ولا نرقّ لمن اشتكى...».

تقدّم المماليك إلى عين جالوت قرب الناصرة في فلسطين والتقوا بقوات المغول بقيادة كتبغا نائب هولاكو الذي كان قد عاد إلى آسيا الصغرى وذلك في ٣ أيلول السنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ وكان بيبرس في مقدّمة الجيش المملوكي (وهو مولى مغولي من موالي الملك الصالح).

رتّب قطز جيشه في عين جالوت على الطريقة التقليدية أي مقدّمة، ميسرة، ميمنة وقلب ومؤخرة، بإزاء الجحافل المغولية.[1] دارت المعركة بشراسة بين المتقابلين وانتهت بهزيمة الجيش المغولي ومقتل قائده كتبغا مما أدّى إلى إيقاف سيلهم الجارف لأول مرّة. وقد أرسل قطز قائده بيبرس لملاحقة فلول الهاربين منهم حتى مدينة حلب وقد استعاد منهم أسلاباً كثيرة للحلبيين وللشاميين واستولى المماليك على سوريا كاملة.

كان لهذا الانتصار صداه الفعّال بين الناس فعمّت البهجة نفوسهم مكان اليأس والقلق وارتفع اسم بيبرس عالياً كبطل قومي إسلامي وتعلّق القوم بالمماليك عامة وبقطز خاصة واعتبروهم حماة البلاد والإسلام من الأعداء وارتضى الأمراء الأيوبيون بالأمر الواقع وخضعوا للسلطة الجديدة مكرهين

(١) الأمين، مرجع سابق، ص ١٥٠.

وبذلك توحّدت مصر وسوريا مجدّداً لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع المملوكي الفرنجي الذي انتهى بتصفية الحكم الصليبي في الشرق.

لقد وعد قطز الأمير بيبرس بإعطائه نيابة حلب لكنه خاف من طموحه اللامحدود وسلطته ومنزلته العالية عند المماليك وخشي أن يعمل للاستقلال بحلب وبالتالي قد يهاجم القاهرة كما سبق وفعل، لذلك أخلف بوعده له وعيّن عليها نائباً آخر أقلّ منزلة منه مما جعل بيبرس يبيّت له الشر، فبينما كان قطز وبيبرس عائدين إلى مصر منتصرين ظافرين، لاحت الفرصة المناسبة لبيبرس حينما شرد أرنب برّي فتتبّعه السلطان قطز بقصد اصطياده وابتعد عن أنصاره وحرّاسه، فلحق به «بيبرس ورجاله معه وهناك عرض عليه بيبرس العفو عن أحد الأمراء المسجونين، فأجابه لطلبه، فتناول بيبرس يد السلطان متظاهراً بالرغبة في تقبيلها ولكنه لم يفعل بل قبض عليها بكلّ قوّته حائلاً بذلك دون استعمال قطز لسيفه وفي تلك اللحظة بالذات انهالت عليه سيوف المتآمرين وظلّت جثّته ملقاة قرب الصالحية (مكان قريب من القاهرة) طيلة ٣ أيام دون «أن يجرؤ أحد من الاقتراب منها لغسلها وتكفينها ودفنها». وقد اعترف بيبرس لأتابك العسكر بأنه هو الذي قتل قطز فقال له: «... يا خوند أي يا صديقي اجلس على مرتبة السلطان». وهذه الحادثة أصبحت قاعدة متّبعة عند المماليك: «فكان قاتل السلطان يحتلّ مكان القتيل...». بعد مقتل قطز طاف المنادون في الشوارع منادين:

«ترحّموا على الملك المظفر قطز وادعوا لسلطانكم المظفر الملك القاهر ركن الدين بيبرس...». ثار على السلطان الجديد عدد من الأمراء الكبار ولا سيما في سوريا، فقضى بيبرس على ثورتهم بسرعة واقتصّ من الثائرين بقسوة وحزم فغدا سيّد الموقف ولم يطل الوقت حتى قتل في الاردن عمر مغيث الأيوبي أمير الكرك. وبذلك دانت له كلّ البلاد التي كانت تخضع للحكم الأيوبي وبدأت مرحلة جديدة من حكم المماليك، وأصبح الصراع متمحوراً حولهم وحول الصليبيين. وقد انتهى بتصفية الحكم الفرنجي في الشرق.

٣ - سقوط دولة الفرنج في الشرق (١٢٩١)[١]

٣١ - توطئة:

بعد مقتل الاتابك التركماني عز الدين ايبك بيد زوجته شجر الدر وخدمها، تمكّن مماليكه من قتل شجر الدر بالطريقة نفسها التي قتلت زوجها. وقد شغر عرش الدولة، فتمّ الاتفاق بين الأمراء المماليك على أن يتولّى الحكم الأمير علي بن ايبك وكان عمره ١٥ سنة وأن يكون أحدهم سيف الدين قطز وصياً عليه تحت اسم أتابك العسكر (أي قائد الجيش). وكان قد فرّ إلى بلاد الشام، أمراء مماليك كثر مثل بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاوون، ملتجئين إلى الأمراء الأيوبيين وذلك خلال الفترة التي استلم الحكم فيها الاتابك عز الدين ايبك. وعند ظهور المغول في بغداد وحلب وغيرها وتدميرهم للحجر وللبشر وخاصة عندما قرّر الناصر يوسف الأيوبي حاكم دمشق، تسليم بلاد الشام سلماً إلى هولاكو، اعترض بيبرس وقلاوون على هذا الشيء واتصلوا سراً بالسلطان قطز في مصر مقترحين إقامة حلف عسكري مشترك لصدّ الزحف المغولي. رحّب قطز بالفكرة وقبل بها ووزع على الزعماء الآتين من بلاد الشام إقطاعات تتناسب مع مراكزهم. عندما وصل المغول إلى غزة، أرسل هولاكو رسلاً إلى قطز يقولون له بالاستسلام لأنهم «لا يرحمون لمن اشتكى»، فقطع السلطان المملوكي رؤوسهم وعلّقها على باب الزويلة في القاهرة ثمّ تقدّم بقواته عبر فلسطين، كما قلنا سابقاً، والتقى بالجيش المغولي في عين جالوت في ٣ أيلول ١٢٦٠ حيث رتّب جيشه على الطريقة التقليدية وأسفرت المعركة عن انتصار ساحق للمماليك وإيقاف سيلهم الجارف. وقد لعب بيبرس وقلاوون الدور الفعّال في الوصول إلى هذا الانتصار البديع. أرسل قطز قائده بيبرس لملاحقة فلول المغول في بلاد الشام وقد لاحقهم حتى حلب واستعاد منهم أسلاب الناس وممتلكاتهم هناك مع العلم أن قطز

(١) مكي، مرجع سابق، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

كان قد وعد بيبرس بنيابة حلب لكنه خاف من طموحه ومن عمله بلاستقلال بحلب وبالتالي قد يهاجم مصر كما سبق وفعل. بيّت بيبرس الشر لقطز. وعندما سمحت له الظروف قتله وأعلن نفسه سلطاناً على مصر وبلاد الشام باسم السلطان الظاهر بيبرس. وقوّى مركزه بنقل الخلافة العباسية إلى القاهرة السنة ١٢٦٢ ثمّ عمد إلى محالفة: المغول الذين اعتنقوا الاسلام ثم الامبراطور البيزنطي وابن امبراطور صقلية وذلك خوفاً من تحالف هؤلاء مع الصليبيين ضده. وفي لبنان شدّد صلاته مع التنوخيين المتواجدين في الجبال التي تحيط بيروت وصيدا وساحلهما. وما أن سمع بخبر وفاة هولاكو وانشغال الأمراء المغول، حتى راح يهاجم المراكز الصليبية مستغلاً المنازعات العميقة القائمة بين الأمراء الفرنج. فهاجم عكا وقيسارية ثمّ احتلّ صفد وهونين وتبنين والرملة وسيطر على قلاعها وحصونها وأرسل قائده قلاوون إلى شمالي لبنان فاحتلّ حلبا والقليعات وعرقة في عكار وكان ذلك السنة ١٢٦٥. لقد كانت خطة بيبرس «اللواطي» أن يشن حروباً متواصلة ضد الصليبيين بقصد الاستيلاء على السواحل المتاخمة لبلاده الداخلية وقد اعتمد خطة احتيالية ونفّذها بذكاء، إذ كان يعقد صلحاً مع أعدائه لمدة عشر سنوات ثمّ لا يلبث أن ينقضه ويهاجمهم ويستولي على منطقة أو أكثر.

في العام ١٢٦٨ لم يستطع بيبرس الانتصار على الفرنج في طرابلس وضواحيها لأنه في كلّ مرة كانت قواته تقترب من هذه المدينة، كان الموارنة في الشمال ينزلون من جبالهم الحصينة ويهاجمونه بشراسة ويمنعونه من مواصلة الهجوم، فتركها وانتقل إلى انطاكية فاحتلّها وسبى أهلها وباعهم في سوق الرقيق. بعدها لم يبق في يد الفرنج في لبنان سوى الساحل اللبناني من طرابلس إلى عكا. تجاه هذا الواقع وحّد الفرنج صفوفهم من قبرص ومن لبنان بزعامة هيو الثالث فطلبوا الهدنة من المماليك فقبلها بيبرس كعادته لينقضها فيما بعد. ويقال إنه قَبِلَ الهدنة خوفاً من حملة فرنجية جديدة. وكانت هذه الهدنة، لعشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وقد توفي بيبرس العام ١٢٧٧ قبل أن ينقض هذه الهدنة. التي وقّعت معه سنة ١٢٧٢. ورغم هذا لم يستفد الفرنج من الهدنة لتقوية

دفاعاتهم وقوّتهم العسكرية بل عادوا كما كانوا، إلى الخلافات فيما بين أمرائهم. وبعد موت بيبرس تلهّى المماليك بمن يخلف السلطان فجمّدت سياسة المماليك مؤقتاً إلى أن تمكّن القائد سيف الدين قلاوون من انتزاع السلطة السنة ١٢٧٩، فنازعه إليها أمير مملوكي يدعى سنقر الاشقر، الذي نادى بنفسه سلطاناً على المماليك في دمشق. تحالف المغول والفرنج العام ١٢٨٠ ضد قلاوون الذي تمكّن من السيطرة مجدداً على بلاد الشام وتوحيد مصر وسوريا.

٣٢ - السلطان قلاوون يهاجم موارنة لبنان في الشمال (١٢٨٣):

أ -الوضع الفرنجي العام:

العام ١٢٧٥ توفي أمير طرابلس الفرنجي بوهيمند السادس وارتقى ابنه القاصر سدّة الحكم، وقد حكمت والدته الكونتسّة سيبل الأرمنية الأصل هذه الإمارة فنافستها زوجة بوهيمند الخامس لوثيا وأرادت أن تحكم مكانها. وقع الخلاف بين «المرأتين» وتحزّب الناس في هذه المدينة: قسم للأولى وقسم للثانية وأيّد الفرسان السبارتية سيبل بينما أيّد لوثيا الفرسان الداوية. وقد انتقلت هذه العدوى إلى الفرنج في جبيل والسواحل وقامت حرب أهلية في طرابلس أدّت إلى الخراب المدينة.

لم يستفد الفرنج عامة من مناسبة وفاة بيبرس وقيام أحد الأمراء سنقر الأشقر بالاستقلال في بلاد الشام عن مصر ووقوع الخلافات المملوكية، ليقوموا بتقوية جيوشهم وبتوحيد صفوفهم بل وافقوا على هدنة ١٢٨١. وحين تجدّد القتال بين المماليك والمغول في حمص، ظلّ الصليبيون على خلافاتهم الدموية فتناحروا عسكرياً وانفصلوا سياسياً وتكالبوا على المكاسب التجارية بين تجار جنوى وبيزا والبندقية.

ب - الهجوم على الموارنة في الشمال لاسيما موارنة اهدن:(١)

يقول المؤرّخ فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ: «... وقد أعاد السلاطين المماليك فرض القيود المجحفة بحق الذميّين واليهود. فقد أمروا النصارى... أن

---

(١) مكي، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

يلبسوا ألبسة خاصة تميّزهم عن المسلمين ومُنعوا من ركوب الخيل والبغال. وانصبّ الحقد والكره اللذين ولّدتهما الحروب الصليبية على النصارى من أهل البلاد...».

استفاد قلاوون، بعد انتصاره على المغول، من الهدنة مع الفرنج السنة ١٢٨٣ وتوغّل جيشه إلى معاقل الموارنة في أعالي لبنان الشمالي، فاحتلّ القرى والبلدات التي تحيط بطرابلس والتي كانت تساعد المدينة دائماً ضد المماليك حتى وصل إلى بشري واهدن وحدث الجبة وخرّبها، فنزحت جماعات كبيرة من الأهالي إلى الوديان العميقة والجبال العاصية وإلى جزيرة قبرص حيث بلغت جاليتهم هناك ثمانين ألف نسمة. لم يتحرّك الفرنج لنجدة هؤلاء الموارنة الذين كانوا يدافعون عنهم ويتكبّدون الخسائر في كلّ مرة كان المماليك يتقدّمون باتجاه طرابلس لاحتلالها، الأمر الذي أدى إلى التنكيل بقرى اهدن وبشري والحدث بعنف بالغ.

يقول المؤرّخ الدويهي: «... في شهر أيار السنة ١٢٨٣، سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشري وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس، وحاصروا قرية اهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد أربعين يوماً في شهر حزيران، وسلبوا ما وجدوا، وخرّبوا القلعة التي في وسطها، والحصن الذي كان على رأس الجبل. ثمّ انتقلوا إلى ميفوق ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها وأحرقوهم في البيوت ودكّوها للأرض وأكثروا من النهب والسلب. وبعد أن اعملوا السيف بأهل حصرون وكفرسارون وذبحوهم في الكنيسة رجعوا في ٢٢ آب إلى حدث الجبة فهرب أهلها إلى العاصي...».

ج - حصار اهدن واحتلال قلعتها (أيار ١٢٨٣):

في أيار ١٢٨٣، وصلت القوّة المملوكية إلى بلدة اهدن وأحكمت حصارها، مستخدمة المقذوفات والعتل المتوسّطة الحجم والألغام. وكان الرماة المماليك يغطّون عمليات الحفر بسهام ملؤها السّم يرشقون بها الأهالي المدافعين ليرغموهم على التواري، لكن الاهدنيين استبسلوا في القتال وكافحوا ما يقارب الأربعين يوماً مستعملين ما وصلت إليه أيديهم من النبال

المحرقة والأسلحة التي كانت تستعمل آنذاك. لقد حاول المماليك الوصول بأقصى السرعة إلى وسط البلدة حيث توجد القلعة وبداخلها تتمركز قيادة المدافعين. وقد أشار المؤرّخون بأن المراحل النهائية للمعركة جرت فوق قلعة الحصن وبداخل اهدن. اقتحم المماليك البلدة من نواح ثلاث وأحاط قسم من رجالهم بالقلعة الداخلية وراحوا يرمون داخلها بقذائف المنجنيق وبالنبال المحرقة وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم وتوصّلوا عند الظهيرة إلى فتح فجوتين في سور القلعة، الأولى في الزاوية الشرقية والثانية في الجهة الجنوبية وهكذا دخلوا القلعة، وعملوا السيف في رقاب الرجال المدافعين عنها. وكانت مهمة إحدى الفرق، سبي النساء والأطفال وقتل البالغين منهم أو سوقهم ليباعوا في سوق الرقيق أو استعمالهم كعبيد أو مماليك ارقاء لدى الاغنياء منهم والقادة وقد قيل إن النار بقيت مشتعلة في المنازل لمدّة ٣ أيام بعد رحيل العسكر المملوكي ولم تخمد إلاّ بعد عودة الرجال الذين تمكّنوا من خرق الحصار والفرار إلى الجبال الوعرة التي تحيط بالبلدة وإلى وادي قنوبين. لقد حملت رؤوس المدافعين، بعدما قطعت بحد السيف، على أسنّة الرماح وطاف بها فرسان المماليك في أسواق اهدن الضيّقة، فساور الهلع ما تبقى من أهاليها وارتاعوا فاستسلموا لأعدائهم علّهم يعفون عنهم ويكونون من الناجين... والله أعلم. وقبل ذلك كان قد أعلن قائد الحملة العسكرية عن طريق المنادين بأنه «يمنح العفو التام» لكلّ من يسلّم نفسه من الأهالي المقاتلين. وثُقَ البعض في هذا الكلام أما البعض الآخر فقد شكّ به وقد كان هذا البعض الآخر على حق لأنه رأى في القلعة المطلّة ما حصل للآخرين الذين استسلموا فقتلوا فوراً شرّ قتلة... هكذا.

د - سقوط مدينة طرابلس وبقية المراكز الصليبية في لبنان:(١)

في السنة ١٢٨٧، توفي أمير كونتية طرابلس بوهيمند السابع، فأعلنها أهاليها فوراً

(١) مكي، مرجع سابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
- ضوميط، مرجع سابق، ص ٤٢.

«كومون» ثمّ استدعوا أمير جبيل لرئاستها نظراً للخلاف الحاصل بين رؤوساء العائلات الفرنجية بداخلها. استفحل الشرّ وذرّ قرنه بين الناس جميعاً وراح قسم من الأهالي يعمل ضد أمير جبيل الذي استنجد بالسلطان قلاوون ضد أخصامه المحليين، فقام السلطان وعسكر في منطقة القبّة القريبة من المدينة ثمّ أطلق هجومه الكبير على طرابلس فسقطت في ٢٦ نيسان ١٢٨٩. ولم ينج من الرجال إلاّ العدد القليل. وكعادتهم المتبعة، فقد سبى المماليك النساء والأطفال وباعوهم رقيقاً للمسلمين لقد اعتبر هذا العمل في غاية الجهاد. وقد قال أحد الشعراء آنذاك، مادحاً قلاوون، فيشبّه فتح طرابلس بمعركة «بدر» الكبرى التي خاضها محمد ﷺ ضد مشركي العرب:

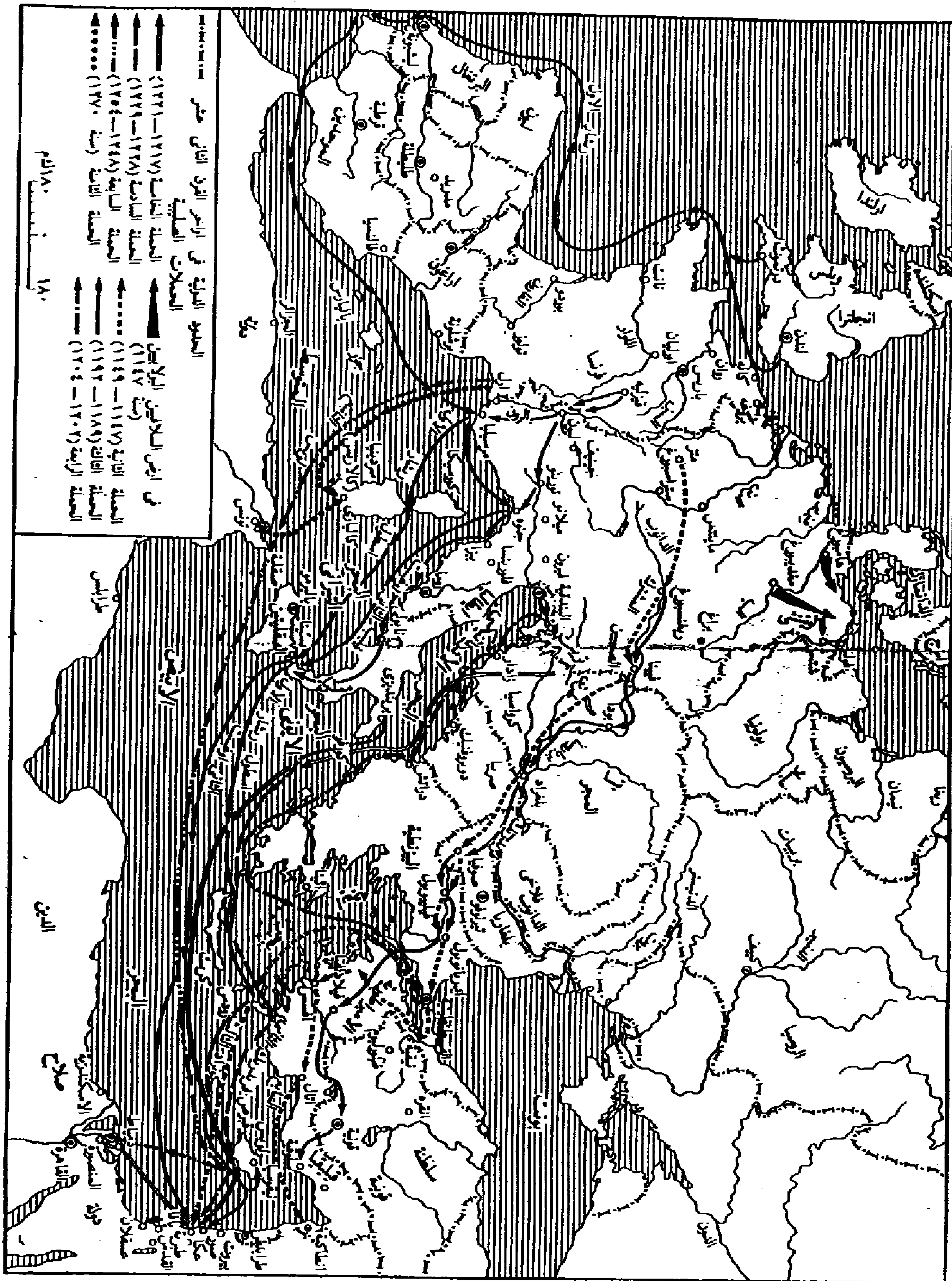
فإن تَكُ قد فاتَتْكَ بدرُ
فهذِهِ بما أنزل الرحمنُ منْ نَصرِهِ بدرُ

بعد طرابلس استولى قلاوون على «أنفه» ودك قلعتها ثمّ احتلّ البترون وأعطى للأميرة لوشيا قريتين من قراها وثبّت أمير جبيل على إمارته لقاء جزية يدفعها سنوياً نظراً لمساعدته في فتح طرابلس. أما أمير بيروت فقد ثبّته قلاوون عليها لأنه طلب منه الأمان.

هدمت قلعة طرابلس وأمر السلطان ببناء مدينة أخرى بعيدة عن الشاطىء لابعادها عن خطر الغزو البحري.

في هذه الأثناء عاد السلطان إلى مصر ليهيء حملة جديدة لاحتلال ما تبقّى من المدن والمراكز الفرنجية، مثل صور وصيدا وعكا وبيروت. طلب أمير عكا الهدنة فأعطيت له لمدّة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، وفي الوقت نفسه طلب النجدة من البندقية وقد كان مواطنوها يسيطرون على هذه المدينة، لبّت البندقية الطلب وانجدت عكا. وفور وصول قواتها إلى هناك عمدت إلى قتل النصارى العرب والمسلمين المقيمين فيها. غضب السلطان لهذا التصرّف الأرعن وهذه الهمجية فقرّر تجهيز حملة عسكرية للقضاء على الصليبيين بصورة نهائية لكنه توفي السنة ١٢٩٠ وحلّ مكانه ابنه السلطان الاشرف خليل الذي تابع تجهيز الحملة. وفي ٥

الحملات الصليبية (١١٤٧ - ١٢٧٠)



نيسان السنة ١٢٩١ وصل المماليك إلى عكا وضربوا عليها الحصار الشديد حتى استسلمت في ١٧ حزيران من السنة نفسها فأمر بهدمها حتى الأرض، وقتل من فيها من الناس. وكانت صور قد سقطت قبل ذلك بتسعة أيام. وفي صيف ١٢٩١، تمّ جلاء القوات الصليبية عن لبنان والشرق وخلال ذلك أرسل السلطان قائده سنجر الشجاعي إلى بيروت فأخذها سلماً ونقل سكانها الفرنج إلى دمشق ثمّ إلى مصر ومنها إلى قبرص. أما مدينة جبيل فقد أبقى أهلها فيها، بعدها هدم المماليك صور وصيدا وتحصينات بيروت. ويقول ابن بطوطة الذي مرّ في ديارنا العام ١٣٢٧ ما يلي: «... ثمّ سافرت إلى عسقلان وهي الآن خراب... ثمّ سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكا وهي خراب. وكانت عكا قاعدة بلاد الافرنج بالشام وهي خراب. ثمّ سافرت إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة».(١)

٤ - السياسة المملوكية في بلاد الشام

إن العلاقات السيئة بين المماليك والقوى المعادية لهم حسمت في النهاية لصالح المماليك. فزالت المملكة الصليبية في الشرق وسقطت مملكة ارمينيا الصغرى نهائياً في أيديهم في مطلع القرن الرابع عشر وضمّت ممتلكاتها إلى الدولة المملوكية التي أصبحت تسيطر على السودان والحجاز بما فيها الأماكن المقدّسة عند المسلمين، وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر، والأطراف الجنوبية لتركيا.

لقد تناولت سياسة المماليك إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقّة وضمّها إلى حظيرة السنّة، على غرار السياسة الزنكية في أيام نور الدين زنكي والسياسة الايوبية التي اعتمدها صلاح الدين وهي توحيد المذاهب الإسلامية باعتماد المذاهب الأربعة المعروفة بمذاهب السنة: الحنبلية - الحنفية - الشافعية والمالكية.

(١) مكي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

تجاه هذا الواقع عمد السلاطين إلى استعمال الضغط والإكراه والإرهاب والتنكيل بأتباع المذاهب الإسلامية الباقية، وقد دفع الشيعة والدروز وغيرهم ثمن هذا التعصّب التوحيدي... هكذا!!. وكان أشهر من دبّج فتاوى لهدر دماء الناس كان الإمام ابن تيمية. وكان أصعب شيء على الإنسان في تلك الأيام، أن يرمى بالتشيع، فتصادر أملاكه ويعاقب بأشد العقوبات والإهانات حتى يُظهر التوبة. وإذا أراد المماليك التنكيل بمنطقة كبيرة، أهلها من غير المذاهب الأربعة، كانت السلطة ترميهم بحجج مختلفة كالاتصال بالعدو الصليبي «الغاشم» أو الاتصال بالمغول الكفّار أو الأيوبيين المتهوّرين على غير طريق الصلاح كلّ ذلك لإسقاط الحكم المملوكي. وقد قتل المماليك من الإسماعيلية والنصيرية العلوية والشيعة عدداً كبيراً في سوريا فهرب قسم كبير من الشيعة إلى جبل لبنان والتجأوا إلى جباله ووهاده وإلى البقاع، لأن المماليك كانوا يرون في الشيعة خطراً سياسياً. لقد أرغم الظاهر بيبرس النصيرية على بناء مساجد في قراهم. أما الدروز فلم ينظر إليهم المماليك كطائفة تشكّل خطراً عليهم إذ أنهم أقلية صغيرة يتوطّنون بقعة ضيّقة محصورة، ليس لهم أي خطر سياسي على سلطتهم، رغم انحرافهم مذهبياً عن السن مذهب السلطنة. وقد طلب منهم الاشرف خليل، أن يكونوا ولو ظاهرياً، مسلمين سنّة إلاّ أن طلبه لم يحقق.

لقد كان عهد المماليك عهد الظلام في الفكر والمنطق. وكان السلاطين أنفسهم من أغبى الحكام الذين عرفهم الإسلام ومن أقلّهم ثقافة. فقد كانوا عبيداً ارقاء يتميّزون بالقوّة والفظاظة لكنهم كانوا عسكريين أشدّاء. كيف يزدهر الفكر ويعيش، والحروب والفوضى والمرض والجوع والظلم، تعمّ الناس قاطبة.

الخاتمة

في السنة ١٢٧٤، طالب البابا غريغوريوس العاشر في مجمع ليون، في فرنسا، بتنظيم حملة صليبية جديدة. ولكن نداءاته لم تلق الجواب الشافي وظلّت معلّقة في الهواء: فالراغبون في القتال في الشرق

من أجل قبر السيّد المسيح، كانوا قلائل. فالموقف السلبي من الحملات الصليبية السابقة، كان قد تجذّر وترسّخ إلى حدّ أن أحد المؤرّخين الايطاليين كان يقول: «إن الرب لم يشأ استعادة القبر المقدّس من جديد».

في ٢٦ نيسان السنة ١٢٨٩، استولت قوات الملك الاشرف خليل قلاوون على إمارة طرابلس الصليبية. وفي ١٨ أيار السنة ١٢٩١، سقطت عكا، وحوّلها المسلمون فيما بعد إلى أنقاض. وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود.

إن مؤلّف كتاب «البكاء على سقوط عكا»، الراهب الدومينيكاني «ريكولدو دي مونتي كروتشي»، كان قد ذكر في أواخر القرن الثالث عشر فشل الحملات الصليبية، بكون الدول الأوروبية أو الغرب، على وجه العموم، «رفض أن يقدم للأرض المقدّسة دعماً فعالاً»، لأن فكرة الاستشهاد من أجل القدس، لم تعد، برأي هذا الراهب، تحمل الإرتياح المعنوي.

في الواقع نرى أن الحروب الصليبية قد توقّفت لأنها قدّمت البرهان الجلي الساطع على عقمها، كما ان الحوافز الاجتماعية التي استثارتها فيما مضى، في القرن الحادي عشر، قد فقدت قوّتها في غضون ٢٠٠ سنة. لقد قامت، في القرون التالية، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب الصليبية من أجل الأرض المقدّسة، ولكنها أخفقت جميعها؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى. ومما لا شك فيه أن هذه الحملات التي دامت زهاء ٢٠٠ سنة، كما ذكرنا، لم تمرّ دون أن تترك أي أثر. ولكن هناك أمر آخر، غني عن البيان، هو أن الأهداف المباشرة التي طرحها ملهموها ومنظّموها والمشتركون فيها، لم تتحقق، وأن النتائج التي أُحرزت كانت قصيرة الأمد جداً. فان الدولة اللاتينية الإقطاعية والإمارات التي انبثقت منها، والتي أسّسها الاقطاعيون الغربيون في المشرق العربي، قد دامت بالفعل، في أغلبيتها، حقبة زمنية قصيرة نسبياً. كانت تمزّقها التناقضات الاجتماعية والدينية والاتنية الداخلية، فلم تستطع ان تصمد تحت ضغط العالم الإسلامي، وسرعان ما خرجت من الساحة. «لقد طمر رمل النسيان آثار الفرسان

المدرّعين قبل أن تبهت في الغرب الذكريات عن أفعالهم القاسية والبطولية بزمن طويل». ومنذ أواخر القرن الثاني عشر وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر، كانت الأراضي البيزنطية تغري كثيرين من الأسياد الأوروبيين أكثر بكثير من بلاد الشام؛ وأخذ تدفّق رجال الطبقة الارستقراطية من الغرب إلى إمارات الفرنجة في سوريا ولبنان وفلسطين يقل أكثر فأكثر. وعدا ذلك، وجد عدد لا يستهان به من الفرسان الفرنجة، مع مرّ الزمن، مخرجاً من الرغبة في القتال والحرب بالانتماء إلى الجمعيات الرهبانية العسكرية التي لم يكن نشاطها يرتبط بالدفاع عن الشرق اللاتيني فقط. وعلى كلّ حال، كانت الحملات الصليبية تعني بالنسبة للطبقة الإقطاعية في أوروبا الغربية سفك الدماء بمقادير هائلة؛ ذلك ان النجاحات في المشرق العربي، بما فيها أبسطها وأصغرها، كانت تلك ضحايا كبيرة.

ومما لا شك فيه أن التعرّف إلى الشرق أسهم في إحداث تغييرات في نمط حياة الأسياد في الغرب، فإن الفارس الصليبي كانت تستحوذ عليه، بعد عودته إلى الوطن، مطامح جديدة، وكانت تظهر عنده أدلّة تقييميّة جديدة. ولم يكن ليعارض الاستعاضة عن لباسه الخشن المغزول في البيت، بالألبسة الشرقية الناعمة والجميلة؛ وتزيين جدران منزله بالسجاجيد؛ والاستعاضة عن المرآة من البرونز المصقول أو من الفولاذ بالمرآة الزجاجية.

خلاصة القول، ان حاجات الإقطاعيين تزايدت، وان بنيتها تبدّلت؛ وفي الوقت نفسه أخذت تدخل حيّز الخدمة أكثر فأكثر، وسيلة موثوقة لتلبية الحاجات وهي النقود. لقد اقتبس الغربيون من الشرق الكثير الكثير من العادات والتقاليد والصناعات المتطوّرة في صنع الأقمشة حسب النمط الشرقي ومنها نوعان «الداما والموصلين»، «نسبة إلى دمشق والموصل»، ونوع الأطلس. وكذلك انعكس تأثير الشرق على نطاق واسع جداً في ميدان الآداب والمعيثة. وباختصار نذكر: لقد نقل فرسان الفرنجة، منجزات شعوب الشرق إلى تربة الغرب، الأمر الذي أدّى أو يكاد إلى بناء ثقافة جديدة في الغرب الأوروبي، إنما،

ونقولها بكلّ تأكيد، إن الحروب الصليبية عنت، من وجهة نظر التقدّم الأوروبي العام، تبديد القيم المادية والموارد البشرية بمقادير كبيرة وعبثاً وعلى المكشوف. وقد ذكر أحد المؤرّخين ان «الحملات الصليبية كانت بالنسبة لبلدان الشرق العربي وبلاد الشام كارثة حقيقية. ذلك أن الفرنجة حملوا إليها الخراب في سياق عشرات السنين، واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى في آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر واستحقوا عن جدارة فائقة كره وازدراء شعوب الشرق العربي. «لقد كلّف الجنون الصليبي، أوروبا، من الأموال ومن الأرواح البشرية ما لا عدّ له...». لقد كانت الحروب الصليبية ملحمة عسكرية وصراع سياسي وعقائدي واقتصادي لم يشهد له التاريخ مثيلاً أبداً.

بعد كلّ هذا حان لنا أن نسأل عن أسباب إخفاق المسلمين في التصدي للغزاة الفرنجة، عندما طوّقوا ديارهم للمرّة الأولى، وعن عدم تمكّنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلّة إلاّ بعد وقت طويل جداً وجهود مضنية.

إن المسألة بديهية هنا، فالجسد الضعيف، المعدوم المناعة، الموزع الطاقات هو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرّض لمؤثّراته. والجسد القوي هو الذي يتصدّى للمرض ويقاومه حتى إذا ما أصيب بالعدوى، فإنها تكون حالة عارضة تزول بسرعة. من هذا المنطلق قد نستطيع فهم أسباب الانتصارات الباهرة التي حققها الفرنجة عندما وصلت حشودهم السنة ١٠٩٨ إلى مشارف بلاد الشام. لقد احتلّوا أجزاء كبيرة منها دون مقاومة فعّالة تذكر. لقد كان الخصم المسلم الذي واجه هذه الحشود، من الضعف والتمزّق بمكان، سهّل مهمّة الفرنجة ويسّرها. فعند وصول الفرنجة إلى مشارف الشام، كانت جميع البلدان في المشرق تعيش في حال من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية، فقد كان هناك خلافتان: واحدة في بغداد، وثانية في القاهرة، وكانتا في صراع دائم، ونزاع عقائدي دموي مستمر، كما ان الأحوال الداخلية في كلّ من هاتين الخلافتين كانت جدّ سيّئة حيث كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جنود

نسَوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي، وتذكّروا فقط كيف يقاتلون من أجل الفتن والاستقلال والتسلّط على سدّة الحكم. ودامت هذه الحال طوال الوقت الذي عانى فيه المسلمون والعرب من الضعف العام الناشيء عن تمزّق قواهم، بإلقاء بأسهم بينهم. عندما شرع المسلمون في توحيد صفوفهم، ونبذ خلافاتهم الداخلية جانباً، وملكوا حريتهم وإرادتهم في توجيه قواهم نحو نحور أعدائهم الفرنجة، حلّت «الفرقة» بين صفوف أخصامهم، وأصابهم التمزّق. وهكذا بدت أيام بقاء الصليبيين في بلاد الشام مرهونة بالوقت، وقد أتى. ففي السنة ١٢٩١، حلّت الكارثة وسقطت مدينة عكا، آخر ممتلكات الفرنجة في الشرق وزالت مملكة القدس اللاتينية من الوجود.

المراجع العربية والأجنبية

أولاً - العربية:

١ - الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان - مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٥٤، جزئين.

٢ - الأمين، حسن، غارات على بلاد الشام، توزيع دار قتيبة، طبعة أولى، بيروت، عام ٢٠٠٠.

٣ - القرآن الكريم.

٤ - ابن القلانسي، تاريخ ابن معلى حمزة - بيروت ١٩٠٨.

٥ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ - دار بيروت للنشر ١٩٦٥ - عدّة أجزاء.

٦ - العهد الجديد - الأناجيل - أعمال الرسل - بيروت ١٩٩٨.

٧ - أوسابيوس، التاريخ الكنسي (بالانكليزية) - لندن ج١ - ١٩٢٨.

٨ - الصوري، وليم - تاريخ الحروب الصليبية - دار نوبلس، بيروت ١٩٩٠.

٩ - بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام: دار عواد للنشر، دون تاريخ بيروت.

١٠ - جواهر لآل نهرو، لمحات من تاريخ العالم - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، طبعة ثانية، بيروت ١٩٥٧.

١١ - جريدة البلد، بيروت ٢٠٠٥/١٢/٦.

١٢ - حتي، فيليب، د. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جزء٢ ، بيروت دون تاريخ.

١٣ - حتى، فيليب، د.، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية، عفيف البعلبكي، بيروت، دون تاريخ.

١٤ - حتي، فيليب، د.، صانعوا التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، بيروت ١٩٦٧.

١٥ - حتي فيليب، د. لبنان في التاريخ - دار الثقافة. بيروت ١٩٦٨.

١٦ - حنظل، فالح، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٧.

١٧ - رنسيمان، ستيڤن، تاريخ الحروب الصليبية - عربه الباز العريني، بيروت، دار الثقافة ١٩٨٥.

١٨ - زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق - دار التقدم موسكو، ترجمة الياس شاهين ١٩٨٦.

١٩ - ضوميط، انطوان، د. المماليك والعثمانيون وعهد السلطان سليم الأول، لبنان - مكتبة حبيب، طبعة أولى ١٩٩٥.

٢٠ - كرد، علي محمد، خطط الشام، جزء أول، دمشق ١٩٢٥.

٢١ - مجلس كنائس الشرق الأوسط، المسيحية عبر تاريخها في المشرق، بيروت، طبعة أولى، بيروت ٢٠٠١.

٢٢ - مكي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧.

ثانياً - الأجنبية:

1 - BEHIER, L'Eglise et l'Orient au M.A: Les Croisades, Paris, T III, 1928.

2 - Cauret, A, La PALESTINE Sous les Empereurs Grecs, Grenoble, France 1869.

3 - Encyclopedie, UNIVERSALIS, FATIMIDES, vol 6.

4 - GRUSSET, RENÉ, L'Epopée des Croisades, Perrin, Paris 1995.

5 - Jonathan, Riley, Smith, Les Croisades, Pygamalion, Paris 1990.

6 - Lammens, Henri, L'ARABIE Occidentale avant L'Hégire, Beyrouth, 1928.

7 - Maalouf, AMIN, Les Croisades Vus par les Arabes, Ed J'ai lu, Paris 1983.

8 - Michel, Le Syrien, Chroniques, 4 volumes, Paris 1910, vol. 2.

9 - NIKITA, Elisséeff, Nur Ad Din, Damas, Syrie, 3 volumes, 1967.

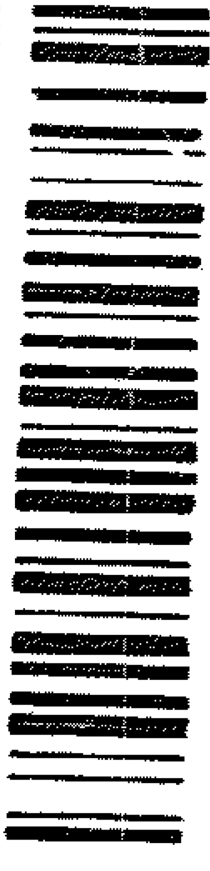
10 - Ramsay, W. M. The Historial Geography of Asia. Minor Royal, Geo, Society, vol IV, London 1890.

11 - Rosière, E. De Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du V au X siècle, vol 2, Paris 1879.

فهرس الجزء (١٧)

الخرائط

الصور



Bibliotheca Alexandrina
0587033